

المملكة العربية السعودية
جامعة الملك سعود - الرياض



المجلس العلمي

١٣

الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثير

للدكتور

محمد جيب السويح

١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م

أُخرِفت على طباعته ونشره : إدارة الثقافة والنشر بالجامعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

بقلم صاحب المعالي

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

الحمد لله ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وبعد ،
فقد أتيت لي أن أقرأ الجزء الحادي والعشرين من مجلة مجمع اللغة العربية
(١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م) فرأيت كلمة ضافية عن (كتاب الأدب الأندلسي
بين التأثير والتأثير) ألقتها الأستاذ الدكتور محمد مهدي علام مقرر لجنة
الأدب بالمجمع ، في حفلة أقيمت لتكريم الدكتور محمد رجب البيومي
مساء يوم الأربعاء ٢٦ من شعبان سنة ١٣٨٥ هـ بمناسبة فوزه بالجائزة
الأولى للدراسات الأدبية عن كتابه الأدب الأندلسي ، وسرني أن أجد
الدكتور محمد مهدي علام يقول في كلمته بالجامعة بعد أن قدم المؤلف تقديماً
حافلاً بتاريخه وآثاره الأدبية في الشعر والنثر ما نصه ١ :

« ومما يذكر للباحث شجاعته في مناقشة آراء السابقين والمعاصرين ،
وهي شجاعة محمودة كشفت عن سعة اطلاع وثقة بالنفس ، كما كشفت
عن بعض الحقائق التي نددت عن سابقه ، ولا شك أنه سيسلم لمن يقرأ
بحثه أن يسلط عليه من الأضواء مثل ما سلط هو على كتابات من سبقه ، لقد

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢١ ص ٢٠٦ .

تبنى الباحث موضوعاً شاقاً تبناه وأحبه وعطف عليه، وعكف عليه ، ولكنه لم يتعصب له إلا قليلاً ، لقد بحث عن المجد العربي في الأندلس ، وأشاد به وبأثره في المشرق العربي ، وفي المغرب الأوربي ، ولكنه حين بدا له أن السبق لم يكن للأندلس في بعض الفروع لم يتردد في إعلان ذلك، كما فعل في موضوع الموشحات ، وفي موضوع رثاء المدن والدول فقد خاض في هذين الميدانين معركتين أصاب فيهما نصراً ، وأصابته منهما بعض الجراح ، وقد كان في هذا ككل جندي باسل يتقدم إلى هدفه محتملاً كل ما يقابله من صعاب .

لقد تحدث الباحث في أثر الأزجال والموشحات في شعراء التروبادور ، وعن دور الأندلس في نمو القصة الأوروبية ، وعن أثر الحب العذري في الأدب الغربي ، واختص بعض نوابغ الأندلسيين بدراسة مستفيضة ، كصاحب طوق الحمامة ، وصاحب حي بن يقظان وابن رشد وما أحدثته كتبه من يقظة فكرية في أوروبا ، كذلك ناقش في أسلوب علمي تأثير ابن شهيد في أبي العلاء وأثر ابن خلدون في الأسلوب الأدبي المعاصر) أ . هـ

وقد دفعني ما كتبه الدكتور علام إلى طلب الكتاب وقراءته ، لأن صاحبه من منسوبي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وممن قاموا بالتدريس في كلية اللغة العربية بالرياض ، فدهشت حين أخبرني الدكتور البيومي أنه لا يزال مخطوطاً ، ورأيت أن أتصفح في مخطوطته ، فراقني أن أجد إماماً طيباً بالموضوع ، وأن أصيب بعض الحديد القيم مما أشار إليه الدكتور محمد علام .

والحق أن روح الكتاب تجذب إليه قارئه ، لأنه يبرز مكانة الإسلام الحضارية ، وأثره في تقدم العمران شرقاً وغرباً ، ويصور ما أحدثته الفتح الإسلامي في الأندلس من حضارة زاهرة ، ومجد علمي تليد ، ولم يرسل الباحث قوله إرسالا دون تدليل ، فقد كانت مصادره الموثوق بها ذات إقناع حاسم . وبعضها مما كتبه قوم لا يدينون بالإسلام ، ولكنهم

يعترفون بالحقيقة العلمية دون تعصب بغيض ، وأنت تقرأ ما كتبه المؤلف تحت عنوان (قضية التأثير من الوجهة الأسبانية ، فتجد أقوال المؤيدين مسلسلة وفق أدوارها الزمنية) ، وفيهم من أقنع وأمتع ، وقد وقفت وقفات راضية عند ما نقله الدكتور البيومي عن الأديب الأشهر كلوت فارير الفرنسي ، إذ يتحدث عن مآثر الإسلام في الحضارة الإنسانية ، ويعلن أن اندحار الجيش العربي في معركة (بواتيه) المعروفة عند المسلمين بمعركة (بلاط الشهداء) كان كارثة على أوروبا ، إذ أخرج نمو الحضارة سبعة قرون ، ولو انتصرت جيوش الإسلام في هذه المعركة لأنقذت أوروبا من الظلام ، يقول الكاتب فيما نقله الدكتور البيومي وجعله خاتمة لكتابه :

« حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفجائع التي انقضت على الإنسانية في العصور الوسطى ، وكان منها أن غمرت العالم الغربي مدة سبعة قرون أو ثمانية إن لم يكن أكثر طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة ، هذه الفاجعة هي التي أمقت حتى ذكرها ، وأعني بها الانتصار البغيض الذي ظفر به على مقربة من (بواتيه) أولئك البرابرة المحاربون من الإفرنج بقيادة (شارل مارتل) على كتائب العرب والمسلمين الذين لم يحسن عبد الرحمن الغافقي جمعهم على ما ينبغي من الكثرة ، فانهزموا راجعين أدراجهم ، وفي ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدينة ثمانية قرون إلى الوراء .

يكفي المرء أن يطوف في حدائق الأندلس أو بين الآثار العربية التي لا تزال تأخذ بالأبصار مما يبدو من عواصم السحر والخيال - أشيلية وغرناطة وقرطبة وطليلة - ليشاهد والألم آخذ منه ما عسى أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العمراني المتسامح ، وخلصها من الأهاويل التي لا أسماء لها ، وكان من ذلك أن نتج خراب غاليا القديمة فاستعبدها لصوص أورسترازيا ، ثم اقتطع قرصان النورماندين جزءاً منها ، ثم تجزأت وتمزقت وغرقت في دماء ودموع حدث ذلك حين كان

العالم الإسلامي من نهر الوادي الكبير في أوربا إلى نهر السند في قلب آسيا
يزدهر كل الازدهار في ظل الإسلام» .

أما الأبحاث الخالصة للأدب العربي ففيها الجديد حقاً حين أثبت المؤلف
بالشواهد أثر الأدب العربي في نمو القصة الأوربية ، كما أوضح تأثير العفة
العربية والمروعة الإسلامية فيما وجد من شعر عفيف يتجه إلى المثل الكريمة ،
وأنا لست معه في جعله ابن خلدون أندلسياً متابعاً للأستاذ أحمد أمين فالرجل
مغربي بنشأته ومرباه ، ولا يغني انتمائه في أصوله البعيدة للأندلس شيئاً
في هذا المجال ، وإذا كان الإسلام أمة واحدة فإننا نضيق كل الضيق
بمحاولة استئثار إقليم ما من الأقاليم الإسلامية بناغة لم يظهر في أفقه التماساً
لتعلات بعيدة كما هو الشأن في ابن خلدون وابن سينا والبيروني ممن دارت
حولهم معارك لا تهدي إلى صواب !

ومجال المناقشات التي أدارها المؤلف أكثر من أن يحدّ ، وقد حمدت
له شجاعته الأدبية مع أساتذته الكبار لأن الحق حق ، كما وقفت عند قوله
في المقدمة : « وقد يرى القاريء أنني أكثرت من مناقشة أستاذي الكبير
أحمد أمين في الأدب الأندلسي ، وعذري أن صلتني الشخصية به قد دفعني
من قديم إلى قراءة جميع مؤلفاته واستيعابها جهد الطاقة ، وقد كان رحمه الله
يرتاح إلى معارضتي ، ويشجعني عليها مصيباً كنت أو مخطئاً » .

أقول وقفت عند هذا القول ، لأني أعرف من تاريخنا العلمي تشجيع
الأساتذة لتلاميذهم ، وترحيبهم بمعارضاتهم العلمية القائمة على الدليل ،
ودارسو المذاهب الفقهية يقفون على كثير مما خالف فيه اللاحق السابق ،
فإذا تخرج المؤلف بعض الشيء من معارضة أستاذه ، فهو تخرج لم يمنعه
من قول ما يعتقد وتلك سنة الباحثين .

ولعل من الخير أن أترك الكتاب لقارئه ، مرحباً به في مطبوعات
الجامعة ، وراجياً أن ينفع دارسي الأدب الأندلسي بما قدم من الجديد .

والله ولي التوفيق

د . عبد الله بن عبد المحسن التركي

سر لسان العرب للروم

حين قرأت إعلان المسابقة الأدبية ، وجدت في نفسي رغبة صادقة في الحديث عن الأدب الأندلسي ، فعندي عنه ما يمكن أن يقال فيه ، ولكن اقتصار الإعلان المجمع على كلمتي الأدب الأندلسي وحدهما ، قد تركني في حيرة إذ أن ثمانية قرون تحفل بمئات الشخصيات وشتى المذاهب ومختلف العصور لا يمكن أن يتسع للحديث عنها كتاب واحد يكتب في أشهر ! فلا بد أن يكون الحديث عن ناحية خاصة من نواحي هذا الأدب الحبيب !

ولكن أي ناحية أختار ؟ إن كتاباً يقدم في مسابقة جمعية ، لا بد أن يحفل بالجديد ، فيضيف للحقائق المعلومة طريقاً غائباً ، أو يوضح غامضاً خافياً من الرأي أو يفصل مجملًا موجزًا من الحكم ، وإلا كان تكراراً سقيماً يطالعه المثقف متحاملاً على نفسه ، ومشوقاً أن يفرغ من سطورهِ ، وكأنها عبء ثقيل ، لذلك أخذت أفكر فيما أتحدث عنه ، حتى اهتديت إلى موضوع التأثير والتأثير فهو في رأيي يتسع للتفصيل والتوضيح .

لقد تعرض بعض الباحثين إلى هذا الموضوع ، فليس الحديث عنه جديداً كل الجدة ولكننا عهدنا من يكتبون عنه يوجزون القول بحيث يكتفون بباب واحد أو بايين ، فرأيت أن أقف وقفات هادئة لدى مناحيه المتشعبة لأرد عملياً على من يزعمون أن إيضاح التأثير الأندلسي في الأدب الأوربي شاق عسير لأن الآثار الأدبية في زعمهم يندمج لاحقها بسابقها بحيث يتعسر تمييز أصولها على الوجه الصحيح ، ولا كذلك الآثار الفنية والحضارية ! فهم يزعمون أننا لا نستطيع أن ننكر أثر الأندلس في الموسيقى والغناء والزخرفة المعمارية لوجود الآثار الموائل ناطقة شاهدة ولكننا نجد من ينكر التأثير الأدبي معارضاً ما قيل في إثباته باحتمالات وافتراضات تقوى آناً وتضعف آونة ، وقد كان ذلك ممكناً لو جملنا حديث التأثير في بضع

صفحات كما تعود أن يجعله الكاتبون ، أما وقد أفردنا كل باب ببراهينه وأدلته فإن الافتراضات المحتملة لا تنهض في دحض الواقع الراسخ إلا كما تقدر نسمة واهية على زعزعة طود مكين !

ولكن كيف نتابع خطوات هذا الموضوع الدقيق ؟ لدينا تأثير وتأثير ، فلنبحث عن مواضع التأثير في الأبواب الأولى ، ومنها المطروق الواضح مما لا سبيل إلى خفائه كأستاذية المشرق وارتداد الثقافة الأندلسية إلى يناييعه ، ومنها ما أتينا فيه بجديدرأيناه واعتقدناه كتأثير كتاب اليتيمة في أدب الأندلس وتحديد مدى الإصالة في شعر الطبيعة وفي رثاء المدن والممالك ! والخطب في ذلك كله أهون من سواه .

أما موضوع التأثير ، فقد تطلب من التبسيط والإيضاح ما ملأ أكثر صفحات هذا البحث إذا كان عليّ أن أواجه حقائقه العلمية في فصول محددة ذات أهداف ، فتحدثت في فصل أول عن أثر الأزجال والموشحات في شعراء التروبادور ، وفي فصل ثان عن دور الأندلس في نمو القصة الأوروبية متأثرة بالتيار العربي ، وفي فصل ثالث عن نفحات الحب العذري في الأدب الغربي مستلهمة آثار ابن حزم في الطوق وفي فصل رابع عن سبق ابن طفيل إلى الحديث عن التربية الذاتية والتاريخ الكوني للحياة ، والتأمل الفلسفي في قصة حي بن يقظان موضعاً مبلغ تأثيره فيمن تلاه ، وفي فصل خامس عن ملاحم الأندلس شعبية وعربية وكيف أوحى باتجاه أدبي جديد .

أما التأثير في المحيط الشرقي فقد بسطت الحديث عنه في ثلاثة فصول تتحدث عن تأثير ابن شهيد في أبي العلاء وعن أثر الأندلس في الثقافة العلمية بمصر ، وعن صدى ابن خلدون في أسلوبنا الأدبي المعاصر ، وأرجو أن أكون - بعد هذه المحاولات المتواضعة - قد أضفت الجديد بما عاجلته من البسط والتوضيح .

وقد تحاشيت جهدي أن أقع في أخطاء رسائلنا الجامعية كما أراها من وجهتي الخاصة فهي من ناحية أولى تعني غالباً بالكم عناية مستغربة ، إذ كثيراً ما تتجاوز الرسالة أربعمئة صحيفة في غير طائل ، فلو أن أحدهم كتب في موضوع يتصل بالأندلس مثلاً لملاً أكثر من مائتي صحيفة بتاريخ الأندلس ومناخها وملوكها وتابع الولاة منذ موسى بن نصير إلى بني الأحمر مسهباً في تراجم الشعراء والأدباء دون ضرورة ملحفة ، وأنا أربأ بأعلام المجمع أن أطلعهم بالذائع الشهير ، أما المباحاة بالمراجع المحتشدة فحدث عنها ، إذ تجد كل صحيفة قد شطرت في منتصفها لتشير إلى المصادر الذائعة ولو كانت النصوص ذات اشتهاار عام كخطبة طارق ! ! على أنني لم أحتج إلى ذلك لسبب واحد ، هو أن المراجع القديمة من ناحية التأثير والتأثير تكاد تكون متشابهة فيما تقدم من أخبار ونصوص ، أما المراجع الحديثة لأساتذتنا المعاصرين فقد حفلت بالحديد حقاً ، ولكنني تعمدت أن أشير إليها في متون الأبواب لا في هوامشها ليتسع المجال للتحليل ، وإذا كنت لا أقرأ الأسبانية وهي هامة في مثل هذا الموضوع فقد استعنت بترجمات الدكتورة الأسبانية حسين مؤنس وعبد العزيز الأهواني ومحمد غنيمي هلال عن الأسبانية وأشرت إلى كل أثر في مناسبتة ! مع الشكر والتقدير !

هذا وقد يرى القاريء أنني أكثر من مناقشة آراء أستاذي الكبير الدكتور أحمد أمين في الأدب الأندلسي ، وعذري أن صلتى الشخصية به قد دفعتني من قديم إلى قراءة جميع مؤلفاته واستيعابها جهد الطاقة ، وقد كان رحمه الله يرتاح إلى معارضتي ويشجعني عليها مصيباً كنت أو مخطئاً وأظنه في عالم الغيب لا يزال مبقياً على تشجيعه ! فليفسح لي زملاؤه المجمعيون من سماحتهم ما كان يفسح لي من تواضعه !

د. محمد رجب البيومي

هل من جديد في الأدب الأندلسي؟

بدأت الدراسات الأدبية تتزايد في حقل الأدب الأندلسي ، وهي تلقي كثيراً من الضوء على حقائقه الغامضة ، فكل باحث جاد يخطو خطوة لاحقة في الطريق ، ويقدم من الآراء ما يكون موضع التحليل والتمحيص ، وذلك كسب كبير !

وقد رأينا من الكتاب من ينادون بالتريث في دراسة الأدب الأندلسي وحثتهم أن أكثر كنوزه لا تزال مطمورة في خفايا النسيان ، وما تقدمه المطبعة بين الفينة والفينة من نفائس المخطوطات لا يساوي شيئاً إذا قيس بما تحتزنه المكتبات العالمية في الشرق والغرب ، وقد تبدو لهذا الرأي وجهة سريعة عند من لا يتعمقون الأشياء ، أما الذين أوتوا نصيباً من الدقة الحصيفة فيعرفون أن الكلمة الأخيرة في أي أدب من الآداب لم تقل بعد ، وأن كثيراً من الحقائق المتأصلة على مرّ الأحقاب تتعرض لانهباء مفاجيء حين يعمد لها من يتسلح بالمثابرة والنفاد فيرى بها غير ما يرى السابقون من ذوي التفكير ! وإذا كان ذلك شيئاً طبيعياً في دنيا الأدب والعلم ، فلماذا نجفل عن دراسة الأدب الأندلسي ؟ وإلى أي مدى تنتظر ؟ وما الذي يمنع أن نقول كلمتنا الآن ، فإذا جدّ جديد تتمخض عنه المخطوطات المطمورة ، فإنه إذ ذاك لا يصطدم بمنطق الأشياء بل يكون اطراداً للسير على منهج معلوم ، ولعمري لو أفلح هؤلاء في صد الباحثين عن قضايا الأدب الأندلسي انتظاراً لما سيحييء لتناول الزمن دون أن نظفر بما ينفع الغليل في منطق أولئك ، وهكذا تضيع الحقائق بين المطال والتسويق .

ومنذ أصدر الأستاذ الدكتور أحمد ضيف كتابه عن بلاغة العرب في الأندلس ، والآراء تتفق وتفرق حول هذا الأدب الحبيب ، فلكل باحث رأيه الخاص في إيصاله الأدب الأندلسي أو تقليده ، ونحن نرحب

بهذا الاختلاف ، ونراه مما يزيد جلاء الحقائق الأدبية وتوضيحها ، فهو يفسح مجال الموازنة والترجيح ويقدم من الآراء المتقابلة ما يساعد على الوصول إلى النتائج المرضية ، وإذا كان من المفيد أن نختلف ، فإن من الضار هنا أن نتفق على رأي واحد لا نتعداه ، إذ أن أحكام الآداب جميعها ترجع في بعض تقديراتها إلى الذوق الفني وليست كقضايا العلم التجريبي الذي ينفرد فيها العقل المجرد بميزانه الدقيق ، وإذا كان للذوق الشخصي نصيبه في الحكم الأدبي فلا بد أن تختلف الأذواق ومن ورائها اختلاف القضايا والأحكام ! !

ونكلف أنفسنا كثيراً من الشطط إذ نستعرض كل ما قيل بهذا الصدد من الآراء المعاصرة منذ أصدر الأستاذ الراحل أحمد ضيف كتابه عن الأدب الأندلسي ! ولكننا نختار بعض النابهن ممن يقفون وقفات متعارضة في هذا المجال ، لنسمع ما يقولون كما دونوه ، فإذا كان لنا من تعليق على ما قيل ، فبعد أن يقف القاريء على وجهات النظر واضحة مستوفاة ، وستقف موقف المفسر فقط ! لتتضح الأمور على وجهها الصحيح . .

لنا أن نختار الدكتور أحمد أمين على رأس القائلين بتقليد الأدب الأندلسي وأتباعه ، فقد أكثر قديماً من المناداه بهذا الرأي في مقالاته الصحفية وبحوثه العلمية حتى إذا تعرض للفكر الأندلسي أخيراً بالجزء الثالث من ظهر الإسلام وجد المناسبة الواضحة لترديد هذا الرأي الذائع عنه في أكثر من مناسبة ! فانبرى يبديء ويعيد في تسجيل هذه المحاكاة الضيقة ! فهو مثلاً يقول في ص ١٠٤ (١) .

« ولذلك لو أغمضنا أعيننا ، وَجَهَلْنَا قائل القصيدة أهو شرقي أم أندلسي لم نكد نحكم حكماً صحيحاً جازماً على الشاعر ، أغربي هو أم شرقي . ولذلك كثيراً ما تنسب بعض الأبيات إلى أندلسي ، وينسبها بعضهم بعينها إلى

(١) ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٠٤ ط ٣

مشرقي لعدم التمييز الواضح حتى عند الخبراء ، وربما كان مصداق ذلك ما حكى أن الشاعر الأندلسي الملقب بالغزال وجد في بغداد جماعة من المثقفين ، فأنشدهم شعراً لنفسه وادعى أنه لأبي نواس لعظم قدره عندهم ، فصدقوه ثم قال لهم : أنها لي ! ولو كانت شخصية الأندلسي واضحة في شعر أهلها لصعب نسبة أبيات أندلسية إلى شاعر شرقي ، غاية ما عندهم من فروق أن الطبيعة الأندلسية الجميلة مكنتهم أن يقولوا كثيراً في شعر الطبيعة ، وهذا لم يكن معدوماً في المشرق ، فإن الصنوبري مثلاً وهو الشاعر الحلبي خلف لنا ديواناً كله تقريباً في ذلك .

ويردد الدكتور مثل هذا القول في ص ١٣٠ وفي ص ٢٠٢ حتى إذا بلغ نهاية الشوط ختم بحثه عن الأدب الأندلسي بقوله ص ٢٣٠ .

« ولئن دمع الأدب الجاهلي الأدب المشرقي ، فالأدب المشرقي دمع الأدب الأندلسي وكان الظن أن يؤثر الأدب الأسباني والفرنسي أثراً غير تأثير الأدب الفارسي واليوناني في المشرق ولكن حدث أن تأثر الأندلسيون بالمشرق أكثر من تأثرهم بالأسبانيين لوحدة اللغة ووحدة الدين ، والخلاصة أن الأندلسيين في أدبهم وسعوا الإنتاج أكثر مما نوعوه فبدل أن ينتجوا بآء بجانب الألف وهو الأدب المشرقي أنتجوا ألفاً أخرى تتشابه مع الأولى في الموضوع والوزن والقافية والسجع ونحو ذلك ، وكأنهم كانوا يحسون مركب النقص بالنسبة لأدباء الشرق فكملوه بمجاراتهم بدعوى التفوق عليهم ، ولكنهم لم يتفوقوا ، والظاهر أن تيار المشرق كان قوياً حتى استحوذ على أدب المغرب ولم يسمح له بالخروج عنه ، نذكر هذا بعد أن قرأنا كثيراً من آثار الأندلسيين وقد دخلنا في بحث الموضوع ونحن نعتقد أنا قادمون على شيء جديد مبتكر فإذا نحن أمام ثروة كبيرة مقلدة . »

هذا بعض ما ذكره الدكتور أحمد أمين ، وظاهر من حديثه أنه كان يأمل أن يؤثر الأدب الفرنسي ، والأدب الأسباني في إنتاج الأندلس على نحو ما أثر الأدب الفارسي وتراث اليونان في الأدب العباسي ! وما نظن

ذلك ممكناً على وجه من الوجوه ، لأن الأستاذ يعلم علم اليقين أن الثقافة الفارسية فرضت نفسها على الدولة العباسية لأن الوزراء العباسيين كانوا في الأكثر الغالب من الفرس وكان الوزير يقوم مقام الخليفة في كل الشئون تقريباً ، فجميع أمور الحرب والمال والتوقيع بيده ، وكان من شروطه الرئيسية أن يكون مفكراً كاتباً عالماً ، ولكل وزير كاتب مساعد يماثله ثقافة وعلماً وفكراً بل كان لولاية الأقاليم كتاب من هذا الطراز المثقف الممتاز فحماد عجرد وابن المقفع وعمرو بن مسعدة وعبد الله بن سوار وأضرابهم أدباء يحدون حدو الوزراء في الكتابة والمظهر فساعدوا على نشر الثقافة الفارسية وفيهم من ترجم بنفسه طائفة من آثارها الممتازة! بل أنهم لم يقتصروا على الثقافة الفارسية فتعدوها إلى الثقافة الهندية فاستفاد الأدب العربي من أدب الهند بلاغة وفناً ودخل من الألفاظ والقصص والحكم الهندية ما أفاض في توضيحه مؤلف الجزء الأول من ضحى الإسلام ، هذا بالإضافة إلى الثقافة اليونانية ومدارسها المختلفة في حران وجنديسابور والاسكندرية مما لفتح الفكر العباسي بلقاح دسم مكين! ! أما ثقافة اللاتينية بالأندلس على عهد الفتح الإسلامي فلم تكن شيئاً يجذب الانتباه حتى تستطيع التأثير في الأدب العربي هناك ، كما لم تهيء لها الظروف من يستطيعون إبرازها من الوزراء والوجهاء على نحو ما قام به أنصار الثقافة الفارسية في بغداد . . . بل أننا نجزم أنها كانت من الضحالة بحيث لم يجد فيها أعداء الإسلام أنفسهم ما يحاولون به أن يقاوموا الفكر الإسلامي في مده المتلاطم الجياش ، واستمع إلى هذه الشكوى المريرة التي أطلقها القسيس الفرو القرطبي حين قال متحسراً (١) :

« إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين لا ليردوا عليها وينقضوها ، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً

(١) تاريخ الفكر الأنديسي ترجمة حسين مؤنس ص ٤٨٥

صحيحاً ، وأين تجد الآن واحداً من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة ، ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين ، وآثار الأنبياء والرسل ! ياللعسرة ! ! أن المهويين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم ، وهم ينفقون أموالاً طائلة في جمع كتبها ، ويفخرون في كل مكان بأن هذه الآداب جديرة بالاعجاب فإذا حدثهم عن كتب النصرانية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم ! ياللألم لقد أنسي النصارى حتى لغتهم فلا تكاد تجد في الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحبه كتاباً سليماً من الخطأ ، فأما عن الكتابة في لغة العرب فإنك واجد منهم عدداً عظيماً يجيدونها في أسلوب منمق ، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فناً وجمالاً ! .

هذه الشكوى الصارخة من القسيس اللهيف تنبيء أن اللاتينية لم تكن تحوي شيئاً يجذب انتباه المسيحيين من أبناء البلاد ! فكيف يكون بها إذ ذاك ما يجذب انتباه العرب الفاتحين ! وقد أفلح هذا القسيس المتعصب في حمل كثير من أتباعه على الاستشهاد الانتحاري عن طريق السب في نبي الإسلام ! ولكنه لم يفلح في صرف أحد منهم عن لغة الإسلام وتراثها الجميل ! ألا يكون ذلك دليلاً حياً على خواء اللاتينية الإسبانية ! وأنها لا تستطيع أن تقدم للعرب شيئاً ذا بال كما كان يتوقع الدكتور أحمد أمين ! !

على أننا نسأل فنقول ماذا كان يريد نعاة التقليد أن يقوم به أدباء الأندلس من التجديد ؟ أكانوا يريدون إنتاجاً طافراً لا يتفق مع إنتاج المشرق في شيء ! إن طبائع الأشياء تنكر ذلك فكل تجديد يحمل في طياته خطوط القديم ويحتديه ، وما هو غير ثمرة سقطت من دوحه عريقة تضرب أصولها في أعماق القديم ! والابتكار الأدبي لن يكون انفصالا تاماً عن الواقع الملموس ، وإلا استنكره المتأدبون وثار عليه الثوائر فلا يجد متنفسه

الطبيعي ويلحقه الاحتناق السريع ! ! أما إذا أرادوا التجديد المتند فقد ظهر على نحو ما فيما سنفيض فيه ببعض القول بهذه الصفحات عن قريب ! ! وإن كنا نرى أن عوامل قوية قد حالت دون التوسع الابتكاري وهي في مجموعها ترجع إلى أصول نفسية تحدد للأدب مجراه الذي اختطه دون أن يكون له قدرة على الانفلات البعيد .

فالعربي حين قدم إلى الأندلس قدم بذكريات أدبية ولغة شاعرية وميول عاطفية اختلطت بدمائه وجرت في عروقه، فهي تتخيل لعينه في روحاته وغدواته ، وتسري إليه طيوفها الحاملة في هجعاته ، ولن يستطيع فكاًكاً من أسرها الخالب حتى ولو حاوله بشتى المجاهدات وهو ما يعبر عنه في علم النفس بالذاكرة العاطفية التي تجر للمرء خيوط ماضية ، فيتمثلها أنى ذهب وجاء ! فالعربي الوافد مع الفتح الأول بدوي الديباجة ، تقليدي المذهب ، لأنه وإن كان في عالم جديد لا يزال يحن إلى الشيخ والقيصوم ، ويتذكر مرابع أحبابه في صحراء المشرق وحواضره ! فيهتف بلسانه بما يجيش به اضطراراً دون أن يتزع إلى ابتكار مقصود ! هذا هو العربي المسلم الوافد ، ولن يبعد عنه كثيراً أحفاده وأبناؤه ممن نشأوا بالأندلس وتفتحت عيونهم على رياضها الساحرة لأنهم من ناحية أولى قد ورثوا ذكريات آبائهم ، وانحدروا من أصلاب تذكرهم بعالم آخر يزدهر فيه الافصاح البدوي ، وتنفحه أنسام نجد والعقيق وسلع ، وهم من ناحية ثانية يقرؤون أدب المشرق فيرون به صدي أشواقهم ، ويتزعون إليه دون أن تقدر لهم رؤيته ، وأقل شيء أن يحتدوه في أشعارهم فيكون مثلهم الأرفع ، وأنموذجهم الراقي ، ومن ذا الذي لا يقرأ تراث أمية وبني العباس من أدباء الأندلس المسلمين دون أن تجيش به نوازع تدفعه حيناً إلى الرحلة للمشرق فيضرب في أبعاد الأرض ليرى بعينه ملاعب أحلامه ومسارح عواطفه ، وتجذبه أحياناً إلى الاكتفاء بحفظ روائع الشرق وتقليدها على أتم نطاق ! ! لقد يستغرب القاريء أن أذكر له أن أدباء الأندلس ممن نشئوا بها يحنون إلى الصحراء العربية دون أن يروها ! والحقيقة أنني في حاجة

إلى أن أقوي رأيي في ذلك بما بسطه الأستاذ الدكتور إبراهيم سلامة في كتابه تيارات أدبية ص ٢٥٤ (١) ، إذ حلل هذا الموقف تحليلاً واضحاً حين قال : « وأنا لرى أن الاستنتاج الذي استخلصه بعض أدبائنا المعاصرين من دراساتهم للطبيعة والشعر ليس بذي خطر ، فقد فصلوا بين طبيعتين للعربي في الأندلس في أدبين عربيين لكل منهما طبيعته ، دخل أحدهما الأندلس رجلاً مكون الفكرة مكون اللغة ، قد عرف هواه في المشرق وأغلق قلبه عليه ، فما عاد يفتح لهوى جديد ، ونشأ الآخر في الأندلس فكان مطلع حياته ومناطق توائمه وملعب هواه ، أما الأول فبعد أن دخل الأندلس كان يتلفت وراءه شأن كل عربي مهاجر ، يطوف ما يطوف ويشم ما يشم ويعرق ما يعرق وهو عالق بنجد يتنغم به في حظه وترحاله :

فإن كنت قد فارقت نجداً وأهله فما عهد نجد عندنا بدميم

لذلك كان العربي الأول في زعمهم بدوي الدباجة تقليدي المذهب يصف الناقة والجمل ويستام لها الشيخ والقيصوم في بلاد لا تنبت إلا النيلوفر ، ويرى الرياض أمامه فلا تغربه ولا يتسلى بها عن المراعي التي تركها خلفه ، وأما الثاني فقد ولد في قرطبة ومات في أشبيلية كابن زيدون مثلاً ، فمثله يصف ما تحت قدميه ولا يبالي بالأدب التقليدي بل يبدع ، ما شاء له الإبداع ! أو ما شاءت له طبيعة الأندلس ! إن استنتاجاً كهذا ينقصه الاستيعاب والتعميم فكثير من الشعراء الأوائل في الهجرة أغرموا بالأندلس ، وكثير من الشعراء النابتين في الأندلس قد رجعوا بهواهم إلى بلاد آبائهم وأجدادهم ، فابن زيدون قبل أن يكون أندلسياً مخزومي الأصل والنجار ، وقد قلنا أن اللغة ليست مادة ولكنها مادة مصورة فما دامت لغتهم عربية فصورها وأساليبها متحملة بصور البادية ، والعربي فوق ذلك مرتبط بوطنه عزيز عليه أن ينسأه مهما بعدت به النية وشط المزار ! ! »

(١) تيارات أدبية للدكتور إبراهيم سلامة ص ٢٥٤ ط أولى .

هذا كلام الدكتور إبراهيم سلامة وهو يحل لنا مشكلات كثيرة في دعوى التقليد والتجديد ، وقوله البديع : « أن اللغة مادة مصورة فما دامت لغتهم عربية فصورها وأساليبها متحملة بصور البادية » . هذا القول ينقذ كثيراً من الشعراء مما حكم به عليهم بعض الناقدین من عقم وأمحال ! ولنا أن نضرب المثل على صحته بشاعر معاصر هو الأستاذ محمد عبد المطلب ! فقد عرف بين الشعراء بالشاعر البدوي ! وكان لشعره - ولا يزال - تأثيره الحي على قارئه لأنه - باعتباره عربياً من قبيلة جهينة التي تنزل بمحافظة سوهاج في الصعيد الأعلى من بلاد النيل - قد كان يحس إحساساً صادقاً بمراجع أجداده في نجد ، ومنازل قومه الأبعدين في الجزيرة العربية إذ كانت مهبط الإسلام ومشرق النور ثم مبعث الحضارة العربية إلى العالم في شتى القارات ! هذا الاحساس المعتر ، جعله يستروح البهجة والسعادة حين يتغنى بالصحراء ! وقد كان تأثره صادقاً لأنه في بعض مواقف انشاده كان ينشج بالبكاء ! وأكثر الأدباء يحكمون عليه بالتقليد ، ويقرنونه في ذلك ببعض من يسلكون نهجه عن طريق الذاكرة العلمية فقط ! ويبعد ما بين الشاعرين فأحدهما نظام لاقط حافظ ، وعبد المطلب يصدر عن إحساس ووجدان .

والذين يشكون لحظة في أن اللغة ليست مادة فقط ولكنها مادة مصورة تأتي أخيلتها ومعانيها متصلة كثيراً بحروفها وكلماتها ، نقدم بين يديهم - تطبيقاً على ذلك - شاعراً ينظم بلغتين في موضوع واحد ، فمع اتحاد العاطفة وتوافق الانفعال ، واحتشاد الخواطر لديه ، حين ينظم بإحدى اللغتين ، فإننا نرى جو الأديب الذي يقيم في رحابه بناء قصيدته مسيطراً إلى حد ما على معانيه ، فتأتي قصيدته قريبة من روح الأدب الذي تصدر عنه خيالاً وفكرة وتعبيراً ، ولديك شاعر عظيم كسعدي الشيرازي تظفر قلبه جذاداً لمحنة بغداد على يد التتار ، وهاله أن تصبح آثار الإسلام ومصونات الحضارة نهياً هباءً بين أيدي الهمج والأوشاب ، فنظم في هذه الكائنة المشثومة كما يقول عنها المؤرخون قصيدتين إحداهما عزبية ، والأخرى

فارسية ، يقرؤهما القاريء فيرى روح الأدب العربي بمادته وأخيلته في القصيدة العربية كما يلمس نزوحاً شاسعاً عن جو القصيدة العربية في أختها الفارسية ، فإذا كان يقول في الأولى :

فأين بنو العباس مفتخر الورى ذوو الخلق المرضي والغرر الزهر
غدا سمرأ بين الأنام حديثهم وذا سمر يدمي المسامع كالسمر
هنيئاً لهم كأس المنيّة مترعاً وما فيه عند الله من أعظم الأجر
فلا تحسبن الله مخلف وعده فإن لهم دار الكرامة والبشر
ألام تصاريف الزمان وجوره يكلفنا ما لا نطيق من الأمر

فإنه يقول في الثانية ما ترجمته - عن بني العباس أنفسهم - :

« أريقت دماء أولاد العباس كذلك على هذه التربة حيث كان السلاطين يضعون الجبين ، أو اه أن تقع ذبابة على دم هؤلاء الأطهار ، فليصر إذن في فمها العسل علقماً حتى القيامة على أنه لا يلىق النواح على دم الشهداء ذلك أن أقل سعادة لهم هو الخلد في عليين ، على الأرض كان تراب أقدامهم كحل العيون وفي يوم المحشر سيكون دمهم لون الورد صبغة حدود الحور العين » .

والقاريء يدرك بيسر روح الأدب العربي في الأولى وجو الأدب الفارسي في الثانية ! وذلك ما يؤكد سيطرة الثروة الأدبية التي يحفظها الشاعر وينسج على منوالها ، وليس معنى هذا أننا ننكر قدرة الشاعر المحلق على الخلق والابتكار ولكننا نقول إنه يصل إلى ابتكاره في طريق التراث المحفوظ ويضع مائه في إنائه فلا محيص له عن التزني بطابعه العريق .

أريد أن نحكم بحذر على الشعراء بعامة والأندلسيين بخاصة حين نرميهم بالتقليد لوجود بعض التشابه بين أحاسيسهم وأحاسيس المتقدمين فمما يزيد هذا التشابه اقتراباً اتحاد اللغة التي يعبر بها المتقدم واللاحق معاً ، فيظن

القاريء أن القريب يحذو حذو البعيد ! وإذا كان ابن زيدون - في رأبي
الخاص - أرق شعراء الأندلس وأصدقهم إذا قيس بهم جميعاً ، فمع ذلك
نظر إليه بعض النقاد نظرة ساذجة حين وصمه بالتقليد ، مع أن حياته
الزاخرة بالحب والولع والسجن كانت مدداً لانبعاث آهاته وميداناً
للإبداع الشعري في قصائده ! فهو في أكثر ما نظمه شاعر مبدع يصدر
عن إحساس مشبوب ، ولكن الأستاذ الدكتور شوقي ضيف يغفل ما قررناه
هنا عن الذاكرة العاطفية ، والتزوع الوجداني فيقول في كتابه الفن ومذاهبه
في الشعر العربي ص ٢٤٢ ط رابعة :

« والحق أن الإنسان لا يتابع ابن زيدون في شعره حتى يحس بأن هذا
الشعر يكاد يسقط من ديوانه فيرتد إلى أمكته في شعر العباسيين ، ولعل
هذا ما جعل صاحب الذخيرة يقول : « وأبو الوليد بن زيدون على كثير
إحسانه كثير الاهتمام في النثر والنظام » فهو حقاً كثير الاهتمام لأشعار
العباسيين يغير عليها ، فيسلبها من دواوينها ، ويسلكها في شعره على هذا
النحو الذي رأيناه ، وما أشك في أن صوت ابن زيدون اتضح لنا الآن ،
فهو بالرغم مما يبدو عليه من صفاء وعذوبة صوت مصنوع إذ هو صدى
لصوت العباسيين لا يطرد على نسق واحد ، لأن الشاعر لا يختار له نسقاً
معيناً يعيش فيه ، بل يعيش في كل نسق يقرؤه فتارة يعيش في جو البحري
وأخرى في جو أبي تمام أو المتنبى أو أبي العلاء من غير تفريق بين
هؤلاء الشعراء ومعرفة أن كلا منهم يمثل مذهباً خاصاً له وهذا هو معنى
ما نقوله من أن الشاعر الأندلسي ما يزال في شعره يخالط بين جميع المناهج
والمذاهب العباسية » .

وقد توسع الدكتور شوقي ضيف في تطبيق رأيه فرأى في (١) ص ٤٣٥
أن قصيدة ابن زيدون الرائعة :
أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ط ٢ ص ٤٣٥ .

محاكاة تقليدية لقصيدة البحرى :

يكاد عاذلنا فى الحب يغرينا فما لحاجك فى عدل المحبينا

وهو رأى يتجاهل ظروف القصيدة وتعبيرها الحار عن مأساة الشاعر حين أخفق فى غرامه بولادة ، وهي من الذبوع بمنزلة لا تخفى عن أقل تلاميذ الدكتور شوقى ! ولا أدري كيف نحكم على شاعر باحتذاء شاعر آخر لأنهما اتحدا فى الوزن والقافية وبعض المعاني الشائعة ! لو جاز لنا أن نطمئن إلى هذا القياس الطريف ما عددنا قصيدة واحدة مبتكرة فى الشعر العربى منذ عصر بنى العباس ! والسبب واضح إذ أن من الميسور أن تجد لكل قصيدة لاحقة سلفاً يتحد معها فى الوزن والقافية ، لقد كان الناس منذ العصر الجاهلى يرددون قول عنتره : هل غادر الشعراء من متردم ! وما زال الشعر يسح ويهضب منذ ذلك الأمد حتى جاشت غواريه واصطخبت أواذيه ! وأصبحنا لو نأخذ بمنطق الدكتور نحرّم على كل شاعر أن يقول قصيدة ما ، فلعلها تتفق مع أمّ لها سابقة ، ومن الإنصاف للدكتور شوقى أن نقول أنه نظر إلى ما فى نونية ابن زيدون من بعض المعاني المطروقة مما لا حيلة له فيه إذا صادف تعبيراً صادقاً عن خواجه ، ولكن ذلك لا يكفى لتجريدته من الأصالة وإحالاته على شاعر متقدم وإن يكن أباً عميدة الوليد ، ولقد كان الأستاذ الكبير أحمد ضيف أصدق حكماً وأكثر نفاذاً حين حكم على النونية من خلال تجربتها الصادقة ، ورأى فى معانيها الشائعة وفى غيرها مما شاع فى غزل ابن زيدون ما يشير إلى صدقه لا إلى تلفيقه فهو يقول فى كتابه عن بلاغة العرب فى الأندلس :

« إذا كان لابن زيدون ميزة فى شعره الغزلى فليس فى ابتكار المعاني التى لم يسبق إليها ، وإنما هى فى طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس وتستولى على القلوب وكأن الإنسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتتان فى التعبير والأسلوب ولقد يسمع الإنسان أنينه فى شعره ، ويرى

أنّته الحزينة من خلال كلامه ، وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسي اللذين يملآن نفوس العشاق ، ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها .

وقد نكون مسرفين بعض الشيء في الاستشهاد بآراء الباحثين ، وعذرنا الواضح أن قضية التقليد غامضة مبهمة ! لأن التقليد يخلط بالتجديد اختلاطاً لا يستببه غير المتبصرين ! وهؤلاء لا يلمحون الحديد إلا بين خيوط متشابكة تحتشد وتردحم حتى تحتاج إلى مجهر دقيق ! ونحن في هذا النطاق نسترشد بأدب أمريكا المعاصر ، فقبل القرن العشرين لم يكن من المستطاع أن تميزه تمييزاً واضحاً من الأدب السكسوني ، إذ أن اتحاد اللغة بين بريطانيا وأمريكا جعل الفوارق بين الأدبين متضائلة إن لم تكن متوارية ! بل إننا الآن لا نفرق بين أدب أمريكي أو أدب انجليزي إلا بسمات لا ترجع إلى الأسلوب أكثر مما ترجع إلى الغرض والموضوع ، فليس الأدب الأندلسي بدعاً في اتفاهه ! ولكن الاتفاق شيء والمحاكاة التقليدية شيء آخر دون نزاع ! !

ولا بدّ لنا في هذا النطاق من كلمة عن أدبنا العربي المهاجر بالأمريكتين فإن به اختلافاً واضحاً عن الأدب العربي بالدول العربية ! وهذا ما كان يرجوه الدكتور أحمد أمين والدكتور شوقي ضيف وأضرابهما ممن وصموا الأدب الأندلسي بالتقليد ! والقياس مع الفارق كما يقولون ، لأن أدباء العرب قد هاجروا إلى أمة حيّة ذات ثقافة وبيان لها في الأدب قواعد وشروح ، فاتصلوا بالتجديد العربي اتصالاً مباشراً جعلهم يتأثرون به ويبدعون قصائدهم المهجرية على نحو جديد ! ! وإذا كان هناك فروق واضحة بين حركة التجديد في الأدب العربي بالشرق وموجة التجديد في الشعر المهجري بأمريكا فإن هناك اتفاقاً بين الأصول الحية للتجديد الأدبي لدى الفريقين ، فكلاهما يهتم بالتجربة الذاتية ووحدة القصيدة ، والبعد بها عن التقديرية الجامدة إلى التأثيرية الموحية مما نضحت به الثقافة الغربية على الحركتين التجديديتين في الشرق والمهجر مع أن زعماء التجديد

فيهما لم يتصلوا اتصالاً مباشراً يوجب توحيد الرأي ، وتقرير الاتجاه !
هذا التأثير الواضح في الأدب المهجري لم نجد مثله في أدب الأندلس ! لأن
أسبانيا اللاتينية لم تكن ذات أدب يسيطر ويؤثر ! فأين يجد الأدب العربي
رافده الدافق ! وما حوله سراب لا يسمح بارتواء ! إنه مضطر إلى الاستعانة
بأدب المشرق استعانة لا تحقق كيانه الأدبي كما يتصور بعض الغلاة ولكنها
تدفعه إلى المسير ! !

لقد طال استماعنا إلى من رموا أدب الأندلس بالتقليد والترديد ،
وفي الشقة المقابلة أناس يصفقون له مهللين ، ويلمحون في
روائعه بوارق الجدة والابتكار فيقفون عندها مطيلين والأستاذ الكبير على
الحارم في طليعة هؤلاء فقد كتب عن أعلام الأدب الأندلسي أمثال ابن زيدون
وابن عباد وابن عمار سيراً تحليلية تنبض بالحركة وتندفق بالحياة ثم ترجم
قصة العرب في إسبانيا عن استانلي لين بول سعيداً أن رأى أمجاد آبائه تسطر
بقلم أوربي منصف فنقلها إلى ذويه يبراعه البليغ ! ثم سمع إلى الهجوم
على أدب الأندلس يأخذ أذنيه من منابر عالية تحفها الثقة التامة فلم يصبر
أن صاح في وجوه هؤلاء الناقدين . . ومضى على النقيض من الدكتور أحمد
أمين يقول في مقاله عن الشعر الأندلسي بمجلة الكتاب ديسمبر (١) سنة ١٩٤٧

« أنا واثق من أن هناك فروقاً بين الشعرين : الأندلسي والمشرقي ،
وأنا نحس هذه الفروق حقاً ، وأنا مدرك من غير حاجة إلى تحليل أو فلسفة
أني بعد قراءتي الطويلة للشعرين الأندلسي والمشرقي أستطيع أن ألمح الشعر
الأندلسي وأن أتبين خصائصه . غامضة من وراء الضباب . وأعتقد أن
الأديب الذي لا يستطيع أن يميز على وجه من الوجوه بعد طول المعاناة
والمزاولة لخصائص الشعر وسماته في عصوره المختلفة أديب خائب ضعيف
الملكة له دماغ لا تثبت عليه الصور ، إن الشعر كالماء يأخذ لون إنائه ، وهو
مثل كل مخلوق حي نابض يتأثر بالبيئة التي هو فيها ، وإذا كان هناك فرق

(١) مجلة الكتاب : دار المعارف : ديسمبر سنة ١٩٤٧ .

بين شاعر وشاعر ، فأولى أن يكون هذا الفرق أبين وأظهر بين شعر الموطن والموطن ، إن الشعر الجاهلي غير الشعر الإسلامي وهذا لا يماثل الشعر العباسي في خصائصه ، وشعر مصر غير شعر الشام والشعر المصري في عهد الفاطميين غيره أيام الأيوبيين والمماليك .

وهذا دفاع مخلص ولكنه إلى الخطابة أقرب منه إلى البحث المنهجي ، ولن نتظر من مقال في مجلة سعة في التحليل واستطراداً في الاستشهاد ، ونفاذاً إلى اللباب ، أما الذي تكفل بذلك أو حاول أن يقوم به جهد المستطاع فهو الأستاذ الدكتور أحمد هيكل في كتابه عن الأدب الأندلسي ، والدكتور هيكل يحمل الدكتوراه من أسبانيا في هذا الأدب . ويقوم بتدريسه في كلية دار العلوم أعواماً متوالية كان من بعض آثارها كتابه هذا عن « الأدب الأندلسي من الفتح الإسلامي إلى سقوط الخلافة ! » وقد أراد أن يحدد مواضع التجديد في كل حقبة ! وأن يضع كبار الشعراء الأندلسيين في أماكنهم التي يراها من الابتكار والتقليد ! فاجتهد كثيراً فيما يريد . ويخيل إلينا أن هيامه بالأدب الأندلسي قد دفع به إلى التطرف والتماس الابتكار في كل موضع حتى فيما يتعذر معه الابتكار باتفاق ، ودليلنا - على سبيل المثال - أنه أراد أن يعثر على الطريف الجديد في الفترة الزمنية التي سبقت عهد الخلافة وهي المعروفة بعصر الولاة ، مع أن هذه الحقبة كانت مسرحاً لهجرة الشعراء من المشرق وأكثر من قال الشعر إذ ذاك - كعبد الرحمن الداخل - الذي اشتهر بشعره لا يمثل الأندلس في شيء ، لأنه حين قال أبياته الشهيرة التي اتخذها الدكتور مثالا للتجديد :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة	تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى	وطول التناي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة	فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غواصي المزن في المنتأى الذي	يسح ويستمرى السماكين بالويل

« أقول حين قال ذلك كان وافداً من المشرق شاعراً يجري القريض في دماثة ويتدفق مع الدم في شرايينه ولم تنفحه الأرض الحديدية بثقافة خاصة تدعوه إلى التجديد الذي يريده الدكتور ! وأين هذه الثقافة ؟ بل لو وجدت إذْ ذلك ثقافة على سبيل الفرض ما تسنى له أن يرد حياضها وهو السياسي الداهية الذي ينتقل كل يوم من معركة دموية إلى مؤامرة سياسية ، وقد رأى الدكتور الباحث في هذه الأبيات ما سماه بالتركيز العاطفي (١) ، وهو في رأيه أمر جديد يستحدثه الداخل في دنيا الشعر ! ومع التسليم جدلاً فقط بهذا التركيز العاطفي فهو مشرقى صافي الدم حر النسب غير هجين !! والدكتور هيكل يرى سمات هذا التركيز الجديد في أن الداخل لم يصف النخلة في طولها ولا في لونها ولا في ثمرها ولم يتخيلها مارداً ذا شعر طويل ولا شيخاً ذا قوام هزيل وإنما ترك ذلك كله ليصف النخلة بأوصاف عاطفية ويصورها بصورة نفسية وقد جعل منها إنساناً حياً يغترب وينأى عن الوطن ويحن إلى الأهل وقد فرض بينه وبينها مشاركة وجدانية وعلاقة نفسية جعلته يخاطبها في حنوٍ ويناجيها في عطف . »

وتحليل الدكتور للأبيات رائع بديع حقاً ! ينم عن إحساس صاف وذوق رائق ولكنه بعد ذلك شيء والتجديد شيء آخر إذ أن الشعر الأموي يعرف هذا التركيز العاطفي كما سماه ويعرض لنا قبل الداخل صوراً منه أعمق وأبعد من صورة النخلة فلديك مثلاً عروة بن حزام وهو شاعر مخضرم أتى قبل الداخل بأمد بعيد يقول عن ناقته :

هوى ناقتي خلفي وقدامي الهوى وإني وإياها لمختلفان
هواي أمامي ليس خلفي معرج وشوق قلوصي في الغد ويمان
متى تجمعي شوقي وشوقك تظلمي ومالك بالعبء الثقيل يدان

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكل ص ٩٦ ط أولى مكتبة الشباب .

وهي أبيات ذائعة مشتهرة ! وذيوها المشتهر يعني عن إيضاح
ما بها من التركيز العاطفي كما عناه الدكتور ، وقريب منها قول شاعر
الحماسة متحدثاً عن ناقته :

أراد الله نقيك في السلامي على من بالحنين تعولينــــا
فإني مثل ما تجدين وجدي ولكني أسرّ وتعلنينــــا
وبي مثل الذي بك غير أي أجلّ عن العقال وتعقلينا !

فقد ركب الشاعر ناقته واستمع إليها تئن وتحن ، وكان به وجد يشكو
عقابه فهو الآخر أنان حنان ، فتصور لدى الناقه ما به من شجن عاطفي ،
ورآها تقاسمه لوعة الهوى وتباريح الصباية فصاح بها :

فإني مثل ما تجدين وجدي ولكني أسرّ وتعلنينا !

ثم استطرد في الموازنة استطراداً بديعاً فذكر أن هناك فرقاً واضحاً
بين الشاعر وناقته ! فهي معقولة تأخذها القيود فلا تستطيع أن تهيم على
وجهها كما تشاء فتزد منازل الأحبة ، وملاعب الذكريات ، أما هو فيجل
عن العقال وشتان بين حنين لمطلق السراح وحنين لمغلول الجناح !

ألا يجد الدكتور ما عناه بالتركيز العاطفي قد تقدم الداخل بأحقاب
على أي أفهم أن يطلق الدكتور على هذا اللون من الأدب تجسماً أو تشخيصاً
أما أن يصفه بالتركيز العاطفي ، فذلك ما فاتني سره ، ولا أدري مدى
انطباقه على ما يريد بالتحديد ! ومن ضروب التجديد التي ارتأها المؤلف
في هذه الحقبة التقليدية ما سماه بالتجديد الموضوعي مستشهداً بقصيدة
لأبي المخشي يشكو عماه ، والقصيدة شعور متألم لزوج ضرير يرى أم بناته
ترمقه في أسف حين تراه يتحسس موقع أقدامه ويتخشع لقائد يهديه السبيل !
ولكنها مع ذلك لا تحمل من الحديد ما يريد الدكتور .

فأقل ما يقال عن العمى أنه مرض حسّي يستشعره الضريره بمرارة
صارخة ! وأصعب منه في مضممار الوصف الشعري مرض من الأمراض

المعنوية كالحسد أو الغيرة أو الرياء وقد وصفها شعراء الجاهلية وصدر الإسلام أوصافاً تحمل صدق التجربة ، وتستعين بالتعبير الموحى مما يراه الدكتور من دلائل التجديد لدى الشاعر الأعمى ، وأخشى أن أسوق أمثلة كثيرة لما أريد فأطيل في غير مطال .

لقد تطرف فريقا التقليد والتجديد في قضية الأدب الأندلسي تطرفاً متوقفاً غير مستغرب ، وقد اتفقوا جميعاً مع هذا الاختلاف السافر – على أنماط من التجديد وجدت بارزة في هذا الأدب ، ولعلها تنحصر في الموشحات والأزجال والملاحم ، والإبداع في وصف الطبيعة ورثاء الممالك الزائلة ، ولا بد لنا أن نقف فيما يلي من الصفحات وقفات نافذة لدى كل نوع من هذه الأنواع بل أننا سنضيف إليها ما رأيناه من دلائل التجديد الأندلسي في النثر الأدبي لا في الشعر وحده كما يريد بعض الباحثين أن يقصر عليه مجال التجديد إن وجد ! والحق أن لدينا إبداعاً فائقاً في الكتابة الأدبية لدى بعض المهرة من الأدباء وقد تغافل عنه الباحثون في هذا المضمار وهو بحاجة ملحة إلى أضواء تشير إليه وتدل عليه ، وسبيلنا أن نوجز القول في ذلك ، وحسبنا أن نحدد وأن نوجه تاركين لأرباب البحث المستوعب جانباً من الميدان الفسيح .

لقد أغفلت الحديث عن سيطرة المشرق النفسية مع أصالتها في باب يتحدث عن القديم والجديد لدى الأندلسيين ، ولكنني تعمدت ذلك لأفردتها بالحديث في موضوع لاحق يراه القاريء عن كذب ! وهي بعد تحتاج إلى مزيد من التبسيط !

سحر المشرق

من الأشعار التي تروى لعبد الرحمن الداخل قوله :

أهـا الراكب الميمم أرضى إقر من بعضي السلام لبعضي
إن جسمي كما تراه بأرض وفؤادي ومالكه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالبعاد علينا فعسى باقترابنا سوف يقضى

هذه الأبيات ذات دلالة هامة ، لأنها تصور نوازع الأمير الباسل إلى مطارح عزته بالمشرق ، فجسمه بالأندلس وحده ، ولكن فؤاده بالمشرق وهذا الشعر أعظم من أن نقصره على هوى وجداني يتصل بحبيبة معينة ، فالمعروف عن الداخل أنه قد ير على كبح أهوائه معرض عما يعوق مجده السياسي من ترف وأنس وغيد وشباب ! وقد وقعت من قلبه بعض الشابات الفواتن في غفوة من غفوات إرادته فلم يمهلهما غير أسبوع ، وأطلق سراحها ، معلناً لها في تأثر مرير ، أنه لا يستطيع أن يسجنها في قصر من الذهب لا يغاديه صاحبه إلا على أبعاد تترامى حتى تكاد تنقطع ! أقول أن هذه الأبيات تصور ظمأه الحار إلى مجد الشرق ببغداد ، ولوعه أن يصبح ذات يوم فيجد نفسه حاكم المشرق لا غريباً نائياً يصارع الأهواء المتناحرة في أقصى البلاد ، وكانت الأهوال العاصفة من حوله تذكي بقلبه لواعج هذا الحنين المتقد ، فيوسف الفهري والصميل يجتمعان باديء ذي بدء على مناوئته فإذا تغلب عليهما بجهد جاهد نازعه القاسم بن يوسف ثم يتوالى الثائرون من بعده من أمثال عبد الغافر اليمني وحيوة بن ملامس وهشام الفهري والعلاء بن مغيث حتى تعظم الداهية بظهور الفاطمي البربري ! محن متتالية متشابهة كليلات المحاق ، هذه من تلك ، والرجل الطموح لا يكاد يتنفس في توده ، فإذا فرغ في بعض أوقاته للنهوض الداخلي

ببلاده هاله أن يجد الفرق شاسعاً بين فوضى البربر وقبائل القيسية واليمينية وأخلاق الأسبانيين ممن يحكمهم في دولته الناشئة ، وبين حضارة المشرق ، وثقافة بغداد ، وسحر دمشق ، وإذا كان لا بد مما ليس منه بد فليتخذ من الشرق مثلاً حضارياً يحتديه ، ولتكن بغداد بحضارتها وعلمائها وأدبائها وشعرائها منار هدايته ، على ضوء حضارتها يبني دولته ، وبثقافتها الحية يملأ عقول رعاياه ، وبأدبها الزاهر من شعر ونثر يسكر أرواحهم بما يلد ويشوق !

كان المشرق أذن أستاذ الأندلس ، تتطلع إليه في إخلاص ورغبة ولا تحاول قبل عصر الناصر أن تقيس نفسها به ، بل كبرى مناها أن تحرز نفائس مؤلفاته وروائع آثاره ، وأن يغذ أبناؤها الرحيل إلى الارتشاف من حياضه والري من موارده ، فإذا وفد عليهم وافد من أعلام الشرق تطلعت إليه العيون في إكبار واقتعد مقعد الأستاذ عن فخر واعتداد . .

ومعروف أن الكثرة الكاثرة من جنود الفتح الأول كانت من البربر ، والأقلية القليلة من العرب ، وهؤلاء وأولئك لا يتيسر لهم أن يقيموا ثقافة أدبية أو حضارة عمرانية ، لأن البرابرة بداءة لم يتمكنوا من العربية ، وزملاءهم من العرب في صراع طائفي بين قبائلهم تارة وبينهم وبين المغاربة تارة ثانية وبين الاثنين وبقايا القوط من غلاة الناقمين تارة ثالثة ، وحالة كهذه لا تسمح برقي وازدهار حتى إذا جاء الداخل مهد الأسباب إلى تدفق عربي جديد ، وقد اضطرت السياسة أن يستعين بهم على البربر تارة وأن يستعين بالبربر عليهم في أكثر المنازعات ! حتى إذا هدا الجو بعض الشيء في أواخر أيام الداخل بدأ الاهتمام بثقافة المشرق يأخذ مأخذه وتطلع التلاميذ المغتربون إلى أساتذة كبار ! على أن أسباب الاتصال بين المواطنين كانت ممهدة ميسرة ، فأرض الإسلام بلد واحد في منطق الرعايا والأفراد ، يرحل المسلم إذ ذاك ما يرحل فلا يسأله سائل ماذا يقصد ؟ وأين يريد ! ومن يرحل من الأندلس إلى المشرق يتزود بالزاد الدسم من الثقافة والعلم والأدب ويرجع إلى بلاده

حاملًا نفائس المؤلفات وراوياً بدائع الأشعار ومسجلاً ضوابط اللغة والعلوم فيتبوا مكانة الأستاذ ويعظم في عيون مواطنيه عظمة تخصصه بالهيئة والحلال ، وتمهد له مناصب الفتيا والقضاء إن تفقه ، والوزارة والكتابة إن تفقه وتأدب ! هذا من رحل إلى المشرق ، أما من قدم من أعلامه فهو تحفة نادرة يتوافد الناس إلى رؤيتها ، ويقبلون على الاستفادة من غيرها ، وقد سجل المؤرخون كتباً كثيرة تحمل أسماء من رحل وعاد كما تسجل مواقف من قدم فأفاد ، وهناك كتب أخرى تجمع أسماء المؤلفات الوافدة من المشرق ، وهي تضم نفائس أعلامه في كل مجال من مجالات الثقافة فقهاً ولغةً ونحواً وتصنيفاً وتاريخاً وأدباً ، دع ما عرف من فنون الجدل والفلسفة ، فقد ظلت الأندلس بمنأى عنه إلى أمد بعيد ! ! .

أتت الرحلات والمؤلفات ثمارها ، حتى جاء عهد الناصر وولده الحكم فكانا بالأندلس بمكان الرشيد وولده المأمون بالمشرق ، فإذا كان هرون الرشيد قد أحيا الحركة الأدبية ببغداد على عهده بما نفح به الشعراء من هبات جزيلة ، وبما شاهد من المناظرات العلمية بين الكسائي وأئمة اللغة والأدب في أبياء مجالسه ثم بما أنشأ من خزانة الحكمة حين ولي يوحنا بن ماسوية ترجمة الكتب الطبية القديمة وأخذ يجمعها من أنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم ثم جاء ولده المأمون فسار في الشوط إلى نهايته ، وشابه أباه في تغذية الحركة الفكرية ، بحيث كانت مجالسه مدارس علماء وحلقات مفكرين ثم زاد في نطاق بيت الحكمة حين راسل ملك الروم في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المدخرة لديه ، وبعث لذلك جماعة من أفذاذ الترجمة كإبن البطريق وسلم والحجاج ابن مطر ، حتى أصبحت بغداد وارثة الروم ثقافة وعلمًا كما تمثلت فارس والهند أدباً وحكمة ، إذا كان الرشيد والمأمون قد خطوا هذه الخطوات العلمية ببغداد ، فإنهما قد رسما الطريق للناصر وولده الحكم بالأندلس أن يقفوا أثرهما في هذا المجال المديد !

لقد بدأ الناصر فاستقدم أباً علي القالي صاحب الأمالي ، وساعده استقرار الأمن في بلاده وازدهار الرخاء في عصره وطموح الأمل في نفسه

أن يدفع البلاد إلى نهضة ثقافية شاملة ، وحضارة إنسانية زاهرة ! وكان أثره الغالي بعيداً رائعاً حيث تخرج على يده أعلام ثقافات في الدراسات اللغوية كما استطاع أن ينصر المذهب القديم في الشعر العربي حين روى آثار الجاهليين والإسلاميين ، وظل في قرطبة ثمانية وعشرين عاماً ، ومهما كان من تأثيره اللغوي والأدبي فإنه لا يقاس بأثره العظيم في تنشئة الحكم نشأة أدبية ، جعلته وهو ولي العهد يبذل المستطاع في جمع الكتب وتأليفها حتى إذا أصبح صاحب الأمر في البلاد ، أحدث هذا الدوي الرنان في دنيا الثقافة الأندلسية ! ويقول اللذين تحدثوا عنه من الكاتبين : « أنه كان نظاراً في الكتب كثير التعليق عليها ، وقلما تجد كتاباً في خزائنه دون أن يكتب عليه معلقاً » كما كان يرسل إلى أفذاذ العلماء في الشرق والغرب يدعوهم إلى التأليف في موضوعات يقترحها ، إذ يجد المكتبة العربية في حاجة إليها ، ولم يكن أنانياً يشغل نفسه بعائلته وبنفسه ، فيطلب إلى المؤلفين تسجيل مآثر أجداده كما لمسنا عند كثير من الملوك والرؤساء ولكن سعة عقله قد ارتفعت به إلى أوج باهر فنظر إلى التأليف نظرات موضوعية ، إذ كان حريصاً على أن يجمع لديه التراث الأندلسي على أوسع نطاق - وهذا مما يحمده - فقد كلف أدباء كثيرين بالكتابة عن شعراء الأندلس وقضاتها وعلمائها وفقهائها ، ولعله يريد أن يحيي الثقة لدى الأندلسيين في عصره حين يجدون آباءهم قد تركوا من التراث العلمي ما يمتع ويفيد ، فيواصلون البحث نشطين ! ومن في حضرته من المؤلفين اسحاق بن سلمة وهو مؤرخ ضاعت أكثر آثاره وابن فرج مؤلف الحقائق بإرشاد منه ، وخالد بن سعيد ومحمد بن الحارث الحشني والزبيدي وغيرهم من الأفذاذ ، بل أن القاريء ليدهش حين يجد الحكم يضع للمؤلف فهرس كتابه ويرسم له خطة تأليفه ، فالزبيدي يقول في مقدمة كتابه عن النحاة : « وأن أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله رضي الله عنه لما اختصه الله به ومنحه الفضيلة فيه من العناية بضروب العلوم ، أمر بتأليف كتاب يشمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين في صدر الإسلام ثم من تلاهم من بعد إلى زماننا هذا ، وأن أطبقهم على بلادهم

وزمانهم حسب مذاهبهم في العلم ومراتبهم . . فألفت هذا الكتاب على الوجه الذي أمرني به ، وأقمته على الشكل الذي حده ، وأمدني رضي الله عنه في ذلك بعنايته وعلمه ، وأوسعني من روايته وحفظه إذ هو البحر الذي لا تعبر أواذيه ، ولا تدرك سواحله ، ولا ينزح غمره ، ولا تنضب مادته (١) .

ولا تظن أن الزبيدي قال هذا القول تزلفاً للحكم دون أن يكون له نصيب من الواقع ، لأن سيرة الحكم تدلنا أنه كان أبعد الخلفاء عن الاهتمام بتزلف الوصوليين ورياء المغرضين ! ومسلكه مع فقهاء قرطبة يؤيد ذلك أبلغ التأييد ، فلو كان الرجل حريصاً على انتشار الصيت الكاذب ، لاتخذهم أبواباً ينفخون في الدعاية لسلطانه ! ولكنه عارض جمودهم المتزمت ، ولم يحفل بما يتخرصون به لدى الناس ! وهم ما هم إذ ذاك ، نفوذ كلمة وامتداد صيت ! حتى ألبوا عليه الجموع وكادوا ينجحون في استئصاله لولا حيلته البارعة مع أخذهم بالشدة حيث اتسع الخرق على الراقع ، وأنا أعجب لهذا الخليفة العالم البحاثة كيف استطاعت مآذق السياسة ومعاثر الدولة أن تهيب له من الوقت ما ينفقه في بناء الثقافة ! ووضع الفهارس لبعض المؤلفات ، وجمع الأدباء من شتى الأقطار ! وشراء الكتب من أبعد الممالك ، وحرصه على ذلك حرصاً مدهشاً ! حتى قال الكثيرون أن كتاب الأغاني بكافة أجزائه قد ظهر لدى الحكم قبل أن يظهر لدى المشرق ، لأنه كان يقف على أدوار تأليفه وهو عنه بمنأى في قرطبة فعمل على إحضاره بعد أن أثقل جيب أبي الفرج ! وأكاد أشك في هذا الأمر لأن مؤرخي أبي الفرج يذكرون أنه لم يكن له في حياته من النباهة وبعد الصيت ما كان له بعد وفاته ، وأن قيمة كتاب الأغاني لم تظهر للناس على وجهها الباهر إلا بعد أن فارق مؤلفه الحياة !

(١) طبقات الزبيدي ٩ - ١٠ نقلا عن كتاب الدكتور إحسان عباس عصر سيادة

قرطبة ص ٥٠ .

نعم ، أنه كان من جلساء الوزير المهلبي وصديقاً لشعراء عصره
وكتّابه ورواته ، ولكن ذلك كله أضعف من أن يجعل الحكم في قرطبة
يترصد خطواته في التأليف ، والأمر مع ذلك موضع شك لا أكثر
ولا أقل !

لقد انتقل الأدب الأندلسي في عهد الحكم من الاعتراف بالتلمذة
إلى المنافسة الحقيقية لأستاذه المشرقي ! ولم يأت التلميذ بجديد باهر يأخذ به
أبصار أستاذه ، ولو قد فعل لدارت معركة صاحبة كاتي نشاهدها في
تواريخ الآداب بين الشباب والشيوخ أو بين القديم والجديد !

ولكن التلميذ أراد أن يسابق أستاذه في الاتيان بمثل ما لديه فقط !
والنتيجة مضمونة على كل حال ، لأن الانتاج إذا كان متحد النوع ،
متقارب المذاق ، فالفضل لصاحب التجربة الطويلة والتاريخ المديد والانتاج
الحفيل ، والحق أن الشعور النفسي لدى الحكام من طبقة الناصر والحكم ،
والأدباء من كتاب وشعراء ، بأن أدب العباسيين هو النمط المحتذي
في القول ، قد أوصد أمامهم أبواب الابتكار ، فإذا أضفنا إلى ذلك
تشابه التربة الأدبية من حيث النوع والبذرة والماء فإن تشابه الثمرة أمر محتوم
لا محيص عنده ولا محيد ، وما وجد من ضروب التجديد مما سنفوض في
بعض بواعثه ، ومميزات لونه لم يكن مقصوداً متعمداً ، ولكنه في أهون
أمره يمثل الاستثناء ولا يمثل القاعدة المطردة ! ! وأصحاب المقارنة بين
الأدبين يفيضون في بيان طرق الاحتذاء وألوانه ، ويرددون أسماء المقلدين
ومنازع تقليدهم ، ولهم في كل كتاب يرصد أمواج الفكر الأندلسي ثبت
حافل بالكتب والأسماء فهم مثلاً يقولون أن أبا الفضل جعفر بن شرف
القيرواني ألف كتاب الزمان محاكاة لكتاب كليلة ودمينة الذي ترجمه
ابن المقفع ، وأن كتاب الحدائق الذي وضعه أحمد بن فرج الجياني قد
عارض به كتاب الزهرة لابن داود الأصفهاني ، وأن كتاب المظفري الذي كتبه
ابن الأفطس صاحب (بطليوس) قد عارض به عيون الأخبار لابن قتيبة

ويقع في نحو من عشرة أجزاء كما أن هناك أكثر من ديوان شعري سُمِّي بالحماسة مختاراً على طريقة أبي تمام ، أما كتاب الأنساب للسمعاني فقد عارضه الرشاطي المحدث الأندلسي بكتاب على غرارهِ . . . وتطول القائمة لو ذهبنا نستوعب ، فحسبنا أن نشير ! ! ولن نجد في باب الموازنة بين شعراء المواطنين أوضح من تسمية كل شاعر أندلسي بقريع مشرقى فابن هانيء وابن دراج كلاهما يوصف بأنه متبني الغرب وابن زيدون بحثريه ، وابن خفاجة صنوبريه وابن طفيل عرف بابن سينا واشتهرت ولادة بعليّة بنت المهدي وقيل لابن عبد البر صاحب الاستيعاب حافظ المغرب كما قيل للخطيب البغدادي حافظ المشرق .

أذكر أن الأستاذ محمد رضا الشبيبي علامة العراق وشاعره قد استقصى هذا الموضوع في كتابه عن أدب المغاربة والأندلسيين من ص ١٠ إلى ص ١٣ ثم قال :

« أن الأندلسيين قد استعاروا أسماء حواضر الشرق فأطلقوها على حواضر معروفة في الأندلس والمغرب فشبهاوا أشيلية بحمص وغرناطة بدمشق وفاس ببغداد إلى غير ذلك ، وأحدثوا بلدة سميت البصرة تشبيها لها بالعراق » .

ثم قال العلامة الشبيبي تعقيباً على ذلك : « وهذا — مما يذكر للمغاربة والأندلسيين ويدل على فضلهم وتواضعهم — ضرب من الاعتراف بسبق المشاركة وتفوقهم في العلم والتعليم والبحث والتأليف (١) » !

ويخيل إلى أن السبق الزمني بأكثر من مائتي عام بين ازدهار الحضارة العربية بالمشرق وازدهارها بالأندلس جعل هذا الاعتراف أمراً طبيعياً لا غرابة فيه يتقدم به اللاحق للسابق عن طواعية ! ولكننا نتساءل أكان هذا الاعتراف اجماعاً تنعقد عليه الكلمة ، ويشار إليه في مجال التفضيل أم أن

(١) أدب المغاربة والأندلسيين ص ١٣ للعلامة الشبيبي ط معهد الدراسات العربية بالقاهرة .

1
هناك من أدباء الأندلس على بصرهم الناقد من ضاقوا به وأنكروه ، أن
لدينا نصوصاً كثيرة لأفذاذ من الأندلس يحاولون بها أن يجعلوا الأندلس
مع المشرق في قرن واحد بل ساروا إلى أبعد من ذلك فجعلوا الأندلس راجحة
والمشرق مرجوحاً ، وأظهر من جال في مضمار التفاضل علامة الأندلس
وفقيها الأكبر وباحثها النابغة ابن حزم ، فقد عقد رسالة في فضل الأندلس
وذكر رجالها، وأوردها المقرئ في الجزء الثاني (١) من النفح فاستعرض ما أثر
عن بلاده في مضمار التأليف من تاريخ وتفسير وحديث ولغة وأخبار وطب
استعراض من يرى السبق الظاهر في إقليمه ثم ختمها بقوله : « وبلدنا هذا
على بعده من ينبوع العلم ، ونأيه من محلة العلماء فقد ذكرنا من تأليف
أهله ما أن طلب مثلها بالأهواز وفارس وديار مضر وديار ربيعة واليمن
والشام أعوز وجود ذلك على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي
هي دار هجرة الفهم وذويه ، ومراد المعارف وأربابها ونحن إذا ذكرنا
أبا الأجر جفونه بن الصمة الكلبي لم نُبَاهِ به إلا جريراً أو الفرزدق
لكونه في عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جار على مذهب
الأوائل لا على طريقة المحدثين ، وإذا سمينا بقي بن مخلد لم نسابق به
إلا محمد بن اسماعيل التجاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري - ثم أفاض
ابن حزم فيما يشبه ذلك عن العلماء حتى قال عن الأدباء :

« ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج القسطلي لما
تأخر عن شأو بشار وحبیب والمتنبی ، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان
الحاجب ، وأحمد بن عبد الملك بن مروان ، وأغلب بن شعيب ، ومحمد
بن شخيص ، وأحمد ابن فرج ، وعبد الملك بن سعيد البرادى ، وكل
هؤلاء فحل يهاب جانبه وحصان ممسوح الغرة » .

وأنا حين أقرأ هذه الأسماء - مع ثقتي بابن حزم وسداد حكمه -
أعلم أن جل شعر الأندلس قد ضاع لا محالة فكيف يكون هؤلاء في منزلة

(١) نفح الطيب - ج ٢ ط أولى .

بشار وأبي تمام والمنتبي ثم لا نعلم عنهم شيئاً إلا ما جمع من ديوان ابن دراج !! على أننا نكاد نجزم بأن الذي فقد على كثرته من طراز ما وجد على قلته . فالحكم على نوع الأدب وتحديدده لا يختلف ضياعاً أو وجوداً ، فلئن غاب مائة ديوان ووجد عشرون مثلاً ، فالمعين الدافق سائل واحد في الحاضر والغائب على السواء وهو ما لا يجيد كثيراً بالحكم على أكثر أدب الأندلس بالمحاكاة والترديد ! على أن الدكتور أحمد أمين فقد انتقد ابن حزم ومن لف لفه في معركة الموازنة والتفضيل انتقاداً صائباً فهو يقول بالجزء الثالث من ظهر الإسلام ص ١٢ :

« ومما لا شك فيه أن المنهج الذي سلكه ابن حزم والشقندي ليس منهجاً علمياً ودقيقاً ، إنما هو كلام يقال ، فمن الصعب جداً الحكم بأن فرداً أذكى من فرد ، فكيف الحكم بأن أمة أذكى من أمة ، بل إنها أذكى من الأمم ، ومسلكتهما – يقصد ابن حزم والشقندي بعد أن عرض كلامه وهو ممن يدور في فلك ابن حزم – الذي سلكاه أنهما يحكمان حكماً كلياً ثم يستدلان عليه بمسألة جزئية ، فيقولان أن أهل الأندلس عرفوا بعلاوهم أو الاعتناء بالنظافة ، ويستدلون على ذلك بجاذة حدثت لرجل أو من رجل ، فكيف يصح هذا في العقل ؟ إنما المنهج الصحيح هو مثلاً في توزيع مقياس الذكاء على الناشئين ، وعمل ذلك في أمة أخرى ، والمقارنة بينهما ، ونحو ذلك وبذا تطمئن النفس بعض الشيء عند النتيجة ، أما القول جزافاً بأن أمه أذكى والاستدلال بأن فلاناً ألف كتاباً قيماً ، فبرهان قاصر ، ومحال أن تكون أمة كثيرة العدد كالأمة الأندلسية لا ينتج منها علماء أعلام وأدباء فطاحل (١) . »

أعتقد أن الذين تعاضمهم سطوة الأدب المشرقي من أعلام الأندلس يعبرون عن جانب نفسي من مشاعرهم ، فهم لدى أنفسهم أعلام فضلاء ، ولكن ما يلمسونه مع مواطنيهم الأقربين من تنافس وتصارع يؤديان في

(١) ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٢ .

بعض الأحيان إلى جحود وكفران ، قد جعلهم يضيقون أولاً بما يصادفونه من عقوق ، ثم يوازنون أنفسهم بما يتخيلونه عن أعلام المشرق في سبحاتهم الحاملة ، فيظنون أنهم في مشرقهم لا يكابدون قليلاً مما يكابدون ، فيشعرون بمرارة لاذعة لا تلبث أن تنقلب ثورة على أدب هؤلاء دون ذنب جنوه ! فأبن حزم مثلاً على جلاله علمه ورسوخ قدمه كان قطباً لمعركة طاحنة تحدث بها الآراء ، وله خصوم أقوياء لا يفتنون يمدون له أسباب الكيد والوقعة حتى اعتقل في منزله ، وأحرق كتبه ، وهو عند نفسه لا يقل مكانة عن الشافعي وأبي حنيفة ومالك ولكن قومه ضيعوه ، ثم أخذوا يفاخرون بالمشاركة فاندفع إلى قوله السالف تحت تأثير ظروف القاهرة لا طاقة له باحتمالها ، ويدل على ذلك عند ابن حزم وآحاد من أمثاله ، ما يترنمون به من الشعر تنفيساً عن مشاعرهم المضطربة كأن يقول ابن حزم مثلاً :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع لجد علي ما ضاع من ذكري النهب
ولي نحو أكناف العراق صباية ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل أغفلته وهو حاضر وأطلب عنه ما تجيء به الكتب
هنالك يدري أن للبعد قصة وأن كساد العلم آفته القرب

وكأن يقول ابن دراج القسطلي :

فإن غربت أرض المغارب موطني وأنكرني فيها خليط وجيران
فكم رحبت أرض العراق بمقدمي وأجزلت البشري على خراسان
وأن بلاداً أخرجتني لعطل وأن زماناً خان عهدي نحوان

هذا والمثل القائل : « أحب شيء إلى الإنسان ما منع » يعبر عن حقيقة نفسية لا ندري كيف غابت عن كاتب حصيف كابن حزم ، فالأدب الأندلسي في تناول أصحابه ، لا يحسون له وحشة أو اشتياقاً ، أما أدب

المشاركة فبعيد يُسأل عنه في لهفة وحنين ! ولو مد هؤلاء الناقدون أنظارهم إلى رجال المشرق لوجدوا ما لديهم هنا يماثل ما لدى القوم هناك ، فالمشاركة هم الآخرون يحنون إلى روائع الأندلس ويلتمسون السبيل إلى تنسم أخبارها واستظهار أشعارها ويتقبلون ذوي الرحلة منهم - في الأغلب - تقبل الارتياح والانشراح وقد حرص حكام المشاركة على تدوين أخبار اخوانهم رغبة في الوقوف عليها وسيورتها بين الناس ، فالفقيه الطرطوشي صنف سراج الملوك في مدينة الاسكندرية استجابة لرغبة حاكمها المأمون البطائحي ، وابن القطاع قد صنف الدرّة الحظيرة في المختار من شعراء الجزيرة ليرضى أدباء مصر والمحدث الأديب ابن دحية صنف كتابه الأدبي المطرب في أخبار شعراء المغرب بناء على اقتراح الملك الكامل من بني أيوب ، وهناك مطرب آخر في الأدب غير مطرب ابن دحية سبق أن ألفه الكاتب الأندلسي اليسع بن حرم بمصر ، استجابة لرغبة صلاح الدين الأيوبي فإذا كان أمراء المشاركة ووزراؤها حراساً على الأدب الأندلسي فهم يرونه أهلاً للتقدير والاحتراف ولا يسمعون من أبناء بلادهم من ينكر عليهم ذلك ! هذا من ناحية ، أما تخيل مكانة العلماء في المشرق على مستوى لا ترتقي إليه مكانة الأندلسيين في بلادهم فسراب يتخايل من بعيد دون أن تقع له العين على حقيقة فهل نسي ابن حزم أن البلاء هنا هو البلاء هناك ، وأن أبا حنيفة على جلالته علمه كاد يموت تحت العذاب ، وأن مالكاً ضرب بالسياط ، وأن ابن حنبل قد امتحن بما تزلزل به الجبال وأن عشرات من أمثاله جابههم الزمان بما اعتاد أن يفجع به الكرام المرزئين من حملة الهدى والإصلاح !

إن زامر الحمي لا يطرب كما يطرب الغريب الذي يدوي صيته قبل أن تقع عليه العين ! ولذلك صرخ ابن بسام في افتتاح الذخيرة مردداً صرخة ابن حزم في رسالة المفاضلة ، بل عبر عن حرارة كاوية تلهب جوانحه حين هتف في ألم لذاع (١) . :

(١) الذخيرة لابن بسام - مقدمة المؤلف ط أولى عن كلية الآداب المصرية .

« وما زال في أفقنا هذا الأندلسي القصي ، إلى وقتنا هذا من فرسان
 الفنين ، وأئمة النوعين ، قوم هم ما هم ، طيب مكاسر ، وصفاء جواهر ،
 وعدوبة موارد ومصادر ، لعبوا بأطراف الكلام المشقق ، لعب الدجى
 بجفون المؤرق ، وحدوا بفتون السحر المنمق حذاء الأعشى ببنات المحلق ،
 فصبوا على قوالب النجوم ، غرائب المثور والمنظوم ، وباهوا غرر الضحى
 والأصائل بعجائب الأشعار والرسائل ، نثر لو رآه البديع لنسى اسمه ،
 أو اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه . ونظم لو سمعه كثير ما نسب ولا مدح ،
 أو تتبعه جرول ما عوى ولا نبج ، إلا أن أهل هذا الأفق أبو إلا متابعة
 أهل الشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى
 لو نعق بتلك الآفاق غراب . أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا
 على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً ، وأخبارهم الباهرة ، وأشعارهم
 السائرة مرمى القصية ، ومناخ الرذية ، لا يعمر بها جنان ولا خلد ، ولا يصرف
 فيها لسان ولا يد ، فغاطني منهم ذلك ، وأفقت مما هنالك ، وأخذت نفسي
 بجمع ما وجدت من حسنات دهري ، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري ،
 غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة ، وتصبح بحاره ثماداً مضمحلة
 مع كثرة أدبائه ووفور علمائه ، وقديماً ضيعوا العلم وأهله ، ويارب محسن
 مات إحسانه قبله ! وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان ، وخص
 أهل المشرق بالاحسان ! » .

نفثة مصدر بلا شك ! ولكن تعليلها واضح أسفر عنه ما كتبناه آنفاً بصدد
 مفاضلة ابن حزم ، ولعل من أثرها الحسن أن حدث بابن بسام إلى تستطير
 الذخيرة فقدم لنا تراثاً خالداً يذكر له بالثناء على أنني أعجب لبعض الباحثين
 لماذا يجعلون نتاج الأندلس يقف وحده أمام نتاج بغداد في أخصب عهودها
 الزاهرة ، ولا يحاولون ذلك مع أدب كأدب مصر في عهد الولاة وابن طولون
 والفواطم أو أدب الشام في عهد بني حمدان أو أدب ما وراء النهر من بلاد
 فارس وخراسان ! لماذا تقف الأندلس وحدها موقف المضاهاة والمقارنة !
 وهي بعد إقليم لا يختلف عن غيره من الأقاليم ، ثم ألا يكون ذلك دليلاً

على سمو الأدب الأندلسي وازدهاره إذ استطاع أن يبلغ ما لم يبلغه أدب مصر أو الشام أو ما وراء النهر حيث لا يقف نتاج إقليم منها أمام أدب بغداد ! قد يقال إن قرطبة كانت عاصمة خلافة أموية ، كما كانت بغداد عاصمة خلافة عباسية ، وهي بذلك ترفع نفسها إلى مستوى المنافسة ولها أن تتحمل تبعه النتائج كما تجيء ، ولكن القاهرة أيضاً كانت عاصمة خلافة فاطمية تنافس بغداد وتهدها في أمنع معاقلها الحصينة ، وكان لها بيت الحكمة على ضفاف النيل منافساً خزانة الرشيد والمأمون على ضفاف دجلة ومكتبة الناصر والحكم بالزهراء ! فلم قصر الأدب المصري أن يطمح للمباهاة ! إن السبب واضح لا يحتاج إلى جهد ! فالأدب العربي في مصر الفاطمية كان مقصوراً على الخاصة من ذوي المناصب والدواوين أما الأدب العربي في الأندلس فقد كان نهياً مشاعاً للكثرة الكاثرة من طبقات الشعب (١) ، وفيهم الزراع والصناع والتجار ومن يمتهن الحرف المتواضعة فتعمل يده ويفكر عقله . ويترنم لسانه ، وحدث بعد ذلك عما يجيش به الأدب من لجج ترفدها جداول متكاثرة لا يهدأ بها تيار أو تقف دونها أسداد . . . بذلك كله وبغير ذلك أيضاً استطاع نتاج هذا الإقليم المتأدب أن يزخر ويفيض !

يقول أساتذة الأدب المقارن أن من العوامل الأولى لعالمية الأدب وازدهار تأثيره في كثير من الآداب الأخرى شعور ذوي العقلية الناضجة بعدم كفاية أدبهم القومي في التعبير عن رغبات النفس ، ومبتكرات الحياة فيتجهون إلى أدب آخر يجدون لديه دماً جديداً ينقلونه أو ينقلون منه إلى أدبهم المحتاج ، فتجد به روح أخرى ويغمره نشاط يعيد إليه بعضاً من فناء النفس وشباب الروح ، ولذلك يقول (جوته) الشاعر الألماني الطائر الصيت : « ينتهي كل أدب إلى الضيق بذات نفسه إذا لم تأت إليه نفائس الآداب الأخرى لتجدد الخلق من ديباجته » .

(١) الأدب الأندلسي ص ٧٦ للدكتور جودت الركابي .

وما يقال عن الآداب المختلفة في دنيا الأدب المقارن ، يقال كذلك عن أدب الإقليم الخاص بين آداب الأقاليم الأخرى في اللغة الواحدة والأدب الواحد ، فقد شعر ذوو الملكات العالية بالأندلس بحاجتهم الماسة إلى أدب المشرق ، وقوى هذا الشعور ما لمسوه فعلا لدى الأدب المشرقي من نفاذ وقوة وتأثير ، فعكفوا عليه عكوف من يراه غاية الأمل ، ومرتقى الإعجاز ! ولم يجل في أذهانهم أن يتيامنوا كثيراً عنه إلى غيره أو إلى نفوسهم الخالقة إذ يسبرون أغوارها ويكتشفون مجاهلها فتسعدهم بالجدید ! وكان النتاج المشرقي من الغزارة والتدفق والموالاة بحيث لم يترك بريقه مغازلة الأبصار ، وخطف القلوب ! وأخذت المؤلفات المشرقية تتتابع لتحتذى ، ومهما كان تأثير هذه المؤلفات فإن أحدها وهو يتيمة الدهر للتعالي قد بلغ بتأثيره في صياغة النثر ، واتجاه النقد ، وكتابة التاريخ ما لم يبلغه أثر سواه . . . ونحن نستأذن القاريء أن نبين له ذلك بما نستطيع به أن نخدم قضية التأثر والتأثير .

أثر اليتيم في أدب الأندلس

أكثر ما عثر عليه في التراث الأندلسي من كتب التراجم والأخبار يرجع تأليفه إلى عهد ملوك الطوائف وما يليه ، وأقله يتقدم هذا العهد لأئمة من سابقى الكتاب ، وأنت حين تقرأ هذا الكثير مما صدر في العهد الأخير تجده يكاد أن يكون متشابهاً ، فليست هناك فروق بعيدة بين كاتب وكاتب ، وكأنهم يصدرون جميعاً عن مورد غير مختلف ولا ننكر أن لكل كاتب ما ينفرد به من السمات التي لا تخفى على البصير المتيقظ ، ولكن الطابع العام مع ذلك واحد ، فجل هذه الكتب تميل إلى المبالغة والاسراف ، وتتخذ من التراجم الانسانية معرضاً للبداع بسجعه وجناسه ، حتى لتكاد الحقائق الذاتية تختفي في طيات هذه الزركشة الشائعة ، وهي ظاهرة هامة تحتاج إلى تعليل وتحليل .

لقد وفدت إلى الأندلس من المشرق كتب الأعلام من أئمة التأليف ، وتداول الأندلسيون آثار ابن المقفع والجاحظ وأبي الفرج الأصفهاني وأبي حيان التوحيدي وأضرابهم من ذوي الأسلوب الحي والتفكير الخصب !

ولكن أثر هؤلاء الأئمة لم يكد يتضح فيما نشر من الكتب في عهد الطوائف وما يليه ، واتضح أثر كتاب ذائع ، تقبله الأندلسيون بارتياح ، وطفقوا ينهلون منه ويعبون ، واتخذوه الأكثرون نمطاً عالياً يحتذى ، في صناعة التأليف ! ذلك الكتاب الذائع هو يتيمة الدهر بأجزائه الأربعة لأبي منصور الثعالبي رَحِمَهُ اللهُ !

وأنت حين تبحث عن سر ارتياح القوم لصاحب اليتيمة وولوعهم باقتنائه تجد لديك ما تقول ! فالنثر العربي لعهد الثعالبي كان قد تطور من الطبع إلى الصنعة ومال به الخوارزمي والصابي وابن العميد والصاحب

والهمداني إلى ضروب من التكلف تعمد إلى الحلية الظاهرة والزينة البارزة وتغفل الاستشفاف والتبصر وتخطيء الاصابة اليقظة للتعليل والتحليل! وجاء الثعالبي فتأثر بسابقه الأقربين وكان له من ظروف نشأته واتجاهه ما حجب هذا اللون إلى قلبه ، إذ أن بلاغة اللفظ وحدها في أضيق حدودها المتعارفة كانت هي التي تأخذ بمجامع تفكيره ، ونظرة إلى منحاه في التأليف توضح هذا الاهتمام ، فكتاب فقه اللغة ، وكتاب الكنايات وكتب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب كلها تشير إلى اهتمامه الجزئي بالتراكيب اللفظية ! وقد يكون هذا بدعة العصر أجمعه ! إلا أن الثعالبي حين نقل هذا الولوع الفني بالصنعة اللفظية من ميدان الرسائل والمقامات إلى ميدان التأليف العلمي قد فتح الطريق إلى اتجاه جديد في التأليف ، ومهما قيل عن تسويغ هذا الاتجاه ، فليس هو الطريق المفيد !

انتقل كتاب اليتيمة إلى الأندلس فأحدث دويه ، وأرّخ الكتاب يوم صدوره واحتفلوا باستقباله احتفالاً لم يتيسر لأكثر الوافد من الآثار ، وتعليل ذلك الاهتمام قريب غير بعيد ! فمناظر الأندلس توحى بالزينة ، وحضارة الأندلس قد أوجبت تنميق الأثاث وتجميل الرياش ، وتحلية القصور والأبهاء ، ثم انتقلت إلى اختراع الموشحات في دنيا النظم ، ومن الطبيعي أن تنتقل إلى استحسان البديع في دنيا النثر ، أضف إلى ذلك أن أكثر القائمين بكتابة الرسائل لدى ملوك الأندلس أدباء وفقهاء في وقت واحد ، وولوع هذا النوع من الكاتبين بالبهارج اللفظية أشد وأكثر ، ولسنا ننكر أن منهم أدباء خلصاء ترنح أعطافهم روائع الأدب الأصيل ولكن ماذا يصنع القليل أمام الكثير .

جاء كتاب الثعالبي فأحدث دويه وأخذ أصحاب التراجم يحتذونه مباهين ! ! وإذا قلت أصحاب التراجم فإني أعني التراجم السياسية والأدبية معاً ، لأن أكثر حاكمي الأندلس ، أدباءً وشعراءً بل كانت الوزارة في أكثر سبلها لا تلتمس أصحابها في غير الأدباء والشعراء ! فكل شاعر يطمح

للوزارة وكان الشعر والأدب من أسلحة السياسة والحكم لذا كانت كتب التراجم من سياسية وأدبية متشابهة متأخية! وقد وجد في المشاركة من وصلوا إلى الوزارة عن طريق الأدب ! ولكنهم بالقياس إلى أولئك نفر قليل !

إن ولوع الأندلسيين بالزينة والزخرف كسبب نفسي ترد إليه هذه الظاهرة ، هو الذي أتاح لكتاب اليتيمة أن يصبح مثالا يحتذى ، وإلا فإن شيخ مؤرخى الأندلس وسيد كتابها ابن حيان كان جديراً أن يكون رائد المدرسة التاريخية في إقليمه لو وجد من تلاميذه وحفدته من يتذوقون نهجه ، أو يحاولون السير على منواله ! ولك أن تعجب حين ترى ابن بسام في الذخيرة ينقل آراء الرجل وأقواله مسهباً مطيلاً فإذا عاد ، إلى نفسه تداركته عدوى اليتيمة ونسى الأفق المشرق الذي كان ينقل من أضوائه ، أيكون ابن بسام أعجز من أن يحاكي ابن حيان ! هو كذلك بلا شك ، ولو أنه حاكاه في زمنه المتأخر ما وقع حديثه أطيب موقع لدى من يرهفون أسماعهم لصلصلة الحلي ورنين الأسجاع !

كان ابن حيان (٣٣٧ - ٤٦٩) جزل العبارة شديد العارضة ، قوي الآصرة تلمس في أسلوبه قوة وتدفعاً وتراه نسج وحده في براعة التلوين ، وقوة التصوير ، فإذا نظرت إلى أحكامه شاقك أن تجد بعداً في الغور ، وبراعة في النفاذ ، ودقة في الملاحظة ، وهو جاحظي التركيب في تدفقه وانصبابه ، وكثيراً ما ينجو من استطراد الجاحظ إلى الموضوعية المركزة المحددة ، وكاتب فحل من هذا الطراز لا يرحب به العامة من القارئین ترحيبهم بالكاتب السهل المتناول القريب الأخذ ! ولعل ذلك مما أضاع مؤلفاته على كثرة أجزاءها وجودة منحائها ، إذ لو رزقت سواداً كبيراً من القارئین لتزايد نسخها ، ووصل إلينا منها شيء ذو بال . . . لأننا لم نر الرجل حقاً إلا فيما نقله عنه صاحب الذخيرة - وما أكثر ما نقل - وإلا في ثلاثة أجزاء من كتاب المقتبس فقط ، أما بقية الأجزاء العشرة ، وأما كتاب المتين ذو المجلدات الستين وأما كتاب فقهاء قرطبة وأما كتاب المآثر العامرية ، فواسفا !

يقول المؤرخ الهولندي (دوزى) عنه ، : « إنه يسوق التاريخ مساق من يبدي رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء ويناقشها عن علم وفهم وذكاء كما سيفعل من بعده نقادون كابن سعيد وابن خلدون ، ويمتاز ابن حيان إلى ذلك بأسلوب ناصع لا يهبط إلى الركاكة ، ولا يقع كذلك في التفصح والاسراف في قعاقع الألفاظ ورغم التزامه هذه السهولة لا يهمل جانب الجمال في أسلوبه ، ويبعث في كلامه دائماً حماسة وغنى وطابعاً غالباً من الجدد ، ونخرج من هذا كله بأننا لا نجد بين مؤرخي العرب إلا القليلين الذين نستطيع أن نقارنهم به ، ولن نجد بينهم من تقدمه عليه » (١) .

أجل لن نجد من مؤرخي العرب من تقارنه به إلا كاتباً كابن خلدون أما الذين أكثروا من التراجم الأندلسية من بعده فقعدت مواهبهم المتواضعة دون اللحاق به ! وفيهم من جرء على انتقاده فابن بسام : يقول عنه - الذخيرة ٢/١ ص ٨٥ .

« ومع ذلك فقد كان سهماً لا ينمي رميه ، وبحراً لا ينكش آذيه ، ولو سكب الماء ما نقع ، أو تعرض لابن ذكاء ما سطع ، يتناول الأحساب قد رسخت في التخوم وأنافت على النجوم ، فيضع منارها ، ويطمس أنوارها بلفظ أحسن من لقاء الحبيب غب الموعد ، وأمكن من عذر الطبيب عند العود ، فرب شامخ بأنفه ، ثان من عطفه ، قد مر من كتابه بفصل جرده لوضع حسبه ، وخلده أهدوثة باقية في عقبه ، فيرده ورود الظمان الرنق ، ويلبسه لبس العريان الخلق » .

فصاحب الذخيرة يأسى على لذعات ابن حيان ونقداته ، فهو يريد منه أن يذكر المحاسن ، ويغضي عن المساويء ! وقد نسي ابن بسام شيئاً هاماً ، هو أن من كان في المعية ابن حيان وقوة بصيرته وشمول نظراته يرى كثيراً

(١) الأدب الأندلسي للدكتور هيكل ص ٣٩٣ نقلا تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة

مؤنس ٢١١ .

من الهنات فيمن يتناول ، ولا بد أن يقول رأيه مستنداً إلى تجربته الواسعة ،
وخبرته الأصيلة بالنفوس ، قد يكون ابن حيان أكثر من النقد وأسرف ،
فالصفحات التي اقتبسها ابن بسام تحت عنوان (المختار من قوله) تضرب
في النقد إلى مدى متطاوّل كاد أن يكون سباباً ! حتى ليفهم القاريء أن
كتابته جميعها من هذا الطراز ، ولكن متابعة ما طبع من الذخيرة ،
وما تُدوول من أجزاء المقتبس تفهمنا أن ابن حيان ناقد منصف يسجل
الشر والخير معاً ! وهو ما لا يرتضيه ابن بسام ، وقد تعرض الدكتور أحمد
أمين إلى الفصل في هذه القضية فقال في ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٨ .

« ونحن إلى مذهب ابن حيان أقرب ، فالمؤرخ عليه أن يتحرّى
الصدق في المدح والذم والنافع والضار ، أما اقتصاره على المدح دون
الذم (كما يريد ابن بسام) . فتقصير في رواية الحق . وقول « لنصف الحق ،
وليس الرجل المشهور في التاريخ ملكاً لنفسه ، بل أصبح ملكاً لشعبه يشرحه
المؤرخ الحصيف كما يشرح الطبيب المريض فنحن مع ابن حيان لا ابن بسام ،
وكثيراً ما ضقت ذرعاً بالمؤرخين الذين لا يذكرون إلا المحامد ، ويفضون الطرف
عن المفاسد بل قد يخلقون المذائح خلقاً ، وإن لم يصح نسبتها إليهم حقاً (١) »

ولو تعمقنا بواعث التأليف لدى ابن حيان وابن بسام لوجدنا كلا
الرجلين منطقياً مع نفسه ، فابن حيان ألف كتابه ليصدر أحكامه كما يراها
عقله البصير ، ويقول بعض الكتابين عنه أن لم يقصد إذاعة كتبه بين الناس
بل جعلها مذكرات خاصة لورثته كي يستفيدوا منها وينتفعوا بعظمتها ،
وأنا أستبعد هذا ولا أقبله لأن المؤلف الذي يكتب أكثر من مائة مجلد
في التاريخ لا يقرّ بينه وبين نفسه أن تظل هذه الآثار الحافلة ملكاً لعشرة من
القراء أو عشرين !! ولكنه يقوم بمجهوده الضخم ليسمع الناس ما يريد !
وإذا كان ابن حيان قد اعترف بهذا الضن حين قال عن بعض كتبه :
الذخيرة ١ - ٢ ص ٨٨ .

(١) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٨ .

« وكنت أعتقدت الاستثثار به لنفسي ، وخبأه لولدي ، والضمن بفوائده الجمة على من تنكب إحمادي به إلى ذمي ومنقصتي ، طويتُ على ذلك كشحاً ، وأمضيته عزمًا إلى أن رأيت زفافه إلى خطبة سنيّه أتتني على بعد الدار هن أكرم خاطب ، وأسنى ذي همّة الأمير الموثل : يحيى ابن ذي النون (١) » فليس لنا أن نجعل هذا الاعتراف قضية مسلمة ، لشيء واحد ! لأنه يخالف طبائع الأشياء ! هذا شأن ابن حيان في تأليفه أما ابن بسّام فقد ألف الذخيرة لينصف أهل الأندلس ، ويقف بهم مع المشاركة في مستوى واحد ! ومؤلف هذه وجهته لا يتسنى له أن يسطر ما يعرف من المآخذ ! وإلا ما استطاع أن يبلغ بمؤلفه ما يريد ! !

لقد أطلنا القول شيئاً ما عن ابن حيان ! وهو كاتب يستحق الالتفات دون نزاع وقد أنصفه الكاتب المفضل الأستاذ علي أدهم ، حين ذكر في معرض تبرئته من التحامل أنه وإن كان ينتصر دائماً للخلافة الأموية « فهو أوسع أفقاً وأكثر أمانة وأشد احتراماً للحق من أن يكيل لهم المدح جزافاً ويخلع عليهم إبراد الثناء بلا حساب ، وقد عدد في الجزء الثالث من كتابه (المقتبس) مناقب الأمير عبد الله ، وأبدع في وصفها ، ولكنه لم يقف عند هذا الحد ، وأضاف إلى ذلك ذكر عيوبه ونقائصه وأحصى عليه أخطائه وجرائمه » .

ولا أعرف مؤرخاً من مؤرخي المشاركة يقوم لابن حيان في قوة التصوير وبراعة التلوين مع الإصالة والطرافة ، وهو في قوة تصويره ، وصرامته وصراحته ، واستمساكه بالموازين الأخلاقية يذكرني بالمؤرخ الروماني العظيم تاسينوس « مجلة الثقافة عدد ٦١٤ .

إن هذا المؤرخ الفذ الذي يقول عنه صادقاً الأستاذ علي أدهم أنه لا يعرف مؤرخاً من مؤرخي المشاركة يقوم له ! لم يستطع بآثاره أن يقف في وجه كتاب اليتيمة حين تخطى الشرق إلى الأندلس فسحر الناس وبهر الكتاب !

(١) الذخيرة ٢/١ ص ٨٨ .

وقد توالى كتاب التاريخ من بعده أمثال ابن الفرضي والحافظ الحميدي وابن بشكوال وابن الأبار وابن عبد البر وابن بسام والفتح بن خاقان وابن سعيد والحجاري وعبد الواحد المراكشي وابن الخطيب والمقري ومن يلف لفهم من المؤرخين فقصروا جميعاً عنه وما حاذوه ! ولا نستطيع أن نخص كل هؤلاء بالتحليل ! ولكننا نعمد إلى اثنين ممن رزقوا الحظوة في الذيوع ، والمعاصرة في الحياة لنتخذ منهما دليلاً على أثر الثعالي في كتابة التاريخ الأندلسي ثم أثرهما تبعاً لذلك في انتقال العدوى البديعية إلى من يليهما من الكتاب ! وهما ابن بسام صاحب الذخيرة والفتح بن خاقان صاحب القلائد والمطمح ! وما أغفلنا ابن الخطيب عن انتقاص ولكن فضله ذائع وأسلوبه مشتهر وهو بعد لاحق بهما على أنه تأثر بثلاثتهم جميعاً ، إذ قرأ ما خلفوه !

لقد ذكر ابن بسام في مقدمة كتابه أنه اتخذ تقسيم الثعالي منهجاً له ، فهو يقسم الذخيرة أربعة أقسام ، كما قسم الثعالي اليتيمة أربعة أقسام وهذا التقسيم جغرافي كتقسيم صاحبه فلكل إقليم شعراؤه مهما اختلفت منازعهم الأدبية ! فقسم لقرطبة وما يليها من وسط الأندلس وقسم لأشبيلية وما جاورها من الغرب ، وقسم لبلنسية وما يليها من الشرق وقسم أخير للوافدين من المشاركة إلى الأندلس ! وهكذا سار سير الثعالي حين جعل اليتيمة أقساماً أربعة ، قسم لأشعار أهل الشام وما يجاورها وقسم لأشعار أهل العراق وقسم في محاسن أشعار أهل الجبل والقسم الرابع في محاسن أهل خراسان وما وراء النهر ، وهذا الاحتذاء السافر يتضمن اعتراف ابن بسام بمنهج أستاذه لأن الثعالي كما نقل صاحب الوفيات عنه - ١ ص ٥٢١ .

« كان في وقته راعي تلعات العلم ، وجامع أشتات النثر والنظم ، ورأس المؤلفين في زمانه وإمام المصنفين بحكم أقرانه ، سار ذكره سير المثل ، وضربت إليه آباط الإبل ، وطلعت دواوينه في المشارق والمغرب طلوع النجم في الغياهب » هذا الاحتذاء المقصود دفع المعاصرين من باحثينا الأفاضل إلى موازنات مختلفة بين الرجلين فالدكتور طه حسين يقول في

مقدمة الذخيرة الجزء الأول ١ - ص ب « وهو يصطنع ما اصطنعه الثعالي من السجع والتأنق في تقديم الشعراء والكتاب والتعريف بهم والثناء عليهم والنقد لهم ، ولكنه بعد هذا كله يخالف الثعالي في أمر ذي خطر ، فهو أبعد منه نظراً ، وأنفذ منه بصيرة وأعمق تفكيراً ، وهو على تكلفه في اللفظ لا يندع بالرواء الظاهر عما وراءه من جودة المعنى أو رداءته ومن صواب التفكير أو خطئه ولعله أن يكون أقمه من الثعالي بالحياة الأدبية في إقليم من الأقاليم ، فهو أدق منه ملاحظة لما يكون من الصلة القوية بين طبيعة الاقليم ، وما ينتج فيه من أدب بل بين طبيعة الأجناس البشرية وما تنتج من أدب بل بين ما يكون من مجاورة الأمم المختلفة وما تنتج من الأدب الخ » .

والأستاذ على أدهم يقول في العدد ٦٦٠ من الثقافة : ويبدو لي أن الثعالي كان على فضله وسعة اطلاعه أكثر خضوعاً لأحكام القدماء من ابن بسام وأنه كثيراً ما يندعه البهرج ويحسب الشحم فيمن شحمه ورم ، أما ابن بسام فإنه نافذ النظر ، سليم الذوق بارع الناقد دقيق الملاحظة ، لا يندعه الطلاء المموه ، ولا تضل تفكيره الألفاظ الضخمة المدوية أو الطنطنة العالية » .

ومن يقرأ الذخيرة يعرف أن مؤلفها يعلم كل العلم موقفه من صاحب اليتيمة ، فهو على اعترافه بمتابعته يعلن أنه خالفه في أمرين جوهريين ، الأول ما أفاض فيه ابن بسام حين قال : المجلد الأول - القسم الأول ص ٢٣ .

وقد وعدت في صدر هذا الكتاب بأن أتخلل أشعار الشعراء ورسائل الكتاب والوزراء بما عسى أن يتعلق بأذيالها ، ويساير أفياء ظلالها ، من أبناء فتن ذلك الزمان البعيد - كان - طلقها ، المفرق لشمل الأمر في هذه الجزيرة نسقها ، ونلمع بنبد من مشهور وقائعها ونشير بأسماء طوائف زوابعها وتوابعها ، ليجمع هذا المجموع بين الشعر والحبر ، جمع الروضة بين الماء والزهر والزمان بين الأصائل والبكر ، فإني رأيت أكثر ما ذكر الثعالي من ذلك في يتيمة محذوفاً من أخبار قائله ، مبتوراً من الأسباب التي وصلت

به وقيلت فيه فأمل قاريء كتابه منحاه وأحوجه إلى طلب ما أغفله من ذلك في سواه» .

فهو يعني على الثعالبي إغفال الحوادث والتواريخ ثم يعني عليه مرة أخرى ذكر الفاحش من الأهاجي والماجن من القول فيقول بالقسم الثاني من المجلد الأول ص ٦٢ .

« والقسم الثاني هو السباب الذي أحدثه جرير وطبقته وكان يقول إذا هجوتم فأضحكوا ، وهذا النوع منه لم يهدم قط بيتاً ، ولا غيرت به قبيلة ، وهو الذي صنّا هذا المجموع عنه وأعفيناه أن يكون فيه شيء منه ، فإن أبا منصور الثعالبي كتب منه في يتيمة ما شانته وسمه ، وبقي عليه أمه » .

ونسأل بعد ذلك : هل تقييد ابن بسام بمنهجه ! أما الذي يعرفه قاريء الذخيرة - ما نشر منها - فهو أنه لم يقدر على الإحاطة بالتواريخ والأخبار جميعها ، ولكنه بذل الجهد المستطاع ، وبقي ما بقي مما يتطلب البحث الجديد ، كما أن قاريء الذخيرة يعرف أن ابن بسام ترخص في ذكر بعض الماجن من القول رغم حملته على الثعالبي ! بل العجيب أنه قبل هذه الحملة بصحيفتين فقط من ٦١ يذكر أبحاثاً قدرة يقول أنها من الكنايات المليحة التي تعرض بأمر المؤمنين علي بن أبي طالب ! وكأن له عنها محيد !

على أن ابن بسام مع هذا لا يقارن بمعاصره الفتح بن خاقان بحال ، مهما اضطرت معاصرتهم كثيراً من النقاد إلى هذه المقارنة ! وأن عظم تأثرهما معاً باليتيمة ويكفي أن نلخص السبب في جملة واحدة هي أن ابن بسام جاد والفتح هازل ، فليس إلى التقائهما من سبيل ! .

ومن المفيد أن نوضح وجهة نظرنا في ذلك ، فننظر إليهما رجلين وأديبين ، لئلا نرى الفتح يندفع في استهتاره إلى ما يشين ! ثم يتناول على الناس بالحق وبالباطل معاً ، وهو حين عمد إلى التأليف لم يصدر عن رغبة في اجتلاء حقائق الأدب والتاريخ ، ولكن اتخذ قلمه وسيلة للتكسب المقيت !

فهو يرسل إلى أدباء عصره ومشهوري مصره يحدثهم عن رغبته في تأليف كتاب أدبي يتحدث عنهم ، ويلتمس ما لديهم من الشعر والنثر ثم ينتظر ما يجيء ، فإن كان الرد مصحوباً بالبدر الثمينة والهدايا النفيسة أطلق أرسان المديح إلى أبعد الأشواط ، ، وإن تقاعس عنه ذو الشمم ممن يأفنون أن يكونوا لعبة في يد لاعب أو يترفعون أن يشتروا المدح الزائف بمال مقرر مفروض ! فإن الفتح يشويهم بسياطه ويستعدى عليهم الحكام والناس ، ويصدر في كل ذلك عن ذوق مريض ! لقد أرسل إلى الوزير الفيلسوف النابغة أبي بكر بن الصائغ المعروف بابن باجه يسأله بعض أشعاره مع ما يطمع فيه من المال ، فما التفت إلى دعوته ، ورأى فيه وصولياً يبتز المال من طريق بغيض ! ومثل ابن باجه لا يتأتى له أن يقدر سلوك الفتح وأدبه معاً فهو في الأول متسول محترف ، مع ما عرف عنه من العريضة واصطحاب السفلة وغشيان الريب ، وهو في الثاني ينمق أسجاعاً فارغة لا يراها الفيلسوف تهدف إلى جلاء حقيقة مطموسة أو تساعد على فهم ظاهرة مستعصية ! فما الذي يجذبه إليه مع هذه القبائح ! لقد عزّ على الفتح أن يهمل ويغفل فكتب في القلائد فصلاً عن الفيلسوف أملاه الحقد والضعينة والثأر قال في مقدمته (١) « هو رمد عين الدين ، وكمد نفوس المهتدين اشتهر سخفاً ومجوناً وترك مفروضاً ومسنوناً فما يتشرع ، وما يأخذ في غير الأضاليل وما يشرع ، ناهيك من رجل ما تطهر من جنابة ، ولا أظهر مخيلة أنابة ، ولا استنجى من حدث ، ولا أشجى فؤاده بتوار في جدث ولا أقر بباريه ومصوره ولا فردً بباريه في ميدان تهوره ، الإساءة لديه أجدى من الإحسان ، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان ، نظر في تلك التعاليم ، وفكر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ورفض كتاب الله الحكيم واقتصر على الهيئة ، وحكم للكواكب بالتدبير ، واجترأ عند سماع النهي الإيعاد واستهزأ بقوله تعالى : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى ميعاد » .

(١) قلائد العقيان ص ٩٢ م هندية .

لو كان الفتح يعتقد ذلك في ابن ماجه عن صدق وإخلاص لوجد العذر من الناس في تسجيل ما سطر ، وافق الحق أو جافاه ، ولكنه كشف نفسه حين تراجع الوزير عن موقفه منه كفاً لشره فنفضه ببعض المال ، فأطفأ جذوة غضبه ، واندفع إلى كتابة جديدة ملأها بالثناء الحافل ، ولم يدخر وسعاً في تنسيق صفحة مضادة للأولى في كتابه مطمح الأنفس (١) يقول فيها عنه :

« نور فهم ساطع ، وبرهان علم لكل حجة قاطع ، تتوجت بعصره الأعصار ، وتأرجت من طيب ذكره الأمصار ، وقام وزن المعارف واعتدل ومال للأفهام فناً وتهدل ، إذا قدح زند فهمه أوري بشرر للجهل محرق ، وإن طما بحر خاطره فهو لكل شيء مغرق ، مع نزاهة النفس وصورها ، وبعد الفساد من كونها ، والتحقيق الذي هو للإيمان شقيق ، والجد الذي يخلق العمر وهو مستجد ، وله أدب يود عطارده أن يلتحفه ، ومذهب يتمنى المشتري أن يعرفه ، ونظم تعشقه اللبات والنحور ، وتدعيه مع نفاسة جوهرها البحور» .

هذان نصان متعارضان يكشفان عن معدن الرجل ! وهما أيضاً يكشفان عن خصائص أدبه ، ولا يشرفانه في مجال الموازنة بينه وبين معاصره ابن بسام إذ أن صاحب الذخيرة قد تجافى عن بعض أخطاء يتيمة الدهر حين حاول تقييد الحوادث وتسجيل التواريخ ما استطاع ! ! أما الفتح فقد فهم بتأثير اليتمة من ناحية وطبيعة الجو السائد من ناحية ثانية أن الكتابة معارض ألفاظ ، ومتاحف أسجاع ، وتطبيقات مدرسية للجناس والطباق والتورية ! أما أن تكشف عن حقيقة ، أو توضح فكرة ، فهذا ما لا يبتغيه الفتح أو يعتقدده ! ومع هذا فقد وجد من الأدباء من يقبلون تنميته ، ويرتضون تلفيقه ، فلسان الدين بن الخطيب يقول عنه : « كان آية من آيات البلاغة لا يشق غباره ولا يدرك شأوه ، عذب الألفاظ ناصعها ، أصيل المعاني وثيقها ، لعباً

(١) مطمح الأنفس ٤٢ ط هندية .

بأطراف الكلام ، معجزاً في باب الحلي والصفات » وابن سعيد يقول في المغرب عنه : الدهر من رواة قلائده وحملة فرائده ، طلع من الأفق الأشبيلي شمساً طبق الآفاق ضياؤها ، وعم المشرق والمغرب سناها وسناؤها وكان في الأدب أرفع الأعلام وحسنة الأيام . . . وهو وأبو الحسن بن بسام صاحب الذخيرة فارساً هذا الأوان ، وكلاهما قس وسحبان ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييداً ، وعلماً مفيداً ، وإطناباً في الأخبار ، وإمتاعاً في الأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف ، وكلامه أكثر تعلقاً وتعشفاً بالأنفس ! » .

ويزول العجب من هذين القولين حين نعرف أن لسان الدين بن الخطيب وابن سعيد المغربي كليهما من تلاميذ الثعالبي وهوأة اليتيمة ! وخطتهما في التأليف ترتضي الاكثار من القول والمباهاة بالزركشة اللفظية والزخرفة البديعية ! وذلك داء العصر ومنحاه ، فلا غرو أن هاما بأسلوب الفتح بن خاقان ! ولو رجع بهما الزمن إلى هذا العصر لسمعا الدكتور أحمد أمين يقول عن صاحب القلائد في ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٨٣ .

وأسلوب الذخيرة أقرب إلى نفوسنا فهو لا يلتزم السجع كما يفعل ابن خاقان ، وأسلوب الفتح هذا أجوف يلعب بالألفاظ والاستعارات لعب البهلوان ! ! » .

لقد شغلت منذ أعوام بدراسة الفلسفة الإسلامية بالأندلس ، فطالعت نبذاً من آراء ابن باجه وابن طفيل وابن رشد ، وعرفت أن هناك فيلسوفاً آخر هو الفضل بن شرف ، فحاولت أن أقف على سيرته ، وطفقت أبحث عنه في كتب التراجم ، حتى عثرت على قول الفتح .

« الناظم الناثر ، الكثير المعالي والمآثر ، الذي لا يدرك باعه ، ولا يترك اقتفاؤه واتباعه ، أن نثر رأيت بجرأ يزخر ، وأن نظم قلد الأجياد درأ تباهي به وتفخر ، وأن تكلم في علوم الأوائل بهرج الأذهان والألباب ،

وولج منها في كل باب ، وقد كان أول ما نجم بالأندلس وظهر ، وعرف
بحوك القريض واشتهر ، تسدد إليه السهام ، وتنتقده الخواطر والأوهام
فلا يصاب له غرض ولا يوجد في جوهر إحسانه عرض ، وهو اليوم بدر
هذه الآفاق ، وموقف الاختلاف والاتفاق ، مع جرى في ميدان الطب
إلى منتهاه ، وتصرف بين سماكه وسهاه ، وتصانيف في الحكم ألف منها
ما ألف ، وتقدم فيها وما تخلف ، فمنها كتابه المسمى «يسر البر» ومنها
الكتاب الملقب بنجح النصح ، وسواها ، من تصانيف اشتمل عليها الأوان
وحواها . هذا كل ما قاله الفتح ، وقد أخذت أضرب كفاً بكف بعد
قراءته ، وأسأل نفسي ما ذا قدم لي المؤرخ الكبير غير بديع وأسجاع
وزرکشة وابتداع ! وكان مما أسعدني أن أجد الأستاذ عبد الرحمن البرقوتي
صاحب مجلة البيان رحمه الله يحار مع الفتح حيرتي ، وينشر مقالا بالرسالة
(١٤٩) سنة ١٩٣٦ يقول فيه بعد أن نقل كلام الفتح : « وقد جرى الفتح
في هذه الترجمة على شنشته في سائر تراجمه ، فلم يذكر اسم المترجم له
ولا اسم أبيه ولا منشأه فضلا عن أنه أغفل تاريخ مولده ووفاته ، وكذلك
لم نر لغير الفتح ترجمة لهذا الأديب الكبير يصح أن تسمى ترجمة يعول
عليها » .

تأصلت إذن طريقة اليتيمة في المؤلفات الأندلسية ، احتذاها الفتح
شبراً بشبر ، ووقع في بعض أخطأها ابن بسام ولولا تشبعه بمؤلفات ابن
حيان لجعلها هو الآخر مثالا يحتذيه أما الحجاري وابن سعيد والمراكشي وابن
الخطيب والمقري ، وأما أضرابهم من مؤرخي عصر الطوائف وما يليه فقد
أصابهم من تأثيرها الساحر ما لا نزال نرى عقابيله فيما نقرأ لهم من التصانيف
ولم يقتصر نمط اليتيمة على الأفق الأندلسي وحده ، ولكن بريقه الساطع
قد جذب إليه مترجمي المشاركة ممن فتنوا به ، ونسجوا على منواله ، لقد
حاول أبو منصور أن يجعل اليتيمة بأجزائها الأربعة ذيلاً لكتاب البارح في
أخبار الشعراء الذي تقدم به هرون بن علي بن المنجم المتوفي ٢٢٨ هـ ، ثم
جاء من بعد الثعالبي أبو الحسن علي بن الحسن الباخري المتوفي سنة ٤٦٧ هـ ،

وألف كتابه دمية القصر ، وقد جعله ذيلًا لليتيمة نهج به نهجه ، وقلد عبارته وأسجاعه ثم جاء أبو المعالي سعد بن علي الوراق الخطيري المتوفى ٥٦٨ هـ وصنف كتاب (زينة الدهر) جاعلاً إياه ذيلًا على كتاب الباخري دمية القصر ثم ظهر الكاتب الأشهر العماد الاصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ فأصدر جريدة القصر وجريدة أهل العصر . . . وكل هذه الذبول المطولة تنهل من مورد الثعالي ، وتنهج نهجه ! ! وهي بعد مشرقية لا أندلسية ! ثم توالى المؤلفات التاريخية تحمل الطابع البديعي وكان العصر المملوكي في الشرق وعصور الزوال بالأندلس قد استطابت هذا اللون وارتضته عن اجماع لا يخرج عنه إلا كاتب عبقرى كابن خلدون ! !

كان أبو منصور الثعالي يبذل جهده الحافل في جمع الأشعار البعيدة وسؤال من يلقاهم عن يعرفون من الشعراء ، وإذا صادف أديباً مصرياً أو أندلسياً أو فارسياً فرح به وأخذ ينقل عنه ما يروى ، وأنت تقرأ بعض تراجمه للشعراء ، فتجده لا يكاد يعرف عن الشاعر شيئاً إلا ما سمع من أشعار ، فيضطر اضطراراً أن يكتب له ترجمة إنشائية تنحو منحى المقامات ، وتصلح لكل شاعر ينظم الشعر ، كما تباع الملابس في المحلات التجارية ، ليشتري منها الآباء لأبنائهم غيباً ما يخالونه يتناسب ، وقد يلبس الابن حلته المشترية فإذا بها ليست مما يصلح له ، ولكنه مضطر إلى ارتدائها ، كما اضطر القاريء أن يقبل تراجم الثعالي للشعراء في اليتيمة وإن لم تبرز قساماتهم وشياتهم على اتضاح ، والحق أن صاحب اليتيمة بذل طاقة قوية في حفظ تراث الشعراء من بني عصره ، ولولاه ما استطعنا أن نعرف شيئاً عن أكثر من روى لهم من الشعراء لأن المغمورين لديه أضعاف أضعاف المشتهرين ! ولكن طريقته في السؤال عن الأدباء واستهدائهم بعض أشعارهم قد انتقلت إلى من بعده ، فكان ابن بسام يكتب لأدباء زمانه طالباً نماذج قوية من أشعارهم ليضمها إلى الذخيرة ، فيفد إليه ما يريد ! وكل مسئول لا محالة يهدي من قوله أطيب ما يستحسن في رأيه ، وهذا حسن إذا جاء الأمر من بابيه ، ولكنه انقلب تسولاً شائناً على يد الفتح بن خاقان بل صار أداة ارهاب وهجو

وإستعداد ، وأذكر أن الطيب الذائع والفيلسوف الماهر أبا العلاء زهر لم يقبل أن يجيبه على شيء ، فكتب الفتح رسالة فاحشة في ثلثة وتقدم بها إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن ناشفين ، محاولاً أن يتهمه بالاحاد والمروق ، كما أن طريقة الثعالبي في الاعتماد على الوافدين غير مأمونة فقد يروى أديب للشاعر ما ليس له عن قصد وعن غير قصد ! ولا بد أن تكون هناك نماذج كثيرة في اليتيمة والدمية والحريدة والذخيرة والقلائد والمطمح ليست لأصحابها على وجه التأكيد ! ! مهما يكن من شيء فنحن في معرض أنصاف الثعالبي نقرر أنه بذل أقصى ما يستطيع ، وأن هيامه بالأدب قد دفعه إلى تشييد معقل قوي من معاقله حفظ جانباً من تراث القرنين الرابع والخامس معاً ! أما قصور تراجمه وتراجم من بعده عن أن تقدم التاريخ الحي في أكثر مادبع ، فيواجهنا بمهمة خطيرة ، إذ ينبغي أن يحرص ناشروا هذه المجلدات من علمائنا المحققين على استيفاء النقص ما أمكن ، فلا بد - أن صدق الناشر المحقق في إخراجه ، أن يضع في هامش كل ترجمة ما يصل إليه جهده الباحث من أخبار صاحبها ذاكراً ما وقف عليه من المراجع والمصادر ! ! فإذا اتجه أصلاً المحققين من الناشرين هذه الوجهة فلا بد أنهم سيجدون الجيد المفيد ! ولك أن تتصور معي اليتيمة والحريدة وأضرابهما وقد عولجت هذا العلاج ، فأكملت ما تيسر من النقص ! وأصبحت مرجعاً أديباً وتاريخياً معاً ! ومن المحقق أن بعض من ترجم لهم في هذه الموسوعات لا نجد من المصادر المعاصرة ما يمدنا عنهم بشيء ولكن من المحقق أيضاً أن كثيراً من هؤلاء قد كتب عنهم فهم يتطلبون عناية المحقق واهتمامه ، إن كان كفتاً لعمله إذ من المقرر أن يضطلع بالنشر بجائة متمرس ضليع قرآء ، أما الذين يكتبون بالنشر الخاطف فهم وراقون !

لقد نشر الأستاذ الجليل أحمد يوسف نجاتي رحمه الله تسعة أجزاء من كتاب نفح الطيب عن دار المأمون قام بتحقيقها واستيفاء النقص فيما ورد من تراجمه ، فلم تتكأده عقبه ما في طريقه بل كان اطلاعه الثاقب الشامل - وإن أسرف أحياناً - يمدّه بجميع ما يريد ، ولو صدق محققو التراث الأديب صدق الأستاذ نجاتي لتلافوا النقص ، وقوموا المائل ، ومهدوا الطريق

مدى الأصالة في شعر الطبيعة بالأندلس

كان من المسلمات البديهية لدينا في عهد التلمذة بالمدرسة الثانوية والكلية الجامعية معاً أن الشعر الأندلسي قد برع في وصف الطبيعة براعة لا يقاس بها غيره ، وأن جمال الأندلس بجبالها الخضراء وسهولها الياضعة وجداولها المترققة ، ورياضها المخضلة وترفها الناعم المريح كل ذلك قد ألهم الشعراء ما لم يلهم به بلد آخر من بلاد العربية في المشرق ! ثم مضت بنا الأيام على هذا الاعتقاد ، ونحن نقرأ ما لدينا من شعر الطبيعة بالشام والعراق وغيرهما فنجده لا يقل براعة عن شعر الأندلس ! ثم نعود الكرة إلى شعر الطبيعة بالأندلس فنعجب بكثرته النسبية ، ولكننا نتساءل أي إعجاز مكين قد ارتفع به عن شعر الشرق في نظر الباحثين فلا نكاد نجد من القلائد المعجزة ما يطمئنا إلى ما نشأنا عليه في أزمنة الدراسة ! ! أيكون لدى هؤلاء المؤلفين من مدرسين وجامعيين ما ليس لدينا من النصوص ! هل عندهم من مخطوطات الأندلس ما يملكون الفصل به في قضية لا يتيسر لنا الحكم فيها على وجهها الصحيح ! ! ولكنهم حين يستشهدون على براعة الأندلس البارعة في الشعر الطبيعي ، لا يأتون لنا بما نجهد من القصائد !

فأشعارهم المختارة شائعة ذائعة ، ونحن قد أطلنا الوقوف أمامها إطالة مغرقة فلم ترتفع بنا عن أرض الشرق إلى سماء ذات صور وتهاويل ! ! أيكون الفرق بين شعر الطبيعة في الإقليمين ضئيلاً محدوداً كما نراه ويكون هؤلاء الدارسون الأفاضل قد وقعوا تحت تأثير استنتاج مخطيء أتى به باحث متقدم فتلاه اللاحقون ! لقد مكثنا نتردد في الجزم بقول فاضل ، حتى وجدنا أستاذنا الدكتور أحمد أمين ينشر بحوثه المعروفة بمجلة الثقافة سنة ١٩٣٩ عن جنابة الشعر الجاهلي على الأدب العربي فيتعرض لشعر الطبيعة بالأندلس كي يقول فيه : (عن الجزء الثاني من فيض الخاطر ص ٢٥٨ إذ جمعت به هذه المقالات) .

« لقد كانت بالأندلس أغنى بقاع المسلمين منظرًا ، وأوفرها جمالا ،
أبدعها الخالق أيما إبداع ، وصاغها خير صياغة ، ولونها أجمل الألوان ،
فلا يستطيع من يراها إلا أن يغني ، ولا من شاهدها إلا أن تفتنه ، ومن الحق
أن شعراءها غنوا أكثر من غيرهم ، وتفننوا في ذكر محاسن الطبيعة أيما تفنن ،
ونبع فيهم أمثال ابن خفاجة الملقب بشاعر الطبيعة ، ولكني لا أكرم القاريء
أني قرأت كثيراً من شعره ، وشعر غيره من الأندلسيين ، فكان شعوري
نحوهم أنهم أجادوا الصياغة ولم يوفقوا أن ينفخوا الروح ، شعرهم تمثال
بديع لا حياة فيه إلا في القليل النادر ، شعرهم من رأسهم لا من قلبهم ،
أكثر جهدهم موجه إلى البحث عن تشبيه رائع ، واستعارة بديعة تعجب
علماء البيان لا نتيجة شعور يتدفق ، يريد أن يحتضن الطبيعة لجمالها ،
ولا هو صرخة إعجاب خرجت من أعمال القلب في بساطة فطرية ، ولا هو
تمجيد للجمال ولا هو إحساس من الشاعر باندماج الطبيعة في نفسه واندماج
نفسه في الطبيعة حتى كأنه هو وهي أو هي وهو وحدة لا انفصام لها ،
كلا ، ولا هو شعور بحياة الطبيعة وقوة نبضها كما ينبض القلب ، ولا هو
شعور الظمان يريد أن يرتوي ولا يرويه إلا جمال الطبيعة ثم هو يعل منه
وينهل ، وكلما عب ازداد لذة وازداد ظمًا .

لا شيء من ذلك ! وإن عثرنا منه على شيء فهو القليل النادر الذي
لا يروي ظمًا إنما أكثره من قبيل الخيال المصطنع يتعمق فيه الشاعر ، ليظفر
باستعارة أو يسبح في الآفاق ليأتي ببعض المحسنات البديعية » .

صادف كلام الدكتور أحمد أمين في حينه هوى لدى نفسي ، ولكن
نفرًا من كبار الباحثين قد تصدوا لمعارضته فحاولوا أن ينقضوا وجهات
كثيرة من أنظاره المختلفة ، وقد تعرض الدكتوران عبد الوهاب عزام
بالثقافة وزكي مبارك بالرسالة للتعقيب على آرائه في الأدب بعامة ومن بينها
ما يتصل بشعر الطبيعة الأندلسي ، ونقل هنا طرفًا مما قاله الدكتور زكي
مبارك ، لنستطيع بعد ذلك أن ننصف شعر الطبيعة الأندلسي على ضوء
الاختلاف المتباعد يمينًا وشمالًا في الآراء .

قال الدكتور زكي - عن مجلة الرسالة العدد ٣١٩ سنة ١٩٣٩ :

« هل من الحق أن الأندلسيين لم يحسوا الطبيعة ولم يتذوقوها ، كما قال أحمد أمين ! إن المعروف عند جميع أدباء اللغة العربية أن الأندلسيين تفوقوا في وصف الطبيعة فكيف تفرد أحمد أمين بنكران ذلك ؟ أيكون أعلم الناس بالأدب ولا نعرف ! هذا والله أعجب العجب . . . ! إن الأدب الأندلسي قد تعرض للضياع منذ أجيال فلو قلنا أن ذلك الأدب ضاع منه أكثر من تسعة أعشاره لما بعدنا عن الصواب ، ومع ذلك بقيت آثاره تشهد بأن العرب في الأندلس أحسوا الطبيعة والوجود إحساساً قليل النظائر والأمثال !

معاذ الأدب أن نفهم الطبيعة كما يفهمها أحمد أمين فنظنها مقصورة على الشجرة والزهرة ، إنما الطبيعة كتاب الوجود بما فيه من حجر ومدبر وشجر ونبات وماء وجماد والطبيعة الشاملة تظهر بعظمتها وجبروتها ممثلة ناطقة في أكثر ما كتب الأندلسيون ولو شئت لقلت أنهم بالغوا في ذلك حتى قاربوا الاسفاف ، فهل كانوا يعملون من وراء الغيب أن سيجيء في أواخر الزمان من يتهمهم بالغفلة عن تذوق الطبيعة والوجود » ! ثم أخذ الدكتور يستشهد بأبيات أندلسية في الطبيعة لا نظنها بعدت عن مثل الدكتور أحمد أمين ، فهي من الديوع والسيرورة بحيث يعرفها أكثر القراء ! ولكن اختلاف الرأي بين الباحثين الكبارين قد نشأ من نقطة واحدة ، هي ما ينبغي أن يتسم به شعر الطبيعة في الأدب العربي ! وبياضاح هذه النقطة الهامة ينكشف مقطع الرأي دون نزاع !

قرأ الدكتور أحمد أمين نماذج كثيرة للشعر الأوربي في الطبيعة ، فرأي أن أكثر المناظر الطبيعية في الغرب لدى شعرائه الكبار توحى بمعان رائعة في وحدة الوجود وتناسقه ، وتلهم أفكاراً حية عن الزمان والمكان والحب والخلود والماضي والحاضر والأزل والأبد ، فالشلالات المنحدرة في تدفق ، والبحر الممتد في سعة وعمق ، والغابات ذات الشجر الملتف

والطير المغرد والجبال المتوجة بالثلوج كل أولئك مما يلهب خيال الشاعر الأوربي فيقبس منها بوارق الإبداع ويخلع عليها من ذات نفسه فيراها ذوات أرواح وأصداء وأصوات ويتخيل لها تاريخاً حافلاً يمتليء بالفرح والألم والنشوة والحسرة والصعود والهبوط والتقييد والانطلاق ، كما أن الشعر العربي يقف عند المعنى الجزئي ، فإذا وصف طائراً أو زهرة ، جعل يترصد ألوان التشبيه ومناحيه في الرأس والجناح والريش لدى الطائر وفي الكم والأريج واللون والورق لدى الزهرة ، مكتفياً بذلك عما يفيض فيه الشاعر الأوربي من الاهتمام بالجوهر الكلي والاطار الشامل مظهراً فلسفة الفكرة آنأ ورقة الهمس والحنين آنأ آخر مما يفاجيء القاريء بإحساس جديد تمور به نفسه دون أن نرهق فكره بمختلف التشبيهات الدهنية! والتحاسين اللفظية التي نجد كثيراً منها في الشعر العربي ! هذا إلى أن شعر الطبيعة في الأدب العربي مشرقاً وأندلساً - لا تنفرد فيه الطبيعة بالموضوع غالباً ، فهي تأتي في قصيدة المدح أو الرثاء أو الغزل استطراداً ، فالشاعر ينظر إليها معجلاً فيلم ببضعة أبيات ثم ينتقل إلى ما يريد ! فوصف أبي تمام للربيع في قصيدته الشهيرة :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حلبة يتسكر
تزلت مقدمة المصيف حميدة ويد الشتاء جديدة لا تنكر

وأبيات ابن الرومي :

حيتك عنا شمال طاف ريقها بجنة نعمت روحاً وريحاناً
هبت سحيراً فناجى الغصن صاحبه سرا بها وتداعى الطير إعلاناً

كل ذلك وعشرات من أمثالها جاء في قصائد المديح عرضاً ومثله في الأندلس كثير من شعر ابن هانيء وابن حمد يس وابن زيدون ! أما أن تكون الطبيعة ذات استقلال خاص بالقول فهو ما لم يظهر بكثرة كاثرة إلا عند بعض الشعراء في البلاط الحمداني كالصنوبري والنامي وكشاجم والسرى الرفاء ! وهو بعد لا يتجاوز الأبيات القليلة فليس يصدر عن نفس

جياش متدفق يرسل القول إرسالا كما ينحدر الماء من أعلى الجبل إلى منحدر السفح ! أما الشعر الغربي فالطبيعة ذات حيز كبير مستقل نري من الاهتمام بها لدى الشعراء ما يوحى بعظم تأثيرها الخالب ! حتى أن شعراء الملاحم وشعراء المسرح لا يعفون آثارهم الرائعة من الوصف الطبيعي ، ويرون في الافتتان بالطبيعة ما يضيفي على الملحمة البطولية والمسرحية التمثيلية بهجة ومرتعة ! مع اتساع الشعر الغنائي لتصويرها والافتتان بجمالها كل الافتتان ! وهذا ما يطلبه الدكتور أحمد أمين في الأدب العربي فلا يجده ، وكأن يأمل أن يرى في أدب الأندلس ما يشير إليه ، إن عز أن يجد ما يشابهه ، فلم يقع على شيء ! وهذا ما دعاه إلى نقد الأندلسيين .

أما الدكتور مبارك فلا يريد أن يخلط الأدب العربي بغيره ! فإذا كان شعراء الأندلس قد أكثروا القول في شعر الطبيعة فقد قاموا بجهدهم المشكور وزاحموا المشاركة وربما تفوقوا عليهم في الكثرة الكمية ! وهذا وحده ما يجيز للدكتور أن يباهي بما قالوه ! وأن يعنف في نقد الأستاذ أحمد أمين عنفاً كان الأجدر ألا يكون !

على أننا بعد ذلك نتجه إلى صميم الموضوع فنسأل أكان شعر الطبيعة في الأدب الأندلسي موازياً لأخيه المشرقي في القيمة الفنية لم يكذب يزيد عنه شيئاً أم أنه احتداه بدءاً ثم استطاع أن يسير في طريق التقدم الابتكاري خطوات وثيدة ؟ وإذا فعل ذلك فإلى أي أمد سار ، إننا إذ نجيب عن هذا السؤال إنما نقدم للقاريء ما يفيد !

من الخطأ الذي يقع فيه أرباب الموازنات بين الأدبين أنهم يجعلون جميع ما قاله المشاركة يقف أمام ما قاله الأندلسيون ! ونسوا بذلك شيئاً واضحاً هو أن عمر الأندلس الأدبي أقل بكثير من عمر المشرق ! فالأدب الجاهلي مثلاً أدب مشرقى وأدب صدر الإسلام وعصر بني أمية أدب مشرقى وأدب السنين الأولى لعهد بني العباس أدب مشرقى أيضاً ولكنها كلها لا تدخل في باب الموازنة ! الأمر واضح هو أن أدب الأندلس إلى أوائل

عهد بنى العباس لم يكد يولد بعد ! وعلى ذلك فهو حفيد لما تقدمه من آداب هذه العصور ، وإذا أردنا أن نقيم موازنة بينه وبين أدب مشرقي فلتكن الموازنة مع أدب حفيد مماثل أم الآداب السابقة فهي آباء وأجداد للأدبين معاً ، ولا يليق في باب الموازنة العادلة أن يذهب بفخر هذا الميراث الحفيل حفيد دون حفيد ، فإذا كان لدينا من جدة متأصلة في شعر الطبيعة جاهلياً وأمويماً فهي مما لا يندرج في حساب أحد ! وإنما الذي نسأل عنه إذ ذاك هل نمت هذه الجدة في أدب ما فواصلت سيرها المنتظر أو أن الجمود قد وقف بها دون الاطراد في هذه الدائرة المحددة نسير !

وإذا كان من المتعارف عليه إصطلاحياً - ولا مشاحة في الاصطلاح - أن أدب الطبيعة يشمل الطبيعة الحية كالحيوان والطير والطبيعة الصامتة كالنبات والجبال والحدائق والغابات والبحار والسماوات أو بعبارة أخرى يشمل ما سوى الإنسان مما يرسم في صفحة الحياة ! فإننا حين نتصفح الشعر العربي نجده في عصري الجاهلية والإسلام قد اهتم بالطبيعة الحية أكثر من اهتمامه بها فيما بعد ! فتحدث الشعر الجاهلي حديثاً مطيلاً عن حيوانات البادية من ناقة وفرس وذئب وكلب ! وشاركه الأدب الأموي اهتمامه بحيوان البيئة وطيرها ، وإن قل الحديث عن هذه الطبيعة الحية نسبياً في الأدبين الأندلسي والعباسي معاً ! ! ويجب أن نفرق هنا بين نوعين من الشعر في الطبيعة الحية ! ! النوع الأول وهو ما يعرف بالوصف ، ذلك الذي يقف عند الأعضاء والملاحم والأجزاء فيصورها تصويراً جزئياً حسياً ! وهو موفور كثير في كل أدب ! حتى في آداب عصور التدهور والانحطاط على نسبة بين الجودة والرداءة ! أما النوع الثاني وهو الذي يبعد عن الوصف الحسي إلى الحديث عن الخواطر والشجون لدى الطير والحيوان ! فقد بدأت ظواهره في الأدبين الجاهلي والأموي ، وكان الظن بها أن تنمو في الأدبين العباسي والأندلسي ولكنها تحجرت أو كادت في الطبيعة الحية ! واكتفى الشعراء برسم الظواهر الحسية مما يقف عنده البصر وحده وهو مما عيب على الأدب العربي بعامه ! والحق أن الشاعر الجاهلي كان أصدق فطرة وأخلص

طبيعة من ذوي الثقافات البيانية والتوليدات الذهنية في عصور الصنعة والاحتفاء ! أن الشنفرى مثلاً يصاحب الوحش في البيداء بروح إنسانية ، ويقول عن أصدقائه من العجاوات « هم الأهل لا مستودع السر عندهم بذائع » ثم تأخذه الرحمة بالذئب فيتابعه حين يلتبس القوت فلا يجده ، وإذ ذلك يعوي فتخف إليه الذئاب عاديات مسعدات فإذا أقمن المناحة ورأين عدم جدواها في الشبع والري بلأن إلى الصبر والاستسلام ! كم كان جميلاً من الشنفرى أن يتابع هذه المخلوقات الجائعة ثم يتعاطف معها فيقول :

فلما لواه القوت من حيث أمه دعا فأجابته نظائر هزل
فضج وضجت بالبراح كأنها وإياه نوح فوق علياء ثكل
عوى وعوت ثم ارعوى بعدوارعوت وللصبر أن لم يسعف الشجواً جمل (١)

ثم نجد هذا التعاطف يتقدم خطوات أخرى في العصر الأموي إذ يركب الأعرابي ناقته فيسمعها تحن ، ولم تسر بعد كثيراً حتى تتعب ، فيدرك أنها تعالج من الشوق ما يعالج ، ويرأها غريبة مثله فلا بد أن يسعد الغريب الغريب ! ثم ينقلب هذا التعاطف بين الإنسان والحيوان إلى إثارة يصدر عن محبة وإخلاص ، فيود الأعرابي لو خلص قلبه من الشوق ، فيهديه إلى ناقته ليساعدها على الحنين ! ولله هذا الإيثارة السمع وهذا الشعور الرائع يجيش به بدوي فطري فيسامي أعظم شعراء الوجدان حين يقول :

دع المطايا تنسم الجنوبا
إن لها لنبأً عجيباً . . !
حينها وما اشتكت لغويا
يشهد أن قد فارقت حيبيا

(١) لعل الشنفرى يذكرنا بتعاطف عنزة حين يقول عن جواده :

م فأزور من وقع القنا بلبانه وشكا إلي بعبرة وتحمم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو عرف الكلام مكلمي

ما حملت إلا فتى كئيبا
يسر مما أعلنت نصيبا
لو ترك الشوق لنا قلوبا
إذن لآثرنا بهن النيبا
إن الغريب يسعد الغريبا

وشاعر كالفرزدق ليست تشيع الرقة العاطفية بين ما عرف
من أشعاره ، ولا فيما تنوقل من أخباره بل ربما كان إلى كثافة الحس ،
وهمود الشعور وغلظة الطبع أقرب من نظرائه ! ولكنه يتحدث عن الذئب مرتين
فينبجس قلبه عن رقة لا نعرفها لديه أن الشاعر الذي افتخر بأنه لم يبك
على زوجته كجربير حين لحقت بالفناء فالمرأة أهون من أن يبكي عليها رجل !
وأهون مفقود إذا الموت ناله على المرء في أصحابه من تقنعا

هذا الجامد الصارم يجد ذئب الصحراء دانياً من طعامه ، فيقاسمه
زاده ، ويصيح به في مودة !

تعش فإن عاهدتني لا تخونني نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما أخيين كانا أرضعا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلمس القرى أذاك بسهم أو شباة سنان

ثم يتحدث عن موقف آخر مع ذئب استضافه في مكان يعرف بالغريين
فيقول :

وليلة بتنا بالغريين ضافنا على الزاد ممشوق الذراعين أطلس
تلمسنا حتى أتانا ولم يزل لدن فطمته أمه يتلمس
ولو أنه إذ جاءنا كان دانياً لألبسته لو أنه كان يلبس
ولكن تضحى جنبه بعد ما دنا فكان كقيد الرمح بل هو أنفـس

فقسامته نصفين بيني وبينه — بقية زادي والركائب نعس
وكان ابن ليلي إذ قرى الذئب داره — على طارق الظلماء لا يتعبس !

هذا الانجذاب العاطفي نحو الحيوان والطيور مما يتدرج في باب الطبيعة
الحية قد انقطع أو كاد فيما تلا العصر الأموي من عصور ، فالبحتري
يتحدث عن الذئب كما تحدث الفرزدق ! ولكن لا نجد من التعاطف والرحمة
ما هو جدير بشاعر كالبحتري بل نجد من الافتعال والتلفيق ما ينيء عن
عاطفة متحجرة سمحت له أن يقول :

طواه الطوى حتى استمر مريره — فما فيه إلا العظم والروح والجلد
سما لي وبني من شدة الجوع ما به — ببسداء لم تعرف بها عشية رغد
فأوجزته خرقاء تحسب نصلها — على كوكب ينقض والليل مسود
فخر وقد أوردته منهل الردى — على ظمأ لو أنه عذب الورد
وقمت فجمعت الحصى واشتويته — عليه وللرقضاء من تحته وقد
ونلت خسيساً منه ثم تركته — وأقلعت عنه وهو منعفر فرد

والشريف الرضي ذلك العربي العلوي الهمام ينحو منحى البحتري
فيقول عن ذئبه :

ولما عوى والرمل بيني وبينه — تيقن صحي أنه غير راجع

وهكذا نفتش عن أدب الحيوان والطيور في شعر بني العباس والأندلسيين
ومن وليهم فلا تجد غير الوصف فقط مما لا يستثير العواطف ، أو يكشف
عن التعاطف والتألف ! ولدينا قصائد عباسية كثيرة في الحيوان لعشرات من
الشعراء ! ولكن قصاراها أن يتجه وجهة المتنبي — شرقاً — حين قال في
أسد البدر بن عمار :

أمعفر الأسد الهزبر بسوطه — لمن ادخرت الصارم المسلولا
ورد إذا نزل الجزيرة شاربا — ورد الفرات زئيره والنيلا

ما قوبلت عيناه إلا ظنننا
يطأ الثرى مترفقاً من تيهه
تحت الدجى نار المجوس حلولا
فكأنه آس يجس عليلا

أو تتجه وجهة ابن حمد يس بالأندلس حين يصف الأسد فيقول :

هزبر له في فيه نارٌ وشفرة
سراجاه عيناه إذ أظلم الدجى
كما يستوي لحم القتيل على الجمر
يصلصل رعدٌ من عظيم زئيره
فإن بات يسري باتت الوحش لا تسري
له ذنبٌ مستنبط منه سوطه
ويلمعُ برقٌ من حماليقه الجمر
ترى الأرض منه وهي مضروبة الظهر

فمع جمال هذا الوصف الرائع لدى المتنبي وابن حمديس وعشرات
من يردون موردهما في الاهتمام بالهيكل الظاهري دون اتساع النظرة
الإنسانية وشمولها فإننا نرى أن شعراءنا العرب قد وقفوا عند الصورة البصرية
موقفاً كان من الحسن أن يتجاوزوه وهذا شأنهم جميعاً - باستثناء أبي العلاء
في شعر الطبيعة الحية شرقاً وغرباً !

على أن الحمام قد فاز بنصيب كبير من القول ! فكل عاشق تهيج
لواعجه صدحات الحمام ! فيعبر عن شجونه مستطرداً إلى وصفها ! وأدب
الحمام أكثر من أن يحصر ، وأوضح من أن يدل عليه ، وهو على درجة
قريبة من التشابه بين المشرق والمغرب فإذا قال الشاعر الشرقي :

ألا يا حمام الأيك إلفك حاضر
أفق لا تنح من غير شيء فإنني -
وغصنك ميّاد فقيم تنوح ؟
ولوعاً فشطت غربة دار زينب
بكيت زماناً والفؤاد صحيح
فها أنا أبكي والفؤاد جريح

قال الشاعر الأندلسي :

ألا يا حمام الأيك مالك باكياً
تغنّ ولا تشجّ فإلفك حاضر
وغصنك نضراً والجناب مريع
وقلبك خلو من تباريح لوعتي
قريبٌ وإلفي غائب وشسوع
وقلبي بلوعات الفراق صديع

والاحتذاء هنا واضح سافر ! ! وهو مما لا يُحمد للمتأخر إذا صدر
عن رغبة التقليد لا عن تجربة توجب التنفيس ! وشعر التجربة الصادقة
لا يخفى ، ففيه من حرارة الانفعال ، وتوهج العاطفة ، وكمون اللوعة
ما لا يخفى على البصير ! لقد كان أبو فراس الحمداني أسيراً في بلاد
الروم ، يبعث قصائده إلى ابن عمّه كي ينهض إلى فكأكه متوسلاً شاكياً ،
ثم طرق سمعه ترجيع ورقاء هتوف تنوح دون أن تذوق من طارقات النوى
ما ذاق الأمير الشاعر ! ولكنها وهي الطليقة السراح تبكي وتنحب دون
المكبل الأسير ! فانطلق أبو فراس يبثها الشجن ، ويخبرها عما تجهل من
أمره ، ويهتف في آهة هادئة مشجية :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا لو تعلمين بحالي
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ولا خطرت منك الهموم بيال
أحملُ محزون الفؤاد قوادم على غصن نائي المسافة عال
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي
تعالي تريّ روحاً لدي ضعيفة ترددُ في جسم يعذب بيال
أيضحك مأسور وتبكي طليقة ويسكت محزون ويندب سالي
لقد كنت أولى منك بالدمع مقالة ولكن دمعي في الحوادث غالي

هذا أبو فراس بالمشرق ! أما المعتمد بن عباد بالأندلس فأشدّ منه لوعة ،
وأعظم مأساة ، لقد حبسه يوسف بن تاشفين بالعدوة ولم يرحم ملكه الضائع
ومجده السالف وبلاءه المشكور في موقعة الزلاقة حين تلاقى الجمعان ، بل
زاد فقيّد يديه وقدميه وأرهق زوجته وأطفاله بما يقصم الظهر بعد نعيم
وارف وعز حافل ومجد سعيد ! ولم يجد الملك الأسير غير الشعر يبثه حنينه
ويودعه شكواه . وقد عبرت به أسرابُ القطا طليقة غير مقيدة فتمنى أن
يكون مثلها يسرح في فضاء الله دون إرهاق ولحقة شعوره الشاعر فدعا لها
بالصيانة والعصمة ولأفراخها بالماء والظل فإن أفراخه لا يجدن منهما شيئاً !
ونفّس عن صدره بهذه الزفرة ذات اللهب الحبيس .

بكيْتُ إلى سرب القطا إذ مرَّرن بي
ولم يكَّ واللهُ المُعيدُ حسادةً
فأسرح لا شملي صريع ولا الحشا
هنيئاً لها إن لم يفرقُ جميعها
وأن لم تبتْ مثلي تطير قلوبها
لنفسى إلى لقيما الحمام تشوفُ
ألا عصم الله القطا في فراخها
سوارح لا سجنٌ يعوق ولا كبل
ولكنْ حنيناً إن شكلي لها شكل
وجيع ولا عيناى يبكيهما ثكل
ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهل
إذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل
سواى يحب العيش في ساقه حجل
فإن فراخي خانها الماء والظل

هذه التجربة الصادقة لا يمكن أن تكون تقليداً لأي فراس ! وإنما هي شعور إنساني صادق يهتز به أديب حساس ، وهي بعدُ نموذج جيد لما نفتقده من أواصر التعاطف بين الإنسان والطائر في أدبنا العربي ! وأي تعاطف حيّ أبلغ من قول الملك الأسير :

ألا عصم الله القطا في فراخها
فإن فراخي خانها الماء والظل

وبعد فلقد طال تطوافنا حول أدب الطبيعة الحية في المشرق والأندلس ، وانتهى بنا المسير دون أن نجد بهما ما يصلح أن يكون نماءً طبيعياً لبذرة الشعر الجاهلي ذات التعاطف الإنساني الشفيق ! وسنبحث الآن عن أدب الطبيعة الصامتة في الأندلس لئرى مداه في الطرافة والتجديد .

قلنا في صدر هذا البحث أننا نتساءل عما إذا كان شعر الطبيعة في الأدب الأندلسي موازياً لأخيه المشرقي في القيمة الفنية لم يكد يزيد عنه شيئاً أم أنه احتداه بدءاً ثم استطاع أن يسير في طريق التقدم الابتكاري خطوات وثيدة وإذا فعل ذلك فألى أي مدى سار ؟ وهذا السؤال لا يزال يتطلب الإجابة فيما يختص بالطبيعة الصامتة ! وهي المتبادرة إلى الذهن بداهة حين نتحدث عن شعر الطبيعة بالأندلس ! فبماذا نجيب . . .

إذا كان الأدب الأندلسي بعامة قد أخذ يستقل ويتميز ، ويدعم كيانه الذاتي منذ عهد الخلافة في زمن الناصر ، فإننا نجعل من أدب هذه الفترة

وما تلاها من العصور ، مجال الحديث عن شعر الطبيعة ، فإذا أردنا أن نلتفت إلى المشرق إذ ذاك فإننا نجد أيضاً قد استقل بأخصب عهود الطبيعة في تراثه ! إذ أن البلاط الحمداني بجلب قد جمع حوله من عشاق الطبيعة نفراً غير قليل ! وكأني بهؤلاء ومن جاء من بعدهم رأوا المتنبي يسد عليهم منافذ القول في المديح ، وينهض صرحه الشامخ أمام سيف الدولة فيكاد يحجب عنه سواه على كثرتهم الزائدة وجهدهم الحفيل ! وإذ ذاك وجدوا في الطبيعة عزاء وسلوى . فانطلقوا يصفون هذه البيئة الترفة الفاخرة ! وقد برع منهم من حمل اللواء ، وتقدم المركب ، وهو شاعر الطبيعة الوصاف أبو بكر الصنوبري فتابعه وزاحمه في اتجاهه السري الرفاء وكشاجم والخالديان والوأواء الدمشقي والزاهي والناشيء وعبد الحسن الصوري وأبو الفرج الببغاء وابناً ورُقفاً والحجاز البلدي والواساني وغيرهم ممن تحدثت عنهم يتيمة الدهر بإفاضة وإعجاب ! وكان الشعر الحمداني في هذا العصر الذهبي يسطر صفحة ذهبية للأدب العربي في القرن الرابع ، ويحدث تأثيره المدوي في شتى الأمصار العربية ! إذ كانت دواوين شعراء بني حمدان تصل إلى الأندلس ومصر وفارس وبغداد فيعكف عليها الوراقون نسخاً ، لتباع بمغريات الأثمان وطالما عقدت مجالس الأدب ببغداد في دار الوزير المهلي ومحافل الشعر بأصبهان في حضرة الصاحب بن عباد وكلها تدور حول شعر بني حمدان .

تقدم الصنوبري شعراء عصره في الهيام بمحاسن الطبيعة ، فأكثر الحديث عنها إكثاراً لا يقف عند حد ، حتى لقد قسم القول فيها إلى أبواب متميزة ، فباب للروضيات يتحدث عن سحر الحدائق والبساتين وباب للزهريات يصف الأبحوان والسوسن والشفيق والبهار والأذريون والزرّجس والخَيْرِيّ والنسرين والورد والنيلوفر والياسمين ويقدم المناظرات بين نوع ونوع ويفضل صنفاً على صنف ، وقد تقدم ابن الرومي إلى نحو ضئيل من ذلك ، ولكنه على يد الصنوبري وأضرابه قد أصبح بدعة العصر وأسلوب الوصف ! حتى عرف بعض الشعراء بالتعصب لنوع معين من الأزهار ، يبديء في أمداحه ويعيد كما عرف الوأواء بحب الزرجس والسري الرفاء

بحب الورد الأحمر واشتهر أبو بكر الخالدي بوصف شقائق النعمان !
هذا في الزهريات أما الأثمار فما أكثر الحديث عن النارج والليمون والبطيخ
والتين الأسود والتفاح والشمام وأما المائيات فما أكثر الحديث عن السحاب
والأنهار والسواقي والبرك والأسماك والثلجيات وأما الفصول فقد ذخر
الشعر في الربيع والصيف والشتاء والحريف ! هذه الأشعار الطبيعية جميعها
قد انتقلت إلى الأندلس وأحدثت أثرها النفاذ !

ونحن حين نقرأ ما لدينا من هذه الأشعار ، نجدها تتشابه وتتقارب فهي
تقوم على الصورة الحسية ! ويقل بها ما سميناه بالتعاطف الوجداني ولا تكاد
نجد فروقاً واضحة بين شاعر وشاعر ! فالصنوبري على زعامته قريب
مختلط بالسري الرفاء وكشاجم في منحاه وطبيعة جوه وتفيد انطلاقه !
ولا أدري لماذا أضيقت بأشعار الطبيعة الوصفية التي ألمس فيها إصرار
الشعراء على أن تكون أشعارهم نماذج للتطبيقات البلاغية والبديعية ! فهي
معرض حسن للتشبيه والاستعارة والطباق والجناس ! ولكن الصورة
الناهضة خلف الاستعارة والتشبيه باهتة الملامح ، ضائعة القسمات !

لقد قال الصنوبري كثيراً في الأنهار ، واختص نهر (قويق) بأكثر من
عشر قصائد ، ولكن إحداها لا تبلغ من نفسي على كثرة صورها الحسية
مبلغ البيت الأخير من قوله في هذا النهر وكان يعمر بالماء شتاء ، ويجف صيفاً
فتصيح فيه الضفادع :

قويقٌ إذا شمَّ ريحَ الشتاء أظهرَ تيهًا وكبراً عجيباً
وإن أقبل الصيف أبصرته ذليلاً حقيراً حزيناً كئيباً
إذا ما الضفادعُ ناديننه قويقٌ قويقٌ أبى أن يجيباً

وأبو العباس النامي أطال القول في السحاب وجرى مع شعراء بني
حمدان في أوصاف التدفق والانصباب وبكاء المزن وضحك الرياض !
ولكنه أبدع حقاً حين قال :

خليليّ هلّ للمزن مقلة عاشق أم النار في أحشائها وهي لا تدري

أشارت إلى أرض العراق فأصبحت وكاللؤلؤ المبتول أدمعها تجري
سحاب حكّت ثكلى أصيبت بواحد فعاجت له نحو الرياض على قبر
فوشى بلا رقم ونقش بلا يد ودمع بلا عين وضحك بلا ثغسر

أبداع لأنه تعدى الصورة البصرية إلى استكناه السحابة ، ومحاوله
استبطانها ، وخلق الحياة عليها ! وهذا جيد طريف .

انتقلت هذه الثروة من أدب الطبيعة إلى الأندلس ! وأدباء الأندلس
مولعون بعدُ بكل شرقي شائق ! وطبيعة بلادهم الزاهرة الناضرة مما يوجب
الاحتفاء بهذا اللون واقتفائه ! بل إن ابن خفاجة وهو أكبر شعراء الطبيعة
بالأندلس كان يسمى بالصنوبري تشبيهاً له بأبي بكر ! وكان فخوراً
بذلك ، وقد عكف على ديوانه واقتفاه ! ولا نريد أن نقول أن الشاعر
الأندلسي كان مقلداً يقتصر على المحاكاة ولكن نريد أن نقول أنه وجد
عند الصنوبري ما ليس لدى غيره مما يوافق مزاجه ، ويروي أحاسيسه
فتشرب روحه ثم انطلق إلى أجواء الشعر ليوقع على قيثار جديد !

تقرأ شعر الطبيعة في الأندلس فتأخذ عينك روضة فسيحة ذات أزهار
متشابهة وثمار متقاربة ! وأغصان مورقة لا تطالعك غالباً بما لا تعهد ، ولكنها
تنقل إليك صورة تعرفها ومع ذلك تهش لها وتقف عندها وترحب بها !
وبين هذه المشتبهات المتفقات ترى على أبعاد متفاوتة شيئاً طريفاً كأنك تراه
لأول مرة ، فتسرع خفيفاً إليه وتطيل عنده الوقوف !

تري زهراً متشابهاً يعجبك بروائه ، وتراه لا يقل عن نظائره ، فهو
مما تعهد وتعرف ! ويمثله قول ابن خفاجة :

وكمامة صدر الصباح قناعها عن صفحة ندى من الأزهار
في أبطح رضعت ثغور أقاحه أخلاف كل غمامة مدرار
نشرت بحجر الأرض فيه يد الصبا درر الندى ودراهم النوار
فحللت حيث الماء صفحة ضاحك جذل وحيث الشط بدء عذار

والريح تنفض بكرةً لمم الربى والطل ينضح أوجه الأشجار
متقسم الأحاظ بين محاسن من ردف رابية وخصر قرار
وأراكة سجع الهديل بفرعها والصبح يسفر عن جبين نهار
هزت له أعطافها ولر بما خلعت عليه ملاءة النوار

الصور كثيرة ، والنظم قوي متماسك ، ولكن الشاعر صانع ماهر لم يعطك من عنده الكثير ، وإنما قدم لك نموذجاً متقارباً مما نعلم ! ولنبعد عنه قليلاً إلى ابن سهل لنسمعه يقول :

انظر إلى لون الأصيل كأنه لا شك لون مودع لفراق
والشمس تنظر نحوه مصفرة قد خمشت خدأً من الإشفاق
لاقت بحمرتها الخليج فألفا خجل الصبا ومدامع العشاق

فلون الأصيل يوحي بأنه مفارق مودع ! والشمس عاشقة حزينة تحمش خدها من الإشفاق ثم تسقط في الماء لترى في شفقتها الدامي خجل الصبا بين مدامع العاشقين ! تصوير يقرب من الحياة قليلاً ، ويكاد ينفخ الروح فيما يصف ! وأنه لجيد رائع لو لم يكن سبقه ابن الرومي بقوله المبدع :

وقد رنقت شمس الأصيل ونفضت على الأفق الغربي ورساً مززعجاً
وودعت الدنيا لتقضي نحبها وشول باقي عمرها فتشعشعها
ولاحظت النوار وهي مريضة وقد وضعت خدأً إلى الأرض أضرعا
كما لاحظت عواده عين مدنف توجع من أوصابه ما توجعها
وظلت عيون الروض تخضل بالندى كما أغرورقت عين الشجي لتدمعا
يراعينها صوراً إليها روانيا ويلحظن ألقاظاً من الشجو خشعاً
ويبن إغضاء الفراق عليهم كأنهما خلا صفاء تودعا !

وإذا كان فيما تقدم لابن خفاجة وابن سهل ما يذكر بالمتعارف المعهود، فلنبتعد قليلاً عما نعرف ، ولنمض وثيداً إلى الطريف الجديد !

نرى الآن في الآداب العالية الرفيعة أن النسب العاطفي لا يكاد يذكر إلا من خلال الطبيعة لأنها الإطار البديع لصور اللقاء والسمر ! فعلى ضفاف الأنهار ، وتحت مشبك الأغصان ! وفي الليلة القمرء ومع النسيم الهادي الوئيد يجلو تناجي الأرواح وتهامس الأفئدة وامتزاج النفوس ! ومظاهر الطبيعة هي البريد الأمين الذي ينقل عن المحب لواعجه وأحاسيسه فللرشاش المتقاطر ، وللشفق الوردي ! والدر المتجمد في أعالي الغصون ، ولنفحات الزهور واختلاج المياه رموز عاطفية تكشف عن معاني حبيسة في نفوس العشاق ! وما أفصحها من رموز تشافه الاحساس وتنقل المعاني دون حروف وكلمات ! ! وقد وجدنا لدى ابن زيدون وهو العاطفي الصادق اللوعة الحياش الحنين ، قصيدة في وصف الطبيعة من خلال نوازعه وأشجانه تقرب كثيراً من الأدب العالمي في عصرنا الراهن وما سبقه من عهود الابتداء والتجديد ! وهي خطوةٌ بديعة في أدب الطبيعة العربي ولعشاق الأدب الأندلسي أن يعتبروها مظهرًا من مظاهر التجديد العاطفي المصور وقد اعتبرها بعض النقاد دليلَ حيوية ابن زيدون ومظهر ارتقائه الفكري بين معاصريه فهو يقول موجهاً حديثه لولادة .

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً
وللنسيم اعتلالٌ في أصائله
والروض عن مائه الفضيّ مبتسم
يوم كأيام لذات لنا انصرفت
نلهو بما يستميل العين من زهر
كأن أعينه إذ عاينت أرقبي
ورد تألق في ضاحي منابتـه
سرى يُنافحه نيلوفر عبـق
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا
لا سكن الله قلباً عن ذكر كـو

والأفق طلق ومرعى الأرض قد راقا
كأنه رق لي فاعتل إشفاقاً
كما شققت عن اللبات أطواقاً
بتنا لها حين نام الدهر سراقاً
جال الندى فيه حتى مال أعناقاً
بكت لما بي فجال الدمع رراقاً
فازداد منه الضحى في العين إشراقاً
وسنان نبه منه الصبح أحداقاً
إليك لم يعد عنها الصدر أن ضاقا
فلم يطر بجناح الشوق خفاقاً

لو شاء حملي نسيمُ الصبح حين سرى و افاكو بفتى أضناه ما لاقا
لو كان وفَى المني في جمعنا بكمو لكان من أكرم الأيام أخلاقاً
كان التجاري بمحض الود من زمن ميدان أنسٍ جرينا فيه أطلاقاً
فالآن أحمدُ ما كنا لعهدكمو سلوتُم وبقينا نحن عشاقا !

فهذه الصرخة اللهيفة قد ارتفعت على جناح الطبيعة إلى أفق وضيء !
إذ يتضاءل جوارها أكثر ما نعهد من الوصف البصري الذي يقف عند
الجزئيات دون أن يفرغها في روح كلي عام ! وهي شبيهة بما نجده لدى شيلي
وتينسون وودلر من كبار شعراء الانجليز بل إنها لتذكرنا بمثل قول شلي : « إنَّ
رجع الألحان بعد خفوت الصوت يبقى مردداً في الأفئدة . ولنشر البنفسج
بعد موته طيبٌ في الأنوف ، وأوراقُ الورد بعد ذبولها تنشرُ على فراش
الحبيب ، وهكذا ذكرياتك تظل بعد ذهابك ماثلة ! ! » تماماً والله كما
خلدت ذكريات ولادة في الزهراء ينفح بها النسيم في الروض المبتسم عن
مائه الفضي ويعبر عنها الندى الجائل في أحداق الزهر حتى مالت منه الأعناق !
والورد الأبيض المتفتح في الضحى تفتحاً زاد ضوء النهار إشراقاً أي أشراق !

ولا أدري لماذا تذكرني هذه القصيدة الفريدة بأخت لها قالها ابن
خفاجة شاعر الطبيعة بالأندلس والقصيدة تان ليستا في موضوعٍ واحد حتى
يجوز لي أن أعقد الشبه بينهما بهذه السهولة ! ولكن اختلاف الموضوع لم يمنع
اتفاق الاطار ، والإطار هاهنا هو الطبيعة المفتان ! فقد نزل ابن خفاجة
أيكةً فناءً فذكرته عهده بالأنس مع حبيبة فقيدة ودعت الحياة ! وقد
هاجت الذكرى شجونه فبكى ! وجعل النسيم يراوحه فيتشقه متحسراً ،
ولكنه لا يجد العبق الذي كان يعهده مع حبيبته ! وقطع الشاعر يومه
بالأيكة ، فلما همت الشمس بالمغيب وعلت وجه النهار كآبة كابية تذكر
مغيب حبيبته بمغيب الشمس فسارع إلى قبرها باكياً ! بالله إن الطبيعة هنا
ذات روح غير معهود في أكثر ما نظم شاعرها الكبير ! فالأيكة والريح
والأرج ومغيب الشمس ! كل ذلك ممتزجٌ بعاطفة أخرى تهز كيان الشاعر

وتقوده قسراً إلى الظلام ، وهناك يصرخ صرخته اليائسة ويتساءل عن اللقاء
الموعود متى وأين بعد أن صدعت الشمل أيدي الحوادث ! ! إنه يقول :
ألا أذكرتني العهد بالأنس أيكه فأذكرتها نوح الحمام المطوق
وأكبيت أبكي بين وجد أناخ بي حديث وعهد للشبية مخلق
وأنشق أنفاس الرياح تعلقاً فأعدم فيها طيب ذاك التنشق
ولما علت وجه النهار كآبة ودارت به للشمس نظرة مشفق
عظفت على الأجدات أجھش تارة وألم طوراً ترها في تشوق
وقلت لمغفٍ لا يهب من الكرى وقد بت من وجدٍ بليلٍ المؤرق
لقد صدعت أيدي الحوادث شملنا فهل من تلاقٍ بعد هذا التفرق
وإن تلك للخلين ثم التقاءً فياليت شعري أين أو كيف نلتقي

بعض الناس لا يعتبر هذه القطعة الفذة من شعر الطبيعة ، وربما فضل
عليها قصيدة كقصيدة ابن خفاجة :

لله نهرٌ سال في البطحاء أشهى وروداً من لمى الحسناء !
متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكنفه مجرّ سماء

ولكن الذين يعلمون أن الطبيعة ملهم مؤثر ! ومذكر يقظ بشجون
الأمس ، وسوالف العهد يعرفون كم كان الشاعر موفقاً في استلهاها !
وأظنه نظم هذه الأبيات في سهولة متيسرة حيث لم تجبره على انتزاع الصور
البيانية من تشبيه واستعارة ليثقل بها حديثه - كعهدنا به - وإنما انطلق مع
طبعه في غفوة من سيطرة التصوير الحسي لينقل عن خاطره دون تكلف !
لقد كان ابن خفاجة مغرماً بالطبيعة حقاً ! ولكنه مع ذلك كان مغرماً
بأن يقال أنه شاعر الطبيعة الأندلسي ! فكان يكثر متعمداً عن شعر الطبيعة
دون موجب ملح ! مات بعض أصدقائه فرثاه بقوله :

في كل نادٍ منك روضٌ ثناء وبكل عين منك جدولٌ ماء
ولكل شخصٍ هزة الغصنِ الندي غب البكاء ورنه المكاء

وهذا تليفيقٌ ذهني مفتعل ما كان أغنى ابن خفاجة عن نسجه
لو لم يعلق بنفسه أذه شاعر الطبيعة فلا بد أن يتحدث عنها في
الثناء ! مع أن عاشق الطبيعة يتحدث عنها عفواً دون سبق الاصرار !
يتحدث عنها في كل غرضٍ من نسيبٍ وورثاءٍ ووصفٍ وعتابٍ وحكمةٍ
فترى روحها تملأ الأبيات ، وتطالعك شفافة رفاقةً من خلال الفكر
والتصاوير ! أما أن يتعمدها الشاعر تعمداً في الثناء فهذا ما يوحي
أنها الأصل وأن الميت لا يساوي عند صاحبه شيئاً ! ولكن المجال
جمالٌ إظهار عبقرية شعرية يتوق بن خفاجة أن يتحدث بها الناس ! !
كانت جريدة الأهرام تنشر أثناء الحرب العالمية الثانية وما قبلها بقليل
مقطوعات في وصف الطبيعة بالريف المصري بامضاء شاعر البراري
وهو - رحمه الله - صديقٍ مخلص ، وقد زُرته مصادفةً يوم
وفاة جبرائيل تقلا صاحب الأهرام ، فقال لي إنه سيرثي الفقيد
ولكن بأسلوبه الخاص ! فاستفسرت عن مراده فقال لقد عهدني قراء
الأهرام أكتب عن الورد والياسمين والنهر فلا بد أن يكون رثائي
كذلك ! وسترى براعتي ! ! هكذا قال ، ثم نشرت الأهرام بعد ذلك
من رثائه ما لا يخرج عن قوله أن الندى قد انقطع فمال الياسمينُ إلى
الأرض ليعزيها ! ولو كانت الأبيات لديّ لذكرتها ! ولكني تذكرتها
حين قرأت أبيات ابن خفاجة في رثاء صديقه ! ! لأن المنزع واحد بين
الرجلين على اختلاف الزمان والمكان !

وسننصف ابن خفاجة إنصافاً يرتفعُ به عن شعراء الطبيعة لعهدده حين
نذكر حديثه عن القمر والجبل ! فقد كان إذ ذاك شاعر الطبيعة بحق ! إنه
لم ينظرُ إلى القمرِ في اكتماله فيراه قرصاً من لجين ! ولم يتذكر طفولته وهو
هلال بعدُ فيجدَه زورقاً من فضةٍ قد أثقلته حمولةً من عنبر ! ولم ير
شحوبه قبلَ المحاق فيراه حسناء مريضة طال عليها الهجر كما نسمعُ من بعض
الشعراء ولكنه يصيخ إلى نجواه ويتمنى أن يحادثه في سمائه عن شجونهِ وآلامهِ !
ويقول أنه لو تحدث لحاز الجمالين منْ خُبْرٍ ومنْ خبرٍ وأن سكّات فإنه

صاحب الصمت البليغ الواعظ وإن بكى فعن شجو يفجر عين الماء بالحجر !
استلهاً بديع حقاً ومحاولة شاعريّة لفهم هذا الكوكب المتألق ! واستبطن
عميق لمشاعره ، ونبش حصيف عن خوافيه يفصح عنه قول الشاعر :

لقد أصخّنت إلى نجواك من قمرٍ
لا أجتلي ملحاً حتى أعي ملحاً
وقد ملأت سواد العين من وضوح
فلو جمعت إلى حسن محاوره
وإن صمت ففي مرآل لي عظة
تمرّ من ناقصٍ طوراً ومكتملٍ
والناس من معرض يلهو وملتفتٍ
تلهو بساحات أقوام تحدّثنا
فإن بكيتُ وقد يبكي الخليل فعن
وبت أدلج بين الوعي والنظر
عدلاً من الحكم بين السمع والبصر
فقرط السمع قرط الأنس من سمر
حزّت الجمالين من خبر ومن خبر
قد أفصحت لي عنها ألسن الصبر
طوراً ومن مرتقٍ طوراً ومنحدِر
يرعى ومن ذاهلٍ ينسى ومدكّر
وقد قضوا فمضوا آناً على الأثر
شجو يفجر عين الماء في الحجر !

هذه نفثة شاعر طال عهده ، بالطبيعة ومارس القول في أفانينها
المختلفة مقلداً تارة ومبتكراً تارة أخرى حتى استطاع بعد لأي أن ينفذ إلى
اللباب من جوهر الأشياء وأن يرى في المظاهر الخارجية دلائل سافرة
عما يستكن تحتها من معان ورموز !! وربما كان ابن خفاجة على
استعداد أن يبدع في هذا المجال لو رأى من ناقدٍ عصره من يشدّ على
يديه ويهنته بمنهجه الحديد ! ولكن طبيعة الجو الأدبي إذ ذاك لم تكن تسمح
بوجود هذا الناقد الحصيف ، على أن بواعث الاستبطن كانت لدى الشاعر
في وقت ما من أوقات حياته أقوى وأعمق من أن يتشاغل عنها بالأوصاف
الحسية دون تأمل واستشفاف ، فقد وقف ابن خفاجة أمام الجبل مرتين !
فكشّف له في الأولى عن بعض سره حين قال عنه في إيجاز :

وصهوة عزم قد تمطيت والدجى
وأشرف طمّاح الذؤابة شامخ
مكبّ كأن الصبح في صدره سر
تمنطق بالجوزاء ليلاً له خصر

وقورٌ على مر الليالي كأنما
تمهد منه كل ركنٍ ركانةً
ولاذَ به نسرُ السماء كأنما
فلم أدر من صمت له وسكينةً
يصيخ إلى نجوً وفي أذنه وقر
فقطب إطراقاً وقد ضحك البدر
يحن إلى وكر به ذلك النسر
أكبره سنٍ وقرت منه أم كبر

أما الوقفة الثانية فلا نرى من شعراء العربية إلى الآن من حاول أن يأتي بإبداعها البليغ ، فقد استطاع ابن خفاجة أن يتسمع صوت الجبل عن رهافة أذن ولطافة حس ، فحدثه الطود باكياً متأثراً ، ذاكرةً تاريخه الحافل منذ كان ملجأً لقاتلٍ أو موطناً لناسك عابد ، وقد بات فيه المدلجون بالليل واستظل بجنابه المقيلون بالنهار ! فالفهم وألفوه واستطاب مقامهم واستطابوه فما خفق أيكه الآن غير أضلعٍ راجفةٍ وما نوح حوائمه غير صرخةٍ نادبٍ يبكي فراق أحبته فيلى متى يبقى ليستقبل حبيباً ثم يودعه بعد حين ؟ وإلى متى يبقى ليرعى الكواكب فمن طالع أخرى الليالي وغارب ! ! لقد نقل الشاعر حديث الجبل فسحر الناس وأدهشهم حين قال :

وأرعن طماح الذؤابة بساذخٍ
يسب مهب الريح عن كل وجهة
وقور على ظهر الفلاة كأنه
يلوث عليه الغيم سود عمائم
أصخت إليه وهو أحرص صامت
وقال ألاكم كنت ملجأ قاتل
وكم مرّ بي من مدالج ومؤوب
ولاطم من نكب الرياح معاطفي
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى
فما خفق أيكي غير رجفة أضلعٍ
يطاول أعنان السماء بقارب
ويزحم ليلاً شهيه بالمناكب
طوال الليالي مفكر في العواقب
لها من وميض البرق حمر ذوائب
فحدثني ليل السرى بالعجائب
وموطن أوّاه تبتلّ تائب
وقال بظلي من مطى وراكب
وزاحم من خضر البحار غواربي
وطارت بهم ريح النوى والنوائب
ولا نوح ورقى غير صرخة نادب

وما غيظ السلوان دمعي وإنما
فحتى متى أرعى الكواكب ساهرا
فرحماك يا مولاي دعوة ضارع
فأسمعني من وعظه كل عبرة
فسلنى بما أبكى وسرى بما شجا
وقلت وقد نكبت عنه لطية

نزفت دموعي في فراق الصواحب
فمن طالع أخرى الليالي وغارب
يمد إلى نعماك راحة راغب
يترجمها عنه لسان التجارب
وكان على عهد السرى خير صاحب
سلام فإننا من مقيم وذاهب!

تعدّ هذه القصيدة ذروة اكتمال شعر الطبيعة في الأندلس ! وقد
بلغ التشخيص فيها مبلغاً لا نجده إلا عند كبار الشعراء في الشرق والغرب !
ولو ذهب جميع ما قال ابن خفاجة ، وبقيت وحدها لكانت معجزة
إبداعه ودليل تفوقه ! بل ربما ظننا أن جميع شعره من هذا الطراز ! وقد
وجد من يقول أن ابن خفاجة قد استلهم قول المجنون في جبل التوباد .

وأجهشت للتوباد حين رأيتُه
فقلت له قد كان حولك جيرة
فقال مضوا واستودعوني زمانهم
وكبر للرحمن حين رأني
وعهدي بذاك الصرم منذ زمان
ومن ذا الذي يبقى على الحدشان

وهذا يعيد لأن قول المجنون حطرة عابرة ، لو وقف عندها ابن خفاجة
ما بلغ هذا النفاذ ! أما قصيدة الجبل فنسق شعري متكامل ذو شعاب
وأفانين .

ولو كان المجنون - على سبيل الاحتمال - موحياً موجهها ، لكان
لابن خفاجة فضل "أثير أن يكون موضع هذا الإيحاء ، وقد عبرت
القرون خلف المجنون وتوالى عشرات الشعراء في العربية شرقاً ومغرباً
دون أن يبدع أحدهم في وصف الجبل ما أبدع ابن خفاجة ! ! فيأتي بهذا
البيان .

هل لنا أن نقول في ختام هذا البحث أن شعر الطبيعة بالأندلس قد
خطا نحو التجديد خطوة أولى مع ابن زيدون وخطوة ثانية مع ابن خفاجة
فأتحف الأدب العربي ببعض الطريف من الحديد ! !

بذرة الملاحم العربية في الأندلس

كنا إلى وقت قريب نقرأ ما رواه ابن عبد ربه في العقد الفريد وابن بسام في الذخيرة والمقري في النسخ من الأراجيز التاريخية الطويلة فنمر بها مرّ الكرام ، ولا نجد لها تستأهل وقفات جادة للبحث والتحليل ، حتى جد من الآراء العلمية حول هذه الأراجيز ، ما يجعلنا نقف عندها فنطيل !

لقد استعر الخلاف بين علماء الأسبان وعلماء الفرنسيين حول أصل الملاحم الشعرية التي ظهرت في فرنسا خلال القرن الثاني عشر ، وفي أسبانيا بعد ذلك بقليل جداً من الزمن ، وحاول كل فريق أن يجعل أمته ذات السبق الظاهر في الابتكار ، وكان أكثر الباحثين يميلون إذ ذاك إلى جانب فرنسا ، إذ أن سبقها الزمني بمنزلة لامعة في الوضوح فلا محل للقول بأن أسبانيا قد تقدمتها في هذا الميدان ، وانتهت المسألة عند ذلك ، حتى ظهر الباحث الأسباني الهادف « خليان ريبير » فأثبت في أبحاثه الطويلة أن أدب الملاحم كان يملأ أسبانيا المسلمة ، وأن فريقاً من أدباء الأندلس في عهد الإسلام قد وضعوا أساس هذا النوع من الأدب المتنازع عليه ، فإليهم - وبالتالي إلى إسبانيا - يرجع فضل السبق في الابتكار .

وقد قام الدكتور حسين مؤنس بنقل آراء هذه البعثة إلى العربية (١) ، مع التعقيب عليها تعقيباً وافياً شافياً بما يرضي نهم الذين لا يعرفون الإسبانية ، ويتشوقون في رغبة مستطلعة أن يلموا بأقوال هذا المستشرق الجليل ، وكان مما قاله الدكتور مؤنس :

« لاحظ ريبير أن المسلمين في الأندلس عرفوا الشعر القصصي وشعر الملاحم في زمن مبكر جداً ، فقد ذكرت المراجع مثلاً أن تمام بن علقمة

(١) تراجع مجلة الثقافة السنة الثانية سنة ١٩٤٦ فيها سلسلة بحوث الدكتور حسين مؤنس المشار إليها .

من كبار رجال البلاط الأموي في عهد عبد الرحمن الداخل ، وابنه هشام كتب ملحمة طويلة وصف فيها فتح المسلمين للأندلس وقدم عبد الرحمن الداخل ، وتأسيس الإمارة الأموية في قرطبة كذلك أنشأ ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد قصيدة مماثلة لهذه في أعمال بعض الأمراء الآخرين ، ونحن وإن كنا لم نعثر على شيء من هذه الملاحم — لعله يريد على جميع هذه الملاحم لأن بعضها موجود فعلا — إلا أن تواتر الإشارة إليها في المراجع يدل على أن المسلمين عرفوا هذا النوع من الشعر ومارسوه .

وقد فهم الأستاذ ريبيرا مدلول الملاحم على معنى واسع ، فلم يقصرها على النمط العربي الموزون ، ولكنه التمسها في الأساطير النثرية التي تتعلق بالفتح العربي للأندلس ، وفي الأجزاء الشعبية التي كانت تتردد باللغة الدارجة بين مسلمي الأندلس إذ ذاك وجعل من الأراجيز المنظومة والأساطير التاريخية والأجزاء الشعبية وحدة مرتبطة بترتيب البناء الملحمي حين تعرض جوانب من البطولة والفروسية ، وتبرز عناصر المفاجأة والحوار في المعارك الحربية ، وتحدث عن الاحتيال والخديعة حين يمهدان للنصر السابق السريع ، وقد رجع الأستاذ فيما رجع إلى تاريخ ابن القوطية الشهير فنقل عنه كثيراً — مما يتضمنه من غريب الحوار عن الفتح الإسلامي إذ حفل كلام هذا المؤرخ المسلم العقيدة ، القوطي الأصل بما لا يكاد يوجد عند غيره من المسلمين ، فإذا كانت أكثر المراجع الإسلامية قد تحدثت عن معاملة الفاتحين لأسرة غيطشة ومروعة العرب وسماحتهم في استرضاء القلوب مما يتفق وروح البطل المترفع كما تصوره الملاحم فإن ابن القوطية يتفرد بغرائب تنحو هذا النحو كموقف عبد الرحمن بن معاوية من أرطباس ، وقصة أرزاق بن ختيل صاحب وادي الحجارة مع موسى بن موسى وأمثال هذه الأساطير الشعبية ! فإنها في رأي ريبيرا شعر قصصي ملحمي — أيّاً كانت لغته — صدرت عن شعب أندلسي شديد التعلق بأبطاله ، ولعل من المستحسن أن يرجع القاريء إلى بحوث الدكتور حسين مؤنس في هذا الموضوع وقد تابعها سلسلة بمجلة الثقافة سنة ١٩٤٦ في ثمانية أعداد حافلة بالجديد المفيد !

والذي يهمننا من ذلك كله هو بذرة الملاحم الشعرية الواضحة في التراث الأندلسي ، وكيف كان أدبنا العربي صاحب هذه البذرة التي انتقلت منه إلى غيره فأقامت بناء عالمياً جديداً في دنيا الأدب الدولي كما يجزم ريبيرا وتلاميذه الكثيرون !

يستكثر بعض الباحثين أن يكون في الأدب العربي ماحمة ما ، وأذهانهم تسبق بلا ريب حين تطن في أذهانهم كلمة ماحمة إلى إلياذة هوميروس ! وكأنهم يقولون في قرارة نفوسهم إما أن تكون الملاحمة كملاحم اليونان وإلا فلا ، وهم يشترطون فيها بناء على هذا التصور : أن تشتمل على حوادث خارجة عن المؤلف ، بحيث يكون أبطالها مردة أو أنصاف آلهة ، وقد يكونون آلهة أحياناً يتقاسمون المعركة ، وينصرون فريقاً على فريق وقد يكونون شخصيات خرافية لا وجود لها على الإطلاق ، فإذا تواضعت الملاحمة فهي مزيج بين أبطال حقيقيين وآخرين من دنيا الخيال ، وهذا التصور بعيد عن الفكر الإسلامي الذي لا يعترف بغير إله واحد ليس كمثل شيء .

وهذا الشرط الذي أوحته أساطير اليونان ، يقف حائلاً دون الاعتراف بملاحم كثيرة ، فالكوميديا المقدسة ملحمة منظومة الشاعر الإيطالي الطائر الصيت دانتي تصف الجحيم وسكانه وما به من أهوال تجعل الولدان شيباً ، وتعرج على الأعراف فتحدد مكان التطهير والاستنابة بين الجحيم والفردوس ، وأبطالها أناس واقعيون يحفظ التاريخ أخبارهم ، ويضعهم دانتي موضعهم اللائق في اعتقاده ، ومنهم قائده الشاعر الروماني فرجيل ، وحبيبته الحسنة بياتريس الفلورنسية التي ألهمته أجمل أناشيد الصباية بل أوحت له بهذا الأثر الفني الجميل ، والكوميديا بهذا الوضع تبتعد كثيراً عن ملحمة هوميروس !

وكذلك يقال في ملاحم (أولارندو الغاضب) للشاعر الإيطالي أريوستو ، والفردوس المفقود للشاعر الإنجليزي جون ملتن ، فالأولى

تصف المعارك التي دارت بين المسيحيين والوثنيين إذ تتحدث عن انتشار المسيحية وازدهارها ، وطابعها ديني كطابع داني في الكوميديا الإلهية ، والثانية ملحمة تصف نشأة العالم وتتحدث عن خروج آدم وحواء من الجنة مستقاةً مصادرها من الكتاب المقدس مع إضافات هامة تمخض عنها إحساس الشاعر الكبير ! فإذا جاز لنا أن نعد روائع داني وأريستو وملتن من الملاحم وهي كذلك فعلا باعتراف الجمهرة من الناقدین فقد ابتعدنا كثيراً عن شرط الخوارق المعجزة للآلهة وأنصاف الآلهة ، وأمکننا أن نطلق الملحمة على كل حادثة عظيمة تدور حول بطل عظیم أو عدة أبطال يجمعهم خيال الشاعر في نطاق محدود ، ويتصرف بهم كما يشاء ! ولو جاز لنا أن نقصر الملحمة على المتعارف منها لدى الإغريق فلماذا لا نفعل ذلك بالأجناس الأدبية الأخرى غير الملحمة ، فالخطبة مثلاً عند الإغريق ، ليست كالخطبة عند العرب في وجه ما من الوجوه ، إذ أن الخطب المروية عن اليونان قضائية سياسية تنتهي بأخذ الأصوات من السامعين ، وأصحاب هذه الأصوات من القضاة يصدرون أحكامها غير مسببة أو مشفوعة بحيثيات ما ، وإنما يتأثرون تأثراً وقتياً بما يسمعون فيصدرون أحكامهم ، وتكون كثرة الأصوات وقتلتها هي عامل التبرئة والإدانة دون نظر إلى حجاج أو برهان ! على ذلك مضت الخطب اليونانية التي انتقلت إلينا من أشباه بركليس ، وديموستيس ! ! وطبيعي أنها بذلك تختلف عن خطب الدنيا في المشرق والمغرب ! ونحن نعرف مدى اشتهار الخطابة لدى العرب في العهد الجاهلي وما يليه ! فلا مناسبة إطلاقاً بين قس وسحبان وأكثم بن صيفي ، وما تعرف من خطب اليونانيين ! وقد اعترف الكاتبون بخطب العرب دون أن يقيسوها بخطب اليونان ! فلماذا لا نعرف بملاحم العرب وندعي أنها تفترق عما تعرف من ملاحم هوميروس ! ! وكيف يضيق الأمر في عيوننا لدى الحديث عن الملاحم العربية بالذات ! !

إن من أخطر الأشياء أن نستند إلى أحكام عائمة لا تعتمد على برهان صحيح ، فمنذ قال الفيلسوف الفرنسي أرنست رينان إن العقل السامي عقل

جزئي لا يصدر عنه أثر كلي متشعب مستوعب ، منذ قال ذلك القول الجريء ونحن نرفض الاعتراف بملاحم العرب لأن الملحمة موضوع كلي لا يستطيعه عقل سامي ! ! وقد أثبتت الكشوف الحديثة بطريقة لا تقبل الشك فساد هذا الحكم المغرض ، وكان اكتشاف الملحمة السامية قبل الملاحم الإغريقية أول معول في هدم هذه الترهات ! ! ولن نبعد كثيراً عن موضوعنا حين نستطرد إلى ذلك فنقول :

من المسلم به تاريخياً أن سكان العراق وبابل وآشور وفينيقية نزحوا أصلاً من جزيرة العرب في موجات متدرجة حيث استوطنوا هذه الأقاليم فهم عرب ساميون ، وقد اكتشفت بعثات الآثار التي بدأت عملها سنة ١٨٤٣ بوساطة قنصل فرنسا بالموصل ! وما وليها من بعثات أخرى فرنسية وإنجليزية اكتشفت هذه البعثات مكتبة ملك آشور « بانيبال » وبها اثنا عشر لوحاً يتضمن ملحمة « جلجميش » الذائعة الصيت ! وهي ملحمة تتحدث عن بطل امتزجت فيه الألوهية بالإنسانية حتى غدا مرهوباً (١) مخيفاً يحارب العمالقة ويتوجه إلى جبال لبنان لينازل عملاقها الهائل (هومبايا) وتمضي الملحمة في جو أسطوري كجو هومير فتتحدث عن أعاصير الحب والحقد والوقية وتسرد الحوارق من الانتصارات على المردة والثور السماوي الذي بعثته الآلهة ليدمر المحصولات ويبيد الشجر ويبعث الحرائق ويقتل « جلجميش » ! والإفاضة في أدوار هذه الملحمة مما يتعذر في هذا النطاق ، ولكننا نشير إلى أنها ملحمة عربية سامية ! تبطل نظرية التفكير الجزئي التي هتف بها أرنست رينان وتلقفها من يرجفون بالعرب ولا يطيقون أن يروا لهم خيراً يذكر بحال ، وليت شعري ما يقول هؤلاء حين يسمعون أحكام النقاد تجزم بأن ملحمة جلجميش قد انتقلت مع حضارة بابل القديمة إلى آسيا الصغرى والجزر القريبة منها فعرفها اليونان ولعلها كانت مصدر إلهام لهوميروس لا سيما والتشابه واضح بين الملحمتين يتطلب من يخصه بالتحليل !

(١) هكذا كانوا يعتقدون في أوهمهم .

إن الملاحم تنشأ دائماً في عهود الطفولة العقلية لدى الأمم ، إذ تحاول الشعوب الفطرية في سداجتها البدائية أن تحلل ما تعجز عن تعليله من ظواهر الكون فتلجأ إلى الخرافة ، ثم تسلسل هذه الخرافات حتى تكون قصصاً غريبة تكون فيما بعد ملاحم بطولية ! ! ولقد كان للعرب في الجاهلية ملاحمهم دون نزاع لأن أمة تسكن الصحراء وتتحدث عن الغول والعنقاء ، ويصف شعراؤها منازل الجن في أعماق الفلوات - كتأبط شرّاً وغيره - لا بد أن يكون لها ملاحم بطولية ، لا سيما والقارات القبلية متصلة لا تنقطع ، وأيام العرب الحربية لا تحصر ! ! وقد يسأل سائل لماذا لم نعثر على هذه الملاحم كما عثرنا على إلياذة هوميرو مثلاً ، وتعليل ذلك فيما أراه شخصياً وأكاد أعتقد أنه على جانب من الصواب أن انفكك الشعر اليوناني من القافية قد ساعد على ضم الأشعار بعضها إلى بعض حتى كوّنت جوانب كثيرة من الإلياذة ، وجاء هوميرو فوجد هذا التراث الكبير أمامه فنسقه وضم بعضه إلى بعض ، أما اعتماد الشعر الجاهلي على القافية والوزن فقد حال دون ضم هذه الأشعار إلى ملحمة واحدة ، فإذا كانت موقعة كوقعة داحس والغبراء أو ذي قار أو الذنائب فإن أكثر من شاعر قد قال في كل موقعة منها إذ قال ما شاء من بحره الخاص وقافيته الخاصة ، ومضى الزمان فنُسب كل قول إلى قائله ، دون أن تجمع أشعار المعركة في ملحمة خاصة إذ وقفت القافية والبحر معاً دون هذا الاندماج والالتحام ، ولا كذلك في الشعر اليوناني لأن الخلاص من هذين القيدين قد سهل للمتفرق أن يجتمع ويلتئم وبخاصة إذا قام به عبقرى جهير كهوميرو ! !

لنا أذن أن نلتمس بذور الملحمة العربية فيما تفرق من شعر الوقائع في الجاهلية والإسلام فإذا ما امتد بنا الزمن إلى العصر الأندلسي فإننا نجد تعديلاً جديداً يطرأ على ما يعرف بشعر الوقائع وهو ما نلمسه في الأراجيز التاريخية التي أشار إليها البحاثة المنصف « ريبيرا » والتي من أجلها اضطرننا مجتهدين أن نطوف طوفاناً سريعاً حول معنى الملحمة ، ومصدرها الأول في الشرق والغرب مما لا بد من الإلمام به في هذا السبيل ! !

لقد ذكر العلامة «ريبيرا» أن شاعراً كبيراً هو تمام بن علقمة قد أنشد أرجوزة تاريخية أندلسية ، والمصادر الأندلسية لا تعطينا شيئاً ذا بال عن هذا الشاعر ولا عن أرجوزته الملحمية ، وإنما لتذكر أنه توفي سنة ٢٨٢ هـ ، وهذا الموعد يوقعنا في تساؤل حائر ، لأن ابن المعتز الشاعر العباسي قد توفي سنة ٢٩٦ هـ أي بعد ما يقرب من ثلاثة عشر عاماً من وفاة تمام ، وكنا نعرف أن ابن المعتز هو أول من نظم الأراجيز التاريخية في الأدب العربي ولكن لدينا الآن ما يوجب أن تكون أرجوزة تمام سابقة له ! لأن ابن المعتز نظم أرجوزته في سيرة الخليفة العباسي المعتضد ، وذكر فيها وفاته مما يشعر أنها قيلت بعد موت الخليفة سنة ٢٨٩ ، وإذن فقد تأخرت أرجوزة ابن المعتز عن أرجوزة تمام لا محالة ، ولكن من يضمن لنا أن نجزم بانتقالها إلى الشرق ومحاكاة ابن المعتز لها ؟ يخيل إلي أننا لا نستطيع الجزم بذلك عن يقين ، فقد يكون ابن المعتز ممن قرأوا أرجوزة تمام ، وقد تكون أرجوزته في المعتضد من قبيل توارد الخواطر ، يدل على ذلك أن ابن المعتز كان كثير النظم في الأراجيز ذات القافية المزدوجة في غير باب التاريخ ، وهو ما لم يعهد لأندلسي قبله فربما امتد به إعجابه بالمعتضد وحسرتة عليه بعد وفاته إلى أن يخصه بأرجوزة سهلة التعبير عن جميع مواقفه ، حيث لا يتكلف لها تكلف قصائد الرثاء من احتفال بالقافية واهتمام بما برع فيه من غرائب التشبيهات ، ودقيق الأوصاف ! ولو أن أرجوزة تمام نقلت إلى الشرق واشتهرت اشتهاً جعل ابن المعتز يحاكيها لتناقلتها كتب المشاركة كلون جديد ، ولكنها سكنت عنها نهائياً ، ولولا إشارات مقتضبة في كتب الأندلس ما سمع بها العلامة الإسباني «ريبيرا» . . . فإذا كان ابن المعتز قد مرّن على نظم الأراجيز ذات القافية المزدوجة في غير باب التاريخ كقوله مثلاً يصف الرياض في منظومته ذم الصبوح :

ألا ترى البستان كيف نورا ونشر المنشور زهراً أصفرا
وضحك الورد إلى الشقائق واعتنق الورد اعتناق وامق
في روضة كحلل العروس وخرم كهامة الطاووس

وياسمين في ذري الأغصان
والسرور مثل قضب الزبرجد
على رياض وثرى ثري
والسوسن الأبيض منشور الحلل
وحلق البهار بين الآس
وجلنار كاحمرار الحد
منتظم كقطع العقيان
قد استمد العيش من ترب ند
وجداول كالمبرد المجلي
كقطن قد مسّه بعض البلل
جمجمة كهامة الشماس
أو مثل أعراف ديوك الهند

فإن ذلك سهل لنا القول إنه نظم أرجوزته في المعتضد بدءاً دون أن يتأثر بشاعر لا يعلم عنه مشرقياً - فيما نظن - شيئاً ! أما أرجوزته المعتضدية فسلسلة لم تثقل بمرهقات الصور والتشابه ، وسنقل هنا افتتاحها ليكون تمهيداً لحديثنا الآتي عن أرجوزة ابن عبد ربه ، لأن لدينا بعض ما يقال بصدد الشاعرين الكبيرين ، قال ابن المعتز في مطلع أرجوزته :

باسم الإله الملك الرحمن
الحمد لله على آلائه
أبدع خلقاً لم يكن فكأنه
وجعل الخاتم للنبيوة
الصادق المهذب المطهرا
مضى وأبقى لبني العباس
برغم كل حاسد يبغيه
هذا كتاب سير الإمام
أعنى أبا العباس خير الخلق
قام بأمر الملك لما ضاعا
ذي العز والقدرة والسلطان
أحمده والحمد من نعمائه
وأظهر الحجّة والبياننا
أحمد ذا الشفاعة المرجوة
صلى عليه ربنا فأكثرنا
ميراث ملك ثابت الأساس
يهدمه كأنه يبنيه
مهذباً من جواهر الكلام
للملك قول عالم بالحق
وكان نهبا للورى مشاعا

فأنت ترى هذا النظم شبيهاً بقول العلماء لا بإبداع الشعراء وهو إلى أن يلحق بمتون العلوم أقرب من أن ينتسب إلى جوهر الأدب اللباب ،

ونحن لا نظلم ابن المعتز بهذا الحكم فللشاعر تحليقاته السامقة في أجواء أخرى غير هذه الأرجوزة ، ولكننا نظلم ابن عبد ربه الشاعر الأندلسي ظلماً فادحاً حين نجري حكماً على أرجوزة ابن المعتز إلى أرجوزته الملحمية البديعة وهذا ما وقع فيه كثير من الكتاب .

فالدكتور أحمد هيكل - على حبه لابن عبد ربه - ومقاومة آراء من يغمضون عن قيمته الشعرية ، قد حكم على أرجوزته التاريخية حكماً قاسياً حين قال في كتابه (الأدب الأندلسي) (ص ٢٥٧) :

« وكما عرف ابن عبد ربه بالممحصّات عرف كذلك بأرجوزته في الحليفة عبد الرحمن الناصر ، تلك الأرجوزة التي مجد فيها الحليفة ووصف حروبه وغزواته ، والحق أن تلك الأرجوزة أشبه ما تكون بالمنظومات التاريخية ، فليس فيها من عناصر الشعر شيء ذو قيمة ومن الإنصاف للشاعر والشعر أن تعد في إنتاجه التاريخي لا في تراثه الفني ! » .

هذا حكم الدكتور هيكل ! ولكننا نقرأ أرجوزة ابن عبد ربه فنجدها رائدة في حقلها الملحمي ، لأنها لم تسلك مسلك ابن المعتز حين صبّ حقائق التاريخ على طريقة المتون ، بل كانت أناقته الشعرية تسايه مسايه واضحة ، وطبيعي أننا لا نطلب منه في عمل مبتدأ كهذا أو كاد أن يكون مبتدأ - أن يطير مع الخيال في أجوائه فيحمل أفكاره إلى مطارح عالية في جو من التصوير والإيحاء لأن ذلك لا يتيسر في فنّ ناشيء يجبو في مدارج الطفولة ، ولكننا نجد عنده بوادر الجودة حين نراه لا يغفل الوصف الدقيق ، ولا يعدو التصوير المونق ، فالملحمة أولاً في بطل واحد ذي معارك مختلفة ، وثانياً تميل إلى ناحية الشاعر أكثر من ناحية المؤرخ ، وهو ما تعذر على ابن المعتز مع تفوقه في دنيا الأدب بعامة ! فابن عبد ربه مثلاً يصف ازدحام الفتن قبل تولية الناصر فلا ينص على ذلك في حكم تقريره كمتون العلماء ولكنه يذكر كيف ضاقت الأرض بساكنيها وتخبّط الناس في عشواء مدلهمة ، وأخذتهم الصيحة حتى حرموا الرقاد ، وتفزعوا في أوقات الصلاة

وجلين أن يدهمهم داهم ! وكل ذلك شعر ينحو منحى العاطفة فيشيرها
كما يريد إذ يقول :

هذا على حين طغى النفاق واستفحل النكاث والمُراق
وضاقت الأرض على سكّانها وأذكت الحرب لظى نيرانها
ونحن في عشواء مدلهمة وظلمة ما مثلها من ظلمة
تأخذنا الصبيحة كل يوم فما تلد مقلة بنوم
وقد نصلي العيد بالنواظر مخافة من العدو الثائر
حتى أتانا الغوث من ضياء طبق بين الأرض والسماء
خليفة الله الذي اصطفاه على جميع الخلق واجتباها

وهو إذا تعرض لهزيمة الأعداء لم يقتضب اقتضاب ابن المعتز ، ولم يخل
بالوصف إخلال عبد الجبار زميله الملحمي - وسنعرض له - ولكنه شاعر
متأن متمهل يمر ببنايه على أوراق الورد فلا يتعجل ! وهو بعد في
معركة حامية تلهب بالنار وتعج بالدماء فالعجان - قائد الإفرنجة - خائفان
مذهوبان ، يفران إلى حديقة يظنّانها باب النجاة فتغدو حديقة الموت ،
يتحصنان بمقل معقل فيصبح معتقلا ، يستطعمان الماء فتأخذهما السيوف وتتساقط
الصخور ، ويمضي سيف الله ليقيم مأدبة حافلة ضيوفها الغربان والنسور
وكم ذبح بها من جزور :

تضافر الكفر مع الإلحاد واجتمعوا من سائر البلاد
فاضطربوا في سفح طود عال وصعقوا البغية القتال
فبادرت إليهم المقدمة سامية في خيلها المسومة
وردها متصل يرد يرده بحر عظيم الممد
فانهزم العجان في علاج ولبسوا ثوباً من العجاج
كلاهما ينظر حيناً خلفه فهو يرى في كل وجه حتفه
والبيض في آثارهم والسمر والقتل ماض فيهم والأسر

فلم يكن للناس من براح
فصادفوا الجمهور لما هزموا
فدخلوا حديقةً للموت
فيالها حديقةً ويالها
تحصنوا إذ عاينوا الأهوالا
وصخرة كانت عليهم صيلاً
تساقطوا يستطعمون الماء
فكم لسيف الله من جزور

وجاءت الرؤوس في الرماح
وعاينوا قوادهم تخرموا
إذ طمعوا في حصنها بالفوت
وافت بهم نفوسهم آجالها
بمعقل كان لهم عقالا
وانقلبوا منها إلى جهنمها
فأخرجت أرواحهم ظمءاء
في مآذب الغربان والنسور

لا جرم نجد في هذه الملحمة روح الشعر ! وإذا ألحقها ناقدٌ بالنظم ، فقد ظلم ، وإنا لنقرؤها فنرى بها من الوقفات الرائعة ما تجود به قريحة شاعر مليء ، فهو يتحدث عن انهزام قائد ! إفرنجي فيصف المعركة في دقة ثم يقف بخياله عند القائد المنهزم وقد قتل ونصب مصلوباً في مدينة مع نفرٍ من معاونيه إذ امتطى في صلبه مطيةً قائمة لا تبرح جامدة لا ترمح (١) ، يقف مباشراً للشمس والرياح يندب نفسه ويرثي بلواه ويحذر أصحابه من سوء مصيره إذ ورد موارد الخزي ونصب للناس مثال الفشل والتهور والخذلان ! كل ذلك يسوقه ابن عبد ربه فيقول في إبداع :

هو الذي قام مقام الضيغم
برأس جالوت النفاق والحسد
فهاكه من صحبة في عدة
قد امتطى مطية لا تبرح
مطية إن يعرّها انكسار
كأنه من فوقها السوار

وجال في غرابة بالصيلم
من جمع الخنزير فيه والأسد
مصلبين عندنا بالسدة
صائمة قائمة لا ترمح
يطلبها النجار لا البيطار
عيناها في كلتيهما مسمار

(١) وهي بعد مطية من خشب إذا انكسرت عاجلها النجار لا البيطار ! رأيت أبداع من هذا ! ! !

مباشر للشمس والرياح
يقول للخاطر بالطريق
هذا مقام خادم الشيطان
فما رأينا واعظاً لا ينطق
على جواد غير ذي جماح
قول محب ناصح شفيق
ومن عصي خليفة الرحمن
أصدق منه في الذي لا يصدق !

إن وصفاً بديعاً كهذا يظلمه الدكتور هيكل حين يرى أنه أشبه بالمنظومات التاريخية وهو إلى تراثه التاريخي أقرب منه إلى تراثه الفني ، ويسبقه أستاذنا الدكتور أحمد أمين إلي حكم قريب من حكمه العنيف حين يرى بالجزء الثالث من ظهر الإسلام ص ١١٩ أن الأرجوزة أشبه ما تكون بالتاريخ المنظوم ليس فيها خيال ولا افتخار ولا شيء من ذلك !! ثم يقارن ابن عبد ربه بأبي طالب عبد الجبار فيرى ص ١٢١ أن أرجوزة أبي طالب أقرب إلى الملحمة من أرجوزة ابن عبد ربه ! وهذا ما أعجب له كثيراً . . .

لقد عاش أبو طالب عبد الجبار في عصري ملوك الطوائف والمرابطين واشتهر بالشعر حتى عرف كما يقول ابن بسام بمتنبي الغرب وهو وصف تنازعه معه الرمادي وابن هانيء وابن دراج فكل هؤلاء لدى مواطنهم يشبهون أبا الطيب ! وقد نظم ملحمة تاريخية متأثراً بسابقة ابن عبد ربه دون نزاع حيث إن الأرجوزة مدونة بالعقد ، وهو من الشهرة بالأندلس والمشرق معاً بمكانة توجب على أبي طالب وأضرابه أن يردوا مناهله ! ومع أنها من ناحية الكم تقارب ملحمة ابن عبد ربه إلا أن هناك فرقاً أصيلاً بين الملحمتين فصاحب العقد الفريد قد اختص الناصر بملحمته فلم يركض في غير ميدانه وبذلك اتسع المجال أمامه للوصف البارع والإجادة اللافطة ، ولكن عبد الجبار بدأ أرجوزته بالتحميد والتسبيح وتعرض إلى ما سماه مقدمات من أدلة المعرفة والاستدلال على الصانع تعالى من الصنعة وهو ضرب لا يتصل إلى الشعر بسبب - بل هو بمتن الجوهرة أو بمتن الخريدة في علم التوحيد أشبهه ، كأن يقول :

وقل بما يقول أهل الحق
وأدوات الحس يا من يفحص
السمع والأبصار ثم للمس
من مثبتي صفات رب الخلق
عن علمها ومن عليها يحرص
والشم والذوق فتلك خمسس

ثم انتقل إلى باب التفكير في الملكوت فتحدث عن الأجرام والأفلاك والعناصر الأربعة حيث أطال ، ثم تطرق إلى باب بدء الخليقة وذرة البرية فألمَّ بحديث آدم وحواء وقابيل وهابيل فإذا قال ما عنده انتهى إلى الأنبياء والمرسلين ثم إلى الخلفاء الراشدين فخلقاء الدولة الأموية فما وليها من رجال الدولة العباسية حتى إذا ذكر ما شاء الله أن يذكر من أسماء الخلفاء والوزراء والأصهار والكتاب تعرض إلى الدولة الأموية بالأندلس وتركها إلى الحديث عن الفتنة الأولى بقرطبة ثم ملوك الطوائف بعد ذهاب دولة ابن عامر وأمراء الجماعة بقرطبة ثم دولة المرابطين إلى عهد علي بن يوسف بن تاشفين ! فيالله من جهد جاهد ذهب في غير طائل لم تتخلله ومضة شاعرية أو لمحة أدبية بل انصب على القول انصباباً يذكرنا بألفيات ابن مالك وجلال الدين السيوطي وابن معطي ! ومع ذلك يقول أستاذنا الدكتور أحمد أمين رحمه الله إن أرجوزة أبي طالب أقرب إلى الملحمة من أرجوزة ابن عبد ربه ! يخيل إليّ أن الأستاذ رحمه الله حاول أن يقول العكس فسبق قلمه وإلا فهو من الفطنة والبصيرة والذوق بحيث لا يصدر عنه هذا الرأي في بساطة مستغربة ! مهما يكن من شيء فقد ذكر ابن بسام أرجوزة أبي طالب بالقسم الثاني من المجلد الأول كما ذكر ابن عبد ربه ملحمة بالعقد فليرجع إليهما من يريد الموازنة عن عيان ! على أن هناك أرجوزة ملحمة أخرى للشاعر الأندلسي يحيى بن الحكم الملقب بالغزال وكان شاعراً مطبوعاً يتشبه بأبي نواس في افتنانه ونزعتة إلى التجديد ، ويقوم بالسفارة السياسية بين ملوك العرب والروم ، وقد أشار المقري في النضح إلى هذه الأرجوزة وذكر شيئاً منها ! وإن وجود أربعة أراجيز تاريخية بالأندلس لينيء عن مثيلات لا نعرف عنها شيئاً ، وهو مما يؤيد الأستاذ « ريبيرا » في شيوع هذا الضرب من الملاحم وانتشاره ثم في تأثيره فيما بعد في الأدبين الإسباني والفرنسي معاً .

وكان من المحتمل أن ينتشر هذا اللون في المشرق والمغرب معاً على أن تكون الأندلس رائدته الأولى دون شك ، ولكن غفوة التجديد فيما بعد زوال الأندلس وطغيان المحاكاة في عصور المماليك وما وليها من عهود الانحطاط

في الأدب العربي قد قضى على هذا الاحتمال ، حتى جاءت النهضة الحديثة وأحسن الشعراء في أوائل القرن العشرين بسيطرة الاستعمار الغربي ومحاولته الجاهدة في إخماد الروح العربية والإسلامية معاً ، وكان حاضر الدول العربية إذ ذاك من الاحتلال والسيطرة الأجنبية مما يدعو الشعراء إلى التغني بالأمجاد العربية الإسلامية القديمة كي يوقظوا الهمم ، ويبثوا الحمية في النفوس ! فانطلق شعراء هذه الحقبة يتغنون بأعلام الإسلام وأبطال العرب ، تحدث حافظ إبراهيم عن عمر في قصيدته الشهيرة :

حسب القوافي وحسي حين ألقيا أني إلى ساحة الفاروق أهديها

وتحدث محمد عبد المطلب عن الإمام علي بن أبي طالب في علويته الرائعة :

أرى ابن الأرض أصغرها مقاما فهل جعل النجوم له مراما

زهاه رونق الخضراء لما تلفت في مجرتها وشامما

وتحدث عبد الحلیم المصري عن أبي بكر الصديق في بكريته الذائعة :

أفضني أبا بكر عليهم قوافيا وأهطر لساني حكمته ومعانيها

وقل لرسول الله لا يخز ذلتي إذا لم أكن فيه بقولي باديها

وكانت هذه القصائد الحماسية وأمثالها تقال في حفلات عامة تنهض بها لجان محترمة تضم أفاضل المصريين وقد رأس بعضها شيخ شعراء مصر إسماعيل صبري ولعل من البديع أن نذكر أن الشاعر البدوي محمد عبد المطلب أنشد علويته في حفل دائري بالجامعة وكان يركب جملا ويرتدي عقالا بدوياً وملابس عربية ، ويقود زمام مطيته عربيان صميان أحدهما عبد الستار الباسل عضو الشيوخ مما يصور حنين النفوس إلى أمجاد العرب ، وذكريات الإسلام !

أما شوقي ، فقد أدلى بدلوه في الدلاء ، ونظم أرجوزته المعروفة « دول العرب وملوك الإسلام » سنة ١٩١٩ ، وقد أجرى القول فيها على سنن ابن عبد ربه مما يشعر باحتدائه المتابع ! ! ولا أدري لماذا اكتفى شوقي في ملحمتة التاريخية بالسرد التاريخي وحده ، وهو قد ير على أن يبعث من روحه

الشاعرية ما يجعل أرجوزته جديرة باسمه ! ! لقد كان لشوقي من ثقافته الغربية في فرنسا ما يدعو إلى أن يفهم من الملحمة غير ما فهمه ابن عبد ربه ! ولكنه يحتذي الشاعر الأندلسي غير عابئ بما تتمخض عنه الدراسات الأدبية من بحوث ناقدة تحدد صلة الشاعر بالتاريخ وتري في استلهام الحوادث شيئاً آخر غير السرد المتتابع ، والحكاية السريعة ! ! بل إن من الغريب أن تكون أرجوزة ابن عبد ربه أو في شاعرية من أرجوزة شوقي ! ونحن نذكر منها نموذجاً يعتبر من أحسنها وأوفاهما إذ يتحدث شوقي عن وداع عبد الله بن الزبير لأمه قبل مصرعه ! ومع أن الموقف عاطفي مؤثر يقتضي من الشاعر أن يبعث حرارة ملتبهة في قوافيه إلا أن شوقي كان قصاراه أن يقول :

ورأيه الواضح في الخطب الخلك	وضاق عبد الله عن عبد الملك
لعلها تحمل بعض همّه !	فجاء أمّه ومن كأمّه
للموت أمضي أم لعبد الملك	فقال ما ترين ؟ فالأمر لك
فلا تخالف ما إليه سرتا	قالت إذا كنت لحقٍ تُرْتَبَا
فبئس أنت ، كم دم بذمتك	أو كانت الدنيا قصارى همتك
فالموت من ذل الحياة أحسن	الحق بأحرار مضوا قد أحسنوا
فليس ذا فعل الشريف الألعى	ولا تقل هنت بوهن ممن معي
فاقض كما قضوا عليه نجبكا	أنت إلى الحق دعوت صحبكا
وطاف أهل الشام بالمصلوب	ولا تقل إن متّ مثّلوا بي
ورب جذع فيه للحق علم	هيهات ما للسليخ بالشاة ألم

أما الشاعر الكبير الذي يمكن أن يذكر في هذا الموقف بالثناء والحمد فهو الأستاذ أحمد محرم إذ نظم المواقع الإسلامية الأولى على عهد الرسول في إلياذة ضافية تشمل أربعة أجزاء ، وقد كافأه الله على نيّته فنهضت محافظة البحيرة بطبع إلياذته والاحتفال بذكراه ، وهي إلياذة قوية تمخضت بذرة الملاحم الأندلسية عن دوحتها المورقة ! ولبعض الناقدین ملاحظات على طريقتها ! ولكنها مع ذلك إبداع ملحمي فريد في الأدب العربي ! وهو تطور طبيعي لخطوة ابن عبد ربه وأضرابه ، فهي مما يذكر في هذا الباب مشيراً إلى بعض ألوان التأثير بين السابقين واللاحقين !

لماذا ضعف تأثير الموشحات في الأدب العربي؟

ما أكثر ما كتب عن الموشحات ! وما أقل ما اهتدى فيها إلى رأي مصيب ؛ إن الذين يتحدثون عن الموشحات الأندلسية يعدونها وثبة في ميدان الانطلاق ، وخطوة في طريق التحرر ! ويأسفون أسفاً بالغاً لعدم ازدهارها فيما جد من عصور الأدب ! زاعمين أن تحجرها الجأمة كان خسارة فادحة لتجارة عظيمة ، لو رزقت تاجراً مجتهداً ، بلحادث بالربح الطائل والخير الوفير ! وعلينا الآن أن نكشف عن معدن الموشحات لنرى إن كان ذهباً نفيس القيمة أم أنه ذو طلاء مموه يخدع عن حقيقته الأبصار !

ولنا أن نسأل : أنشأت الموشحات استجابة لرغبة شعرية في الانطلاق من القيود والتحليق بالمعاني في أفق رحيب ! أم أنها نشأت لرغبة غنائية في مجتمع يحتفل بالشدو والترجيع ، وتضج به الأوتار والعيود !

إن المعروف أن الأندلس صارت منذ وفد إليها زرياب من بغداد معهداً فنياً للغناء ، تعطى دروسه في قصور المترفين من الملوك والرؤساء ، وتحتشد طلابه وطالباته من أولى الحناجر الذهبية ، والمواهب الفنية من شبان وشابات ومن حرائر وإماء ! حتى كان زرياب يأخذ راتباً شهرياً يحسد على نفاسته ويهدى له فوق راتبه في المواسم والأعياد من القصور والبساتين والخلع ما يعيش به عيش الأمراء المترفين ، وقد أخلص هذا الفنان الموهوب لحنه ، فزاد وترّاً خامساً في أوتار العود ، واتخذ من قوادم النسور مضراباً مرهفاً ، ووضع تقاليد جديدة لمجالس الغناء بدءاً وخاتمة ، وتفرس في تلاميذه وتلميذاته فاختر الموهوب المصقول ونبه عليه الناس ، فجعل العلية من المترفين يتسابقون إلى اصطفاء هؤلاء ، وأخذت مجالس الغناء تصدح صباح مساء ، لا يتورع عن غشيانها بعض القضاة ، بل إن قاضي

الجماعة محمد بن أبي عيسى خرج لصلاة الجنازة مرة ، فوجدت على كفه أبيات غزلية سمعها في مجلس الغناء ولم يكن معه ورق ، فسجلها على كفه حتى يحفظها أو ينسخها ، وكان الشعراء يدعون من أقاصي الأماكن ، ليسمعوا المغنين أشعارهم ، فيأخذوا منها ما يتفق والغناء ! ومن سار لأبياته ذكر في محافل الطرب والغناء تعاضم وافتخر وعد نفسه أصيلاً في عالم الفن الرفيع ! وكان الذين يعبرون الطرق من المارة يحبسون خطواتهم حين تصل إلى أسماعهم أصوات الغناء من القصور وقد يتعلقون بالأبواب والنوافذ ليأتيهم الصوت من مكان قريب ، حدث أن ابن عبد ربه الفقيه الأديب الشاعر كان يمر ببعض القصور ، فوصل إلى سمعه من الغناء ما قيد خطوة فأخذ يسترق السمع في الظلام ماصقاً أذنه بالجدار ، ولكن صاحب المنزل يرى شبحه ، دون أن يعرفه فيصب عليه ذنوباً من الماء كي يحجم عن هذا الموقف الغريب ! ولو كان صاحب العقد لا يحتفل بالغناء احتفالاً يأخذ عليه أقطار السموات والأرض لتسلل إلى منزله خزيان خجلاً ، ولكن حاجته الفنية إلى سماع الصوت تدفعه إلى أن ينظم من الشعر ما ينفس عن صدره ويقدمه إلى صاحب المنزل مخاطباً إياه :

يا من يضمن بصوت الطائر الغرد ما كنت أحسب هذا الضن من أحد
لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

فتبلغ الأبيات مبالغها ، ويخرج صاحب القصر معتذراً نادماً ، ويدعو الأديب الفنان فيغير ملابسه ويقضي الليل في طرب وسماع ! ولا يظن أحد أن التورع قد فُقد لدى الناس ، ففي كل بيثة يوجد الصالح والطالح ، والقضاة مظنة الصلاح في أكثرهم فإذا شذ بعضهم فهو استثناء ، نأسف له .

هذا الجو الغنائي الذي يتعشق الشدو والطرب مع إبداع زرياب ومن سار سيره ! حين جعل الألحان تختلف بدءاً ووسطاً وخاتمة في الطول والقصر والارتفاع والانخفاض ، قد أوحى للشعراء أن يبدعوا الموشحات فيشبعوا حاجة فنية لم تكن قائمة لدى مجالس الطرب ببغداد ! ولهذا كان الموشح

الأندلسي استجابة لنهضة موسيقية جديدة! ولم يكن انطلاقةً للمعاني والأحاسيس
وتحرراً من قيود القوافي كما يحاول أن يصور ذلك كثير من الكتاب!

تلك قضية هامة! تحتاج إلى بسط وتوضيح، لأن جمود الموشح وتحجره
اليابس على ممر العصور يدفعنا إلى أن نشخص بواعثه وأغراضه ونذكر
علله وأوصابه لنسأل أنفسنا عنه، أكان يحمل عناصر البقاء في تكوينه؟
أو أن نماءه المتوقع لدى بعض الباحثين لم يكن مما يتيسر! إذ أن الموشح لم يكن
منذ نشأته دعوة إلى التحرر والانطلاق بقدر ما كان ردة إلى القيود والأوهاق.

إن النظرة الساذجة إلى خلاص بعض الأبيات في الموشح من القافية قد
سببت هذا الفهم المخطيء، ولكن النظرة الفاحصة ترينا في جلاء أن الموشح
قد خلص من قيد ليرتطم في قيود وأنه سار خطوة واحدة ثم ارتد سريعاً
إلى الوراء خطوات، فلم يتيسر له — والحالة هذه — بعض الانطلاق.

وقبل كل شيء يهمننا أن نقرر بسرعة عاجلة أن الثورة على القافية قد
بدأت قبل ظهور الموشح وفي مكان غير مكانه! فمذ جاء العهد العباسي،
ومسلم بن الوليد وأبان اللاحقي وبشار وأبو العتاهية ينظمون الرجز في
القافية المزدوجة كقول أبي العتاهية مثلاً:

حسبك مما تبغيه القوت — ما أكثر القوت لمن يموت
إن الشباب حجة التصابي — روائح الجنة في الشباب
إن الشباب والفراغ والجودة — مفسدة للمرء أي مفسدة!

كما نظمت المربعات والمخمسات والمسمطات!! وهي كلها ثورة
على القافية في الصميم ودعوة إلى الانطلاق الفني! كي يجد الشاعر مجالاً
رحباً للتخليق! وفي الأندلس نفسها كانت المزدوجات والمربعات والمخمسات
ذائعة مشتهرة! وقد نظم ابن زيدون من المخمسات أكثر من مرة! وهو
شاعر تقليدي يحتذى المشرق! ولو قدر للشعراء أن يكثروا القول عن
هذه الألوان الجديدة لاستطاعوا أن يشبثوا وجودها الفني، فتألفها الأذواق

بكثرة الترداد ! ولكنهم كانوا يبدءون ثم يحجمون ، وكأني بهم يخافون
الاهتمام بالعجز عن امتلاك القافية والاقطار عليها ، فهم - مع اتجاههم إلى
الحديد - يرتدون ثانية إلى عمود الشعر وما أكثر عشاقه ومريديه .

هذا النوع من المربعات والمخمسات والمزدوجات كان دعوة للتحرر
ونقطة تجديدية تنتظر غيرها ! فهل تشبه الموشحات في ذلك لونهاً منه أم
أنها أثقلت نفسها إثقالاً بالقيود ! فكبت بأصحابها عن اللحاق ! ! !

يتحدث الدكتور أحمد أمين عن دور الموشحة ونجاحها فيقول (١) :

« على كل حال ابتكر الأندلسيون فن الموشحات والأزجال في أوروبا ،
وهذا يضاف إلى تأثير الأندلسيين في الغرب ، وقد دعاهم إلى ذلك
ما أحسوا من ثقل القيود في الشعر الفصيح من أوزان ووحدة قافية وقيود
إعراب فجاءت نوبة هاجوا فيها على هذه الأوضاع كما هاج أبو نواس
على بكاء الأطلال ، وقد نجحت الموشحات والأزجال لأن الناس استجابوا
إليها في حماسة إذ رأوها تعفيهم من القيود وتحررهم من التزام قافية واحدة
وتسمح لهم باستعمال الكلمات العامية الظريفة وتحررهم من قيود الإعراب »

والمفهوم الصريح من هذا القول أن الموشحات - وقد قرنها الأستاذ
بالزجل في جميع الأحكام - تحقق قيود الوزن والقافية ! وتدفع ناظمها
إلى التحرر كي يفيض في معانيه كما يشاء ! ولو أن الأمر كما قال ! لرأينا
فيما لدينا من الموشحات شرقية وغربية فيضاً من المعاني المبتكرة ، ونمطاً
من الخيال الرائع المحلق ، ولكنك بكل أسف - تقرأ الموشح فلا تجد فيه
ما بالقصيدة من عمق الفكرة ، وبراعة التصوير ! وانسياب العاطفة !
وأعمد إلى الدليل من أقرب طريق ، فأقول إن ابن سناء الملك قد جمع في
كتابه « دار الطراز » عدداً كبيراً من هذه الموشحات ! فهل إذا قرأها
القارئ متوالية أحس لها من الارتياح والنشوة ما يجده لدى كتب المختارات

(١) ظهر الاسلام ج ٣ ١٩٨ .

الشعرية من حيوية وتصوير وعمق وافتتان ! أو أنها تتوالى متشابهة متماثلة لا ترتفع إلى معنى رائع إلا في القليل النادر وتكاد تدفع قارئها إلى التأثرب والسأم ! أما السر في هذه الضحولة السطحية ، والتشابه المماثل فإنه يكمن في طريقة نظمها وما ترزح تحته من الأغلال . . .

يقول ابن بسام في ترجمة أبي بكر عبادة بن ماء السماء ، (١) : «وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها ، ووضعوا حقيقتها ، غير مرموقة البرود ، ولا منظومة العقود فأقام عبادة هذا منأدها ، وقوم ميلها وسنادها ، فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه ، ولا أخذت إلا عنه واشتهر بها اشتهاً غلب على ذاته وذهب بكثير من حسناته .

وهي على أوزان كثر استعمال أهل الأندلس لها في الغزل والنسيب ، تشق على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب ، وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقتنا ، واخترع طريقها - فيما بلغني - محمد بن حمود القبري الضريير ، وكان يصنعها على أشطار الأشعار ، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان ، وقيل إن ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات عندنا ، ثم نشأ يوسف بن هرون الرمادي فكان أول من أكثر فيها من التضمين في المراكز يضمن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة فاستمر على ذلك شعراء عصرنا ثم نشأ عبادة هذا فأحدث التغيير ، وذلك أنه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان فيضمنها كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز » .

ويقول العلامة ابن خلدون في مقدمته بعد حديث عن الموشحات :
« وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافر القبري من شعراء

(١) الذخيرة لابن بسام ٢/١ الصفحة الأولى .

الأمير عبد الله بن محمد المرواني وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله بن عبد ربه صاحب كتاب العقد ، ولم يظهر لها مع المتأخرين ذكر ، وكسدت موشحاتها فكان أول من برع في هذا الشأن عبادة القزاز شاعر المعتصم ابن صمادح صاحب المرية ، وقد ذكر الأعلام البطليوسي أنه سمع أبا بكر بن زهر يقول : « كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز » (١) .

ولا يهمننا من هذين النصين ما بهما من الاختلاف حول اسم المخترع الأول للموشحات ولا تحديد مكانة ابن عبد ربه في الموشح رائداً كان أم غير رائد ! ولا الاختلاف في أول البارعين أهو عبادة بن ماء السماء أو عبادة القزاز ، ولكن الذي يهمننا من ذلك هو أن لدينا نماذج من توشيحيات عبادة بن ماء السماء وعبادة القزاز الأول باعتراف ابن بسام أول مُجددٍ مجيد ، والثاني باعتراف ابن خلدون أول مُجددٍ مجيد وكلاهما معاً يقدم بين يدينا آية سبقه ، ودليل جودته فيما بقى متداولاً من توشيحاته !

فلننظر إلى وثيقتيهما الباقيتين في مقدمة الموشحات الذائعة لرى بعد ذلك أتحملان عناصر البقاء والنماء ؟ أتصلحان للريادة والتوجيه ؟ أيمن أن نفهم منهما - ومما احتذاهما بعد ذلك - ما فهمه الدكتور أحمد أمين من الثورة على القيود في القصائد والعصف بالأغلال في القوافي ؟ أم أنهما ارتدا إلى الوراء كما نريد أن نقول ، قال عبادة بن ماء السماء المتوفي سنة ٤٢٢ :

من ولى في أمةٍ أمراً ولم يعدل يُعزَلِ إلا لحاظ الرشأ الأكحل

جرت في حكمك في قتلي يا مسرفُ

فأنصف فواجب أن ينصف المنصف

وارأف فإن هذا الشوق لا يرأف

عللِ قلبي بذلك البارد السلسل ينجلي ما بفؤادي من جوى مشعل

إنما تبرزُ كي توقد نار الفتن

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٨٤ ط مصطفى محمد .

صنماً مصوراً في كل شيء حسن
إن رمى لم يخط من دون القلوب الجن
كيف لي تخلصي من سهمك المرسل فصل ، واستبقي حياً ولا تقتل
يا سنى التعس وأبهى من الكوكب
يا منى النفس ويا سؤلي ويا مطلي
ها أنا حل بأعدائك ما حل بي
عدلي من ألم الهجران في معزل والحلى في الحب لا يسأل عمن بلي
أنت قد صيرت بالحسن من الرشد غي
فائد في طرفي حبك ذنب على
فائد وإن تشأ قتلي شياً فتني
أجمل ووالني منك يد المفضل فهني لي من حسنات الزمن المقبل
ما اغتدى طرفي إلا بسنى ناظريك
وكذا في الحب ما بي ليس يخفى عليك
وكذا أنشد والقلب رهين لديك
يا على جفنيك على مقتلي فابق لي قلبي وجد بالفضل يا موثلي

ولبيان الإرهاق والعسف من القيود والأغلال في هذا الموشح ، نمضي
في إيضاح أصفاده الثقيلة فنرى أنه في اصطلاح القول موشح تام لا ناقص
لأنه مكون من ستة أفعال ، وخمسة أبيات ، والموشح التام هو النموذج
الكامل لديهم للبناء الفني الأنيق .

فإذا نظرنا إلى الأفعال نجد أنها في جميع الموشح تلتزم في الضرب قافية
اللام فهي من هذه الناحية تتفق مع القصيدة الشعرية ولكنها تزيد عليها
بقيدتين ثقيلين فهي لا تقتصر على اللام في الضرب ، ولكنها توجبها في
العروض أيضاً ، وهو قيد جديد لا نراه في القصيدة الشعرية ، إلا في المطلع

أحياناً والشاعر لا يتقيد به كثيراً إذ قد يصرع أولاً يصرع دون التزام ! ثم يأتي قيد جديد آخر وهو تقفيه التفعيلة الأولى من شطري القفل ! ! وإذن ففي السطر الواحد (وهو القفل) أربعة قيود ! ! مع أنه في القصيدة التي تجري على عمود الشعر لا يزيد عن قيد القافية فحسب ! ! وقل لي بعد ذلك أيستطيع الشاعر الوشاح أن يعبر عن معانيه النفسية في الأفعال ! أم أن هذه المآذق المتلاحقة تجعله يبحث عن اللفظ المتفوق مع النغم دون تقيد بالمعنى المختلج في النفس ! فأين الانطلاق المزعوم إذن ! !

هذا بالنظر إلى الأفعال ، أما الأغصان فالقافية نوعت في مقطوعاتها الخمس ! ولكنها لم تكد تشعر بحرية التنوع حتى اصطدمت بقيد أعنى وأثقل إذ أن كل شطرة من شطرات الغصن لا بد أن تبدأ بتفعيلة مقفأة ! جرت في ، فأنصف ، وأرأف كما في الغصن الأول ، وعلى سننه يسير ما يليه ! وإذا كان الشطر من الغصن يبحث عن قافيتين أولاهما في أوله ، والثانية في آخره فأى حرية تلك التي تمتع بها ! ! وإذا أردنا أن نقيسه بالشطر من القصيدة ذات القافية الواحدة فهل نجد لديه ما لديها من السعة والانفساح ! ! هذا هو عبادة بن ماء السماء وتلك أول موشحة وصلت إلينا في قائمة الموشحات ! ! أما موشحة عبادة بن القراز فتالية لها وهي هذه :

بَابِي	ظِي حِمَى	تكنفه	أسد غيل
مَدَهِي	رَشْفِ لِي	قرقفه	سلسبيل
يَسْتَبِي	قَلِي بِمَا	يعطفه	إذ يميل

ذو اعتدال يعزى إلى ذي نعمة ثابت

في ظلال تحت حلي قطر ندى بابت

وَفْتُور	ذو غنج	ذو مرشف	ألمس
العبيير	في أرج	والحسن	في ملبس
كم يشير	وجد شبح	بالدنفس	مكتس

ذو اعتلال لو عللا أنطق من ساكت

وغزال لو مقلا الحظ عن باهت

نير حدا الهوى أن يجودوا حده

كوثر سر الصدى أن يردوا ورده

انظروا محمدا واثودوا عنده

في هلال لو يجتلي جل عن الناعت

وزلال لو بذلا يرتقي للقانت

بدر تم شمس ضحي غصن نفا مسك شم

ما أتم ما أوضحا ما أورقا ما أنم

لا جرم من لمحا مند عشقا قد حرم

والقاريء لا يحتاج أن ندله على التعسف المرهق في الأقفال والأغصان
جميعاً مما نجم معه جزماً أكيداً أن الوشاح هنا ناظم في مجال ذهني صارم
لا ينقل فيه عن عاطفة ما ^وولكنه قريب من شعراء التواريخ الذين
يجمعون الحروف والكلمات مطابقة للعام الذي يريدون ! وحسبهم أن يوفقوا
إلى ذلك في أي عبارة تكون ! والذين يحكمون على الموشحة بأنها ميدان
للتحرر ليسوا في رأيي بشعراء يعرفون مضايق القافية ومرهقات الوزن !
وإنما نظروا نظرة طائرة إلى الأغصان وحدها في الموشح فوجدوها متنوعة
القوافي فوهموا أن ذلك مجال حرية شاسعة ، وجاءت أحكامهم تطابق
ما يتوهمون ! !

قد تكون لدينا موشحات أقل رهقاً ، وأخف حملاً من هاتين الموشحتين

الزائدتين ، وأقرب ما نقع عليه من ذلك موشحة ابن سهل البديعة :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صبَّ حلّه عن مكنس

فهو في حرٍّ وخفق مثمما لعبت ريح الصبا بالقبس

وموشحة ابن الخطيب التي عارضها بها ومطلعها :

جادك الغيث إذا الغيث همى يازمان الوصل بالأنسـدلس
لم يكن وصلك إلا حلمـاً في الكرى أو خلسة المختلس

فهاتان الموشحتان بديعتان حقاً ! وذلك لأن قيودهما في الأقفال والأغصان أخف وأهون من قيود الموشحتين الأوليين ! ولذلك اتسع المجال فيهما للتعبير عن بعض المعاني الرائعة ، وتصوير الإحساسات البديعة ! ! ولكننا مع ذلك الاعتراف نرى قيودهما أثقل من قيود القصيدة التقليدية ذات القافية الواحدة ! ! وترى المجال لدى الشاعر أرحب سبيلاً وأوسع أفقاً منه لدى ابن سهل وابن الخطيب حين لجأ إلى التوشيح ! ! ولي أن أتساءل بعد ذلك لماذا لم يظهر من القرن الخامس الهجري إلى الآن وشاح عظيم ، يحتل مكانته العالمية لنبوغه في الموشحة وحدها ! ولماذا نجد شاعراً كبيراً كشوقي يعشق الأندلس فيحاول أن يعارض موشحاتهم كعادته مع السابقين من الشعراء فلا يفعل ذلك على تمرسه بالنظم في عمره المديد غير مرة واحدة في موشحته عن الداخل ! يبذل في نظمها جهداً تلمسه وراء الشطور والكلمات وكأنه إذ من الله عليه بالانتهاء أقسم ألا يعود ! ! إن السبب الأصيل في جمود الموشحات هو أنها لا تحمل عناصر النماء بما يثقلها من أصفاد .

على أن عشاق الموشحات لا يفتأون يخلقون لها الحسنات فإذا قال الأستاذ أحمد أمين إنها تساعد على الحرية والانطلاق - وقد عرفنا مبلغ ذلك من الصواب - وجدنا الدكتور الفاضل عبد العزيز الأهواني يسجل لها فصلاً جديداً حين يقول (١) :

« ونحن جميعاً نعرف الطابع الذي اتخذته القصيدة العربية ثم جمدت عليه خلال العصور التالية كها هي قصيدة تنظمها قافية واحدة ، خلافاً

(١) مجلة المجلة : عدد فبراير سنة ١٩٥٧ ص ٩٢ .

للشعر القديم عند اليونان والرومان وغيرهم فإنه لم يصطنع نظام القوافي ، وكانت هذه القافية الموحدة تكلف الشاعر العربي كثيراً من المشقة وتجعل القصيدة وإن اكتسبت بذلك تنغيماً لا شك فيه ، تحمل غير قليل من السامة والملل ، فكان التوشيح ثورة في هذا الجانب فلم يلتزم هذه القافية الموحدة ، وإنما نوع في القوافي فاشتملت الموشحة الواحدة على قواف عدة تثير الشعور بالطرافة والتجدد ، وكانت القصيدة العربية زيادة على ذلك تتخذ البيت على قصره وحدة مستقلة قائمة بنفسها يكمل فيها المعنى ولم يتجاوز ذلك إلا في حالات يسيرة اعتبرت ضعفاً من الشاعر وكان نتيجة لهذا أن أصبحت القصيدة أبياتاً ينقصها التماسك ، وينقطع معها نفس الشاعر ، ونفس المستمع أحياناً كثيرة أما الموشحة فقد ثارت على هذا الوضع أيضاً ، فلم تكن وحدتها البيت ، وإنما كانت المقطوعة التي تشمل على جزأين : الغصن والقفل ، وربما بلغ مجموع الغصن والقفل أي المقطوعة ثمانية أضعاف البيت الواحد ، ومعنى هذا أن نفس الوشاح يجد له له مجالاً أوسع ، ومعناه أن تكون الموشحة أطول امتداداً منها في القصيدة ونظرة بسيطة إلى ما نظمه شاعر مثل لسان الدين بن الخطيب من قصائد وموشحات يثبت قيمة هذا الفرق بين الفنين .

فالدكتور الأهواني بعد أن جزم بأن القافية الواحدة في الشعر العربي تعوق وتسئم وتمل ، وبعد أن برأ الموشحة من كل ذلك أضاف لها فضلاً جديداً حين أعلن أنها تلتزم الوحدة لأن البيت بها (وهو مكون من القفل والأغصان) يجعل نفس الوشاح أوسع وأطول ويتيح له مزيداً من البحث والتحليل والاطراد ، ولن يكون ذلك في القصيدة العربية التي كانت تنشد وحدة البيت لا وحدة القصيدة . وهذا الكلام يقال نظرياً فقط لا عملياً ، لأننا حين نقرأ أبيات الموشحة نلمس بها غالباً ما نلمسه في القصيدة من انفكاك في المعاني ، واجترأ في القول ، ودليلنا الواضح أننا قد استشهدنا في هذا البحث بقصيدتين مشهورتين لوشاحين كبيرين هما عبادة بن ماء السماء وعبادة بن القزاز فليرجع الدكتور الأهواني إليهما وليتقدم ما يشاء

ويؤخر في الأقفال والأغصان ! فسيجد النهج لا يختلف عن منهج القصيدة الطويلة بحال ، ليأت بأي موشحة وليقرأها سفلا وعلوا ، وتقديماً وتأخيراً ، فسيجد الوحدة التي يتحدث عنها لا تكاد تذكر ! أجل هناك موشحات قليلة متماسكة متلاصقة تنبئ بالوحدة الكلية ! ولكن مع ذلك أيضاً لدينا في الشعر العربي القديم والحديث قصائد كثيرة لا تعوزها الوحدة بحال ، فالفضل في ذلك إذن لا يرجع لموشحة أو قصيدة ، ولكنه يرجع إلى معدن الناظم ومنحاه ونظرته وعمقه في التحليل وفلسفته في الصياغة والتوليد !! وإذا كان الدكتور يرى أن البيت في الموشحة بجزئيه (القفل والغصن) يعطي في مدى قد يصل إلى ثمانية أبيات وحدة تامة لا تتاح لبيت واحد من القصيدة المقفاة ! فماذا يقول حين يرى في أكثر الموشحات شبه انفصام بين الاقفال والأغصان ، وهما بيت واحد في الاصطلاح ، ليعاود الدكتور الفاضل معي القراءة من جديد ، فقد ينتهي إلى تعديل يغير من حكمه السريع !

أما الباحث الفاضل الدكتور إحسان عباس فيرى للموشح الأندلسي مزية ثالثة قال عنها : « ومن ثم نرى أن الموشح هو أول ثورة حققها الشعر العربي في إثارة للإيقاع الخفيف الذي يقرب الشقة بين الشعر والنثر فأضعف من أجل ذلك العلاقات الإعرابية كثيراً ، وذلك أننا نقول حقاً إن الموشح معرب ، ولكن الإسكان بالوقف في التجزئات القصيرة ، واختيار الألفاظ التي لا تظهر حركات الإعراب في أواخرها يجعلان العلاقات الإعرابية ضعيفة ، ويحيلان الموشح إلى مستوى قريب من مستوى الكلام الدارج إذ أين هي العلاقات الإعرابية في قول الوشاح :

ما أتّم ما أوضحا ما أوقا ما أنم
لا جرم من لحا قد عشقا قد حرم

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ص ٢٤٤ للدكتور إحسان

هذا كلام الدكتور إحسان وهو عجيب حقاً ! لأنه يفهم من العلاقات الإعرابية العلاقات الظاهرة فقط لا المستترة ولا المقدرة ، واستشهاده هنا مبتور لا يصح على الإطلاق فإين يرجع الضمير في قوله أتم وأوضح وأورق وأنم ؟ إنه يرجع إلى أول القفل وهو قوله :

بدرتم شمس الضحى غصن نقا مسك شم
ما أتم ما أوضحا ما أورقا ما أنم

وإذن فلا بد للدكتور أن يستشهد بأول القفل ، ليعود الكلام أمام القاريء إلى مذكور لا إلى غائب يبحث عنه فلا يجده ! فالعلاقات الإعرابية على أتمها لم يتطرق إليها وهن كما يتخيل الدكتور ! ! إذ أن الوشاح يريد أن يقول ما أتم البدر وما أوضح شمس الضحى وما أورق الغصن وما أنم المسك ! !

ولا أدري كيف يكون الإسكان بالوقف في التجزئات القصيرة واختيار الألفاظ التي لا تظهر حركات الإعراب في أواخرها مما يقرب الشقة بين الشعر والنثر ! أي نثر يقصد الدكتور إذا كان مراده النثر العربي مقالة ورسالة وخطابة وقصة فهو مما يتقيد بالحركات الإعرابية ولا يقبل التسكين كالشعر سواء بسواء ! إذا كان يقصد بالنثر (المحادثة باللغة العامية الساكنة الأواخر فهي ليست بنثر عربي) حتى نبحث عن صلتها بالموشح العربي ! ! ! ليقول إذن إن الموشح خطوة لمسيرة المحادثة العامية ! وليعد ذلك فضلاً كبيراً له إن أراد . . .

وكلنا نعرف أن المعاني في الشعر الأندلسي بعامة - إلا ما ندر - قريبة الغور سهلة المتناول ، إذ لا نجد في رجاله من يغوصون على الأفكار كذوي القمم العالية من شعراء المشرق ، وإذا كنا نعجب بابن زيدون أو ابن خفاجة أو ابن دراج فكل هؤلاء هضبات متقاربة لا تناطح جبالاً شماً تدعى بأسماء المتنبي وأبي تمام وابن الرومي والمعري ولعل إهمال الفلسفة والبعد عن دراستها في مدى طویل من حياة الأندلس العربية قد ساعد على

ما نراه من قرب الأفكار وبداهة الصور ، وتقليد الصياغة ، وإن المستشرق الكبير الأستاذ أميلو غرسيه غومس يعبر عن ذلك في كتابه الشعر الأندلسي فيقول (١) :

« ولا بد أن ننبه من أول الأمر إلى أن الشعر الأندلسي عامة فيما خلا بضع شواذ فقير جداً من الناحية الذهنية التفكيرية ، ومن دلائل ذلك أن الناحية التي تأثروا بها من المتنبي كانت ناحية البراعة لا ناحية التفكير ، وعاشوا أعمارهم كلها مكبلين بقيود القوالب الشكلية الجامدة ، ومن ثم لم يستطيعوا أن يدخلوا من التغيير على الشعر إلا أشياء لا تمس المعاني ، مثلهم في ذلك مثل أتربهم من المشاركة فحاولوا أن يعطوا هذه المعاني صوراً جديدة عن طريق تقطيرها في أنابيق بلاغية ، وأوغلوا في ذلك حتى استخرجوا منها تلك الزخارف الشعرية الأربسكية التي تشبه أن تكون قصوراً حمراء لفضية ، فإذا كانت القصائد المنمقة المترفة المعقدة المثقلة على هذه الدرجة من البعد عن الترتيب الذهني بل من الإحساس الإنساني في أحيان كثيرة ، فمن الطبيعي أن تنقصها تلك المرونة السائغة التي نجدها في الشعر القديم !! »

وإذا كانت هذه الضحولة الغريبة تظهر بوضوح في الشعر الأندلسي فإنها في الموشحات الأندلسية أظهر وأوضح لأن دواعي السطحية بها أكثر وألزم فالطرب الأذني هدفها الأول ، والاستجابة إلى دواعي الغناء ، مما يمتع أذواق المترفين في القصور والعامّة في ليالي الأعراس والأفراح إذا تتلمس هذا النغم المتتابع المتدارك لتتعالى صيحات الإعجاب والاستحسان حين تنفق المخارج الصوتية ! وتتوالى المتشابهات المقفاة ذات التسكين أو المد كما يسير الكلام ! وإذا كان المفهوم من كلام بن بسام السابق أن الموشحات قد كانت يسيرة المتناول مبدأً ثم تم تعسيروها على يد عبادة ثانياً ثم أسمحت بعض الشيء فيما تلا عهده من العصور فإننا لا نعرف شيئاً مما كان قبل عبادة حتى نحكم عليه بعيداً عن الفروض المحتملة ، والتخيلات الراجحة ، وما عرفناه بعد

(١) الشعر الأندلسي لأميلو غرسيه ص ٦ ترجمة د . حسين مؤنس .

ذلك يختلف تركيباً وتعقيداً بعضه الأول عن بعضه الأخير حتى وجدنا موشحات ابن سهل وابن الخطيب وابن زهر قريبة الانطلاق نسبياً إذا قيست بتعقيدات عبادة ومعاصريه ! ومع ما بها من الانطلاق النسبي فإن عشاق الأدب الأندلسي أنفسهم يحكمون عليها بالضحولة والسذاجة ، والدكتور جودت الركابي يقول مثلاً عن موشحة ابن سهل (١) وهي بعد من النماذج الرائعة حقاً للموشحات ص ٣٠٤ من كتابه في الأدب الأندلسي :

« إنها تلعب فينا بألفاظها الغزلية وموسيقاها على أننا لا نجد فيها من المعاني ما يسترعى الانتباه وإنما هي قصيدة مرنحة تشعر بجلاوة قوافيها المتواترة ونغماتها العذبة ثم يجر هذا الحكم على جميع الموشحات فيقول في ص ٣٠٥ : « هذه المعاني التافهة يسترها طلاء خارجي مستمد من ضروب البيان والبديع ... وهي وإن عبرت عنها موسيقى ناجحة في الأغلب فإنها لم تحوها قوالب متينة من الألفاظ والعبارات ، فلغة الموشحات يغلب عليها الضعف والركاكة وهي في لينها وحررتها واثنتلافها قادت اللغة الشعرية إلى الركاكة وأسأت من هذه الناحية إلى اللغة العربية فأصبح الشاعر الوشاح لا يجد حرجاً في التساهل اللغوي طالما يرضي الأذواق العامة كما ترضي الأغاني الشعبية هذه الأذواق » . هذا وقد حاول الدكتور بعد ذلك أن يجعل بعض الشعر المهجري المعاصر امتداداً للموشح وهذا خلط واعتساف لأن تجديد المهجريين إلى أعلى وانحدار الوشاحين إلى أسفل ، فكيف يلتقيان .

لقد عجز الموشح أن يحفظ عناصر بقائه لتقييده بالأغلال ، وهو بعد أندلسي أسباني يرضي أذواق المولدين من العرب والإسبان ويساير الأغاني الشعبية هناك في التقفية والتلحين ، وكنا نظن ذلك من البداهة بحيث لا يحتاج إلى نص ، ولكن مذكرة مطبوعة في الأدب الأندلسي كانت تُدرس سنوات متلاحقة بكلية اللغة العربية تزعم أن ابن المعتز أول من

(١) مطالعها :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكسي

اخترع الموشحات وهو زعم لا يستند إلى واقع من أدب أو تاريخ ، ولكن خطأ النساخين لديوان ابن المعتز قد جر إلى هذا الوهم البعيد ، وجاء الأستاذ عبد الجواد رمضان ليرتضيه حقيقة معقولة يدافع عنها فيقول (١) عن موشحة ابن زهر المنسوبة لابن المعتز :

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

« ورأيي الخاص الذي يوحيه روح الموشحة أنا لابن المعتز ، ولا ينضح بها إلا مثل خيال أمير السياسة والأدب ، وأكبر الظن أنه لم يقصد بها إلى ابتكار فن جديد ، وإنما نظمها على طريقة الخمس الذي نظم منه العباسيون كثيراً ويساعد على هذا سلامة نظمها العروضي ، وعد هذا النوع في الموشحات من المرذول المحذول الذي هو بالمخمسات أشبه منه بالموشحات » .

وقد نسي الأستاذ أن لابن زهر من الموشحات ما يماثل هذه الموشحة طريقة وتقنية ، وأن نظام الموشحات لم يعرف بالأدب العباسي في زمن ابن المعتز ولو عُرِف لتناولته الكتب وخلدته المؤلفات ، وعارضه الشعراء ، ولو كان ابن المعتز وشاحاً لذكر مترجموه ذلك عنه . ولكتب هو بنفسه عن هذا اللون في مؤلفه عن البديع الذي جمع فيه ما هو أهون من الموشحات بكثير ، أما الخلاف بين المخمسات والموشحات فأوضح من أن يخفى على أستاذ جامعي فالمخمسة تبتديء بأربعة شطور من قافية واحدة ثم تأتي الشطرة الخامسة من قافية أخرى تلتزم في كل شطرة ختامية كقول ابن زيدون يتشوق إلى ولادة :

سقى الله أطلال الأحبة بالحمى وحاك عليها ثوب وشي منمنما
وأطلع فيها للأزاهر أنجما فكم رفلت فيها الخرائد كدمى

إذ العيش غضّ والزمان غلام

أهيم بيجار يعز وأخضع شذا المسك من أدرانه يتضوع
إذا جئت أشكوه الجوى ليس يسمع فما أنا في شيء من الوصل أطمع

ولا أن يزور المقلتين نسام

(١) مذكرة عن الأدب الأندلسي ص ٩٨ للاستاذ عبد الجواد رمضان مطبعة الأزهر .

قضيّبٌ من الريحان أثمر بالبدر لواحظ عينيه ملثّن من السحر
وديباج خديه حكى رونق الزهر وألفاظه في النطق كاللؤلؤ النثر
وربقتّه في الارتشاف مدام

هذا ضرب ، وموشحة ابن زهر ضرب آخر يلمس بالنظر المجرد
لو صنفها المطبعي فضلا عن القراءة والإمعان !

وبعد ، فقد قلت في مطلع هذا البحث ، ما أكثر ما كتب عن
الموشحات وما أقل ما اهتدى فيها إلى رأي مصيب ، ولست أدري أأكون
فيما كتبت من المتعسفّين أم من المهتدين .

تأثير الأزجال والموشحات في شعراء التروبادور

كان الفصل السابق خاصاً بتأثير الموشحات الأندلسية وحدها في الأدب العربي وحده أما هذا الفصل فيتحدث عن تأثير الأزجال والموشحات في شعراء التروبادور وهو تأثير واضح يُرى بالعين ويُلمس باليد على رغم مكابرة المكابرين .

والعلاقة بين الزجل والموشح ، وسبق أحدهما الآخر ، في النشأة الزمنية كانت مجال نقاش علمي لا تعلق وجوهه بل تسفر أدلته عن وجه الحق لمن يناقش الحقائق المجردة دون أن يتعبد بالنصوص ! لقد اشتهر بين الكاتبيين أن الموشح قد تقدم الزجل بأكثر من قرن ! وعضدهم في ذلك ما ذكره العلامة ابن خلدون في قوله (١) :

« ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقتة بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً واستحدثوه فناً سموه الزجل » فهذا القول صريح في أسبقية الموشح ! ولكننا حين نقرأ الموشحات الأولى نجد أنها تستند إلى المركز العامي وهو المعبر عنه اصطلاحاً بالخرجة ، وقد نص على ذلك ابن بسام حين قال في الذخيرة عن أول من نظم الموشحات : « وكان يضعها على أشطار الأشعار غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان » .

فالخرجة إذن عامية غير عربية يحتشد لها الوشاح ويبحث عنها أولاً ، ليتم الموشحة على هديها فتتفق معه نغمًا ومعنى ، يقول ابن سناء الملك (٢) .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٤ .

(٢) دار الطراز ص ٣٢ تحقيق جودت الركابي .

والخرجة هي إبراز الموشح وملحه وسكره ، ومسكه وعنبره وهي العاقبة وينبغي أن تكون حميدة والخاتمة بل السابقة إن كانت الأخيرة . . . وقولي السابقة لأنها التي ينبغي أن يسبق الخاطر إليها ويعملها من ينظم الموشح في الأول ، وقبل أن يتقيد بوزن أو قافية وحين يكون مسبباً مسرحاً ، ومتبجحاً بنفسه ، فكيف جاء اللفظ والوزن خفيفاً على القلب أنيقاً على السمع ، مطبوعاً عند النفس ، حلواً عند الذوق تناوله وتنوله ، وعامله وعمله ، وبني عليه الموشح لأنه قد وجد الأساس وأمسك الذنب ، ونصب عليه الرأس . » .

فكان الوشاح إذا أراد أن ينظم فكر أولاً في الخرجة العامية ، وجاء بها متفقة مع ما حكاه عنها ابن سناء من صفات ، ثم أخذ يدور في فلكها ليرسي قواعد النظم على أساسها ! وذلك شيء له دلالة الفنية في قضية السبق بين الموشح والزجل ، إذ أن اصطلياد الخرجة موزونة منسجمة لا يتأتى للوشاح إلا إذا كانت هناك أغان متداولة شائعة تقذف بما يريد من خرجات ، وتفتح عليه باب القول ليتخذ منها الأساس كما يشاء ! ولن ينكر أحد وجود الأغنيات العامية لدى الشعوب ، فلكل مجتمع بدائي أو متحضر أهاليه وأغانيه ! وليست الأغنية الشعبية إلا زجلاً منظوماً يتردد ويذيع فإذا استلهمها الوشاح فإنما يقصد إلى شيء سابق يحتديه ! وهذا من البديهة بحيث لا ينكر ، وقد أوضحه الدكتور الفاضل عبد العزيز الأهواني حين قال (١) :

« ونص ابن بسام واضح الدلالة على صلة العامية والأعجمية باختيار الموشحة ، وبعمل الوشاح الأول ، وذلك سندنا فيما نميل إليه من تأثير الموشحة بالأغنية الشعبية لأننا نفهم مدلول المركز العامي على أنه جزء - لعله المطلع أو الختام أو اللازمة - من أغنية سابقة أعجب بها الوشاح ، ووضع

(١) الزجل في الأندلس ص ٥ للدكتور الأهواني .

موشحته على وزنها ، واحتفظ بجزء منها في ختام موشحته ليستدل بها على تلحين الموشحة » .

أما رأي ابن خلدون في سبق الموشحة ، فلعله يقصد به تأثير الموشحات في طريقة الأزجال ، بعد أن ازدهرت الموشحة العربية واضطر أصحاب الأغنيات الشعبية إلى محاكاتها في الطريقة أقبالا وأغصاناً ! فكأن الموشحات قد طبعت الأغنية بطابعها ، حتى اشتهرت بمحاذاتها وأطلق عليها الزجل تمييزاً لها عن الموشحة ذات اللفظ الفصيح ! وإلا فكيف نجزم أن الوشاح يعتمد على خرجة عامية موزونة يحتذيها ! ثم لا نجزم بأن هذه الحرجات كانت ذائعة المتناول ، وإلا فمن أين استمدتها ، ثم أليست هي الأغنية الشعبية ، وهي بعد زجل منظوم في أبسط الأشكال ! هذا رأي قد اعتقدناه واطمأننا إليه ! ثم رأينا الباحث المفضل الدكتور إحسان عباس يبسطه ويجلوه مدعماً مؤيداً في كتابه (١) :

« فالزجل بمعناه العام نشأ أولاً تقليداً لأغاني السكان الأصليين وبخاصة حين اختلط الفريقان في المدن واشتركوا في إقامة الأعراس والحفلات ، واحتاجوا إلى الأغاني الشعبية التي يرددونها في تلك الحفلات وفي مواسم العصور وأيام القطف ، ثم الخطوة التالية وهي محاولة للتقريب بين الشعر المنظوم باللغة الفصحى وبين تلك الأغاني الشعبية التي أصبح النساء والصبان وطبقات أهل الحرف والعمال يرددونها باللغة الدارجة العربية دون أن يصفوها تماماً من الألفاظ الأعجمية التي اقتبسوها من جيرانهم ومخالطيهم ودرجت على ألسنتهم فأصبحت جزءاً من لغتهم » .

فمحاولة التقريب بين الشعر المنظوم بالفصحى والأغاني الشعبية هي ابتكار الموشح في مبدئه والحرص على الحرجة عامية أو أعجمية هو ما عناه الدكتور عباس حين قال : « دون أن يصفوها تماماً من الألفاظ الأعجمية

(١) تاريخ الأندلس - عصر الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٢٢٢ .

التي اقتبسوها من جيرانهم ومخالطيهم» . وقد نستغرب ذلك حين نجد لغة ما نحفظه من الموشحات فخمة عالية لا تميل إلى الركاكة مما يقربها إلى اللغة العامية الدارجة ! ولكن الموشحات الأولى التي ابتدأها مقدم بن معاني أو محمد بن محمود القبري لم تكن ذات لغة فخمة رصينة كما عرفناها بعد لدى عبادة ، وابن القزاز والأعمى التطيلي وابن سهل ! بل كانت سهلة يسيرة تحكي الطور البدائي للاتباع والمحاكاة ثم توالى الزمن فارتفع بها إلى مستوى الأسلوب الرصين لدى كبار الشعراء ! ونخلص من هذا كله بما تقتضيه طبائع الأشياء من الحكم بوجود الأغنية الشعبية أولاً أو الزجل الغنائي في أبسط حدوده ثم وجود الموشحة العربية ذات اللفظ السلس السهل ثم ارتقاء أسلوبها فيما بعد حتى توازي فخامة الشعر الرصين مع جنوح بعض النظامين إلى اختيار العامية عزوفاً عن الفصحى ، واطراد النظم بالأسلوبين فصاحة وعامية حتى اشتهر الأسلوب الفصيح بالموشح والعامي بالزجل ! وقد أعقبت فترة ما غلب فيها الموشح العربي دون أن يفقد الزجل وجوده ، ولكن مكانه تأخر فقط ، ثم أتبع له أن يتزايد ويزيد ، حتى يكتسح الموشح ! فظن بعض الناس أنه انبثق عنه وتفجر من ينبوعه ، والأمر على عكس ذلك كما أوضحناه .

وقد أكثر الكاتبون عن الموشحات والأزجال من ذكر النماذج المختلفة للموشحة المختومة بالخرجة عامية أو أعجمية ! وليس هنا مجال الاستشهاد لأمر ذائع ميسور ، ففي دار الطراز لابن سناء ما لو شئنا أن نقبس منه لاتسع النطاق ، ولكننا نحيل إليه وإلى أمثاله ! بعد أن أوضحنا الصلة التامة بين الموشح والزجل لنتقل بعد ذلك إلى أثرهما في شعراء التروبادور .

من المعلوم أن الجدل في الحقائق الأدبية أكثر اتساعاً وأبعد تفرعاً منه في الحقائق العلمية إذ أن الذوق من ناحية والافتراض من ناحية ثانية يجدان مجالهما في الدراسة الفنية على نحو أوسع منه في الدراسة العلمية ذات الحقائق المضبوطة ، والحدود القائمة ، وقد اتسع الجدل وتشعبت المذاهب بين

المستشرقين من فرنسيين وأسبان وألمان حول صلة الموشحات والأزجال بشعراء التروبادور من مؤيد لهذه الصلة ومعترف بها اعترافاً يقوم على النصوص الملموسة ، والوقائع المشاهدة ، ومن منكر يؤول الصريح من القصائد ، ويماري في العيان من الحقائق ثم يستسلم إلى فروض بعيدة إن وجدت لها مكاناً محتملاً في التخريج والاستنباط ، فإن صمود النصوص المحفوظة لدى المؤيدين مما يهز فروضه المحتملة وتأويلاته المتعسفة ! ومن المؤسف أن من يتعرض للفصل في هذا الموضوع من المستشرقين اللاحقين يذكر الجوانب المختلفة من الرأي ثم يحجم غالباً عن ذكر النتيجة الواضحة فيترك الباب مفتوحاً لاحتمالات واهية لا تثبت لهبة نسيم .

لقد بحث الأستاذ خليان ريبير ما بحث حتى اهتدى إلى الصلة الواضحة بين شعر التروبادور والموشحات ! وجد هذه الصلة في أكثر من جهة ، وجدها في الشكل الخارجي وفي المضمون الداخلي وفي الثابت من وقائع التاريخ للأشخاص ! وإن جهة واحدة من هذه الثلاث لتكفي في إثبات التأثير ، فكيف بها مجتمعات !

وشعراء التروبادور هم الذين كانوا يحيون في قصور الأمراء وأبهاء الملوك ليتغنوا بالحب والمروعة على نمط خاشع ذليل يعترف فيه العاشق بهيامه وتفانيه ويرسل عبارات الشوق والإجلال لحبيبته الحسنة فهي سير حياته ومالكة قلبه ! ومصدر الأونس والبهجة في الوجود ، نظرة عاطفة منها تحي ميتاً يدب البلى في أوصاله ، وأخرى غاضبة تمت أقوى الأقوياء من الفرسان ! ثم أخذوا يطوفون بأنحاء أوربا خلال القرون الأخيرة من العصر الوسيط فينشدون الناس منظوماتهم الغنائية التي جلبوا بعضها من الأندلس ونظموا البعض الآخر على غرارها ، ويقول كثير من الباحثين إن كلمة تروبادور مركبة من كلمتين أولاهما كلمة تروب ومعناها الأسباني فرقة ، يراد بها فرقة غنائية وثانيتها كلمة دور وهي عربية واضحة وإذن فالترتروبادور هم فرقة من الشعراء يدورون في البلاد ينشدون أشعارهم

الغنائية على وقع القيثارة ! ! هذا الغناء الشجي الضارع من ناحية الشكل قد اتخذ مظهر الموشحات والأزجال فمتوسط المقطوعات في أشعارهم سبع وهو العدد الغالب في الموشحة والزجل ! ولكل مقطوعة ما لكل موشحة من الأقفال والأغصان والقوافي على نحو لم يعهد من قبل في الشعر اللاتيني ! وقد تخلوا مقطوعة من المطع أو المركز كما تخلوا بعض الموشحات أيضاً ! !

ونظام الحرجة في أشعار التروبادور كنظمة في الموشح والزجل ، وله عندهم من الأهمية والاحتفاء ماله في الموشحة سواء بسواء ، ثم إن مجموع الغصن مع القفل يسمى بيتاً عند التروبادور وهو كذلك في الموشحات والأزجال .

هذا من ناحية الشكل أما التشابه في المضمون فإن أخيلة الشعر العربي ومعانيه التي احتضنتها الموشحات والأزجال قد انتقلت هي الأخرى في غزل التروبادور فالرقيب والعاذل والواشي ونشأة الحب من أول نظرة ، والتهالك على استرضاء الحبيب وحلاوة الوصل ولذاته وقسوة الهجر وفضاعته ! و صلف الحبيبة وكبرياؤها وقسوة فؤادها وتثاقلها المترفع وإبائها الشموخ ، وحيل الرقباء وملامة العاذلين ، وذهول العاشق وشروده وإقباله على الحديث عن حبيبه . . . كل ذلك قد وجه شبيهه في شعر هؤلاء ! ! وهي عواطف لم تكن ذائعة في غزل اللاتين ، ولن يقول قائل إن الاحساس بالحب عاطفة مشتركة ! فالحب متعدد الألوان والأفانين ، وظهوره لدى التروبادور في لون الأزجال والموشحات يوحي بتأثره الصريح ! هذا بالإضافة إلى قصائد العرب الأخرى غير الموشحات كمقطوعات جماعة الحب العذري بالمشرق وقد كانت مشتهرة متعارفة لدى أدباء الأندلس !

وكالكتب الخاصة بالصباية العربية من مثل الزهرة والحدائق وطوق الحمامة ! هذه الأزجال والموشحات وتلك القصائد العذرية ! مع الكتب العاطفية المشار إليها قد ألهمت شعراء التروبادور اتجاههم النفسي ،

وجعلت للمرأة في نفوسهم من الرفعة والإجلال ما نطقت به أشعارهم
الذائعة فجاءت ناطقة بالاحتذاء والتشرب !

وذيوع ديوان ابن قزمان مع شهرته الفائقة لدى الباحثين قد جعله
عندهم موضع المقارنة ودليل الاقتفاء ! والحق أن الصلة قريبة بين ديوان
ابن قزمان وشعراء التروبادور من ناحية الشكل أما من ناحية الموضوع فقد
تبدو الصلة بعيدة في بعض وجوهها لأن ابن قزمان لم يكن من أرباب التصون
والشرف في غزله بل كان متهتكاً مسفهاً يميل إلى الخلاعة واللهو ويدعو
إلى الاستهتار والإسفاف ! وقد كان ابن عصره دون شك إذ أن قرطبة
لعهده قد أخذت إلى الراحة نسبياً بعد أن كفت شر الفرنجة وسيطر
المرابطون على البلاد فأسكنوا الثوائر وبعثوا كثيراً من الاطمئنان وإذ ذلك
تفرغت بعض (١) القصور للغناء والطرب وماجت الليالي الحاملة بروائع
الأوانس من سبايا القشتاليات والجليقيات والإيطاليات والبربريات وكل
منهن فاتنة صداحة ذات لهو وأنس ! بل إن العامة في الطرقات كانوا
يستمعون إلى صدى الغناء في القصور منبعثاً من أشجى الخلق ، وأرحم
العيدان ثم يرددونه مصفقين طربين ! ويتحول الليل إلى نهار ذي جلبة
وضجيج ! وكان ابن قزمان وليد هذه البيئة وهو صاحب خمر ولهو وعبث ،
فلم ينضح زجله بما نضح به الشعر العذري من عفاف وحرمان ! !
واقصر تأثيره على الشكل وحده !

وقد ذكر الأستاذ جورج كولان في بعض أبحاثه ما يستبعد معه تأثير
ابن قزمان في شعر التروبادور لهذا السبب بالذات ! ولكنه اعترف بالتأثير
الأندلسي وعزاه إلى غيره كالأخطل بن نمارة وكتاب طوق الحمامة لابن حزم
وموشحات ابن زهر وابن سهل وقصائد ابن زيدون ! (٢) والأخطل

(١) نقول بعض القصور لنؤكد أن الصلاح والمجون معاً يجدان أنصارهما في كل عصر
ونرد على من يجعل الفساد وحده طابعاً عاماً لأنه يخالف حقائق الأشياء ويغفل مقررات
الاجتماع ومنطق التاريخ .

(٢) تراجع مقالات الدكتور حسين مؤنس بمجلة الثقافة سنة ١٩٤٦ ففيها إفاضة
وإشباع وإقناع .

بن نمارة هذا من رواد الزجل الأندلسي وقد ضاع عنه فلم يبق لنا منه شيء ، ولكن حديث ابن قزمان نفسه عنه في مقدمة ديوانه قد حفظ للرائد الكبير سبقه إذ يقول عنه :

« ولم أر أسلسَ طبعاً وأخصبَ ربعاً ومن حجّوا إليه وطاقوا به سبعاً أحق بالرياسة في ذلك والإمارة من الشيخ أخطل بن نمارة فإنه نهج الطريق ، وطرق فأحسن التطريق ، وجاء بالمعنى المضيء والغرض الشريف في طبع سيال ومعان ، لا يصحبه به جهل الجهال ، يتصرف بأقسامه وقوافيه ، تصرف البازي بخوافيه » .

وعبارة ابن قزمان واضحة في تقديره على اختلال في صياغتها تلتبس أعداره من تحريف أو سقط ! وإذا كان الرجل بهذه المنزلة فلا يستبعد أن يكون بين هؤلاء المؤثرين قرن أزجاله وتستفيض قوافيه ويلمح مكانه من قريب .

أما الواقع التاريخي للأشخاص فينطق بهذا التأثير نطقاً جهيراً لا يشوبه التباس ، إذ أن جيوم التاسع دوق أكتانيا أقدم من نعرف من شعراء التروبادور ، وهو ذو صلة تامة بالثقافة العربية ، وقد اشترك في الحروب الصليبية فرحل إلى المشرق سنة ١١٠١ وأقام بالشام حقبة وهناك ألف في العربية وتعلم منها شيئاً ذا بال لأن المشرق الشهير ليفي بروفنسال روى عنه (١) ملخصاً لقصيدة تتحدث عن سيدتين قابلهما في بعض رحلاته وحيته كلتاهما بأدب جم ودار بينهما وبينه حوار عابر ، وفي القصيدة بيتان صعب فهمهما على النقاد وقد اهتدى إليها بروفنسال وعرف أن مصدر هذه الصعوبة هو عربية ألفاظهما مما يدل على أن الذوق على علم بالعربية وأن السيدتين كانتا تعرفانها فخطبهما الدوق بما يعرفان ! هذا وقد سافر إلى إسبانيا

(١) الإسلام في الغرب والأندلسي ، ليفي بروفنسال ص ٢٩٦ .

ترجمة الدكتور السيد سالم والأستاذ صلاح حلمي ط أولى .

أكثر من مرة وفي سنة ١١٢٠ ذهب إلى أرجوان ! هذه الصلات التاريخية بين رائد شعراء التروبادور وبين الشرق في الشام وأسبانيا في الغرب ثم هذه الصلة الأدبية في نظمه بعض الأبيات العربية تؤكد تأثيره بموشحات الأندلس وأزجالها فإذا نظم بعد ذلك على طريقة الموشحات في الأغصان والأقفال والتقفية وتفنن في الهيام بالحب على نمط قريب من مشارب ذوي العفة والشرف أفلا يدل ذلك على تأثير الأزجال والموشحات تأثيراً لا يجد شبهة تغميم في عين منصف أمين .

تلك حقيقة يؤكدها مع « جوليان ريبير » كل من نحأ نحوه في تأييد الصلة القوية بين الزجل العربي وشعراء التروبادور أمثال « نيكل » و « تالجرين » و « روير برينمو » من كبار المستشرقين ويعلن الأستاذ منذت بيدال اعتقاده الجازم بأن الزجل الأندلسي قد انتشر بأوروبا بقدر السرعة التي انتشر بها في الشرق ، بدليل ما نظمه جيوم التاسع ولكن معارضيه يواجهونه « بأن الدوق وبعض زملائه قد استخدموا تراكيب عروضية تتألف من ثلاثة أبيات مع جزء رابع تتردد قافيته في جميع الأبيات لكنهم يهملون استعمال المركز وهو عنصر ثابت في الزجل الأندلسي » . هذا ما قالوه وقد ذكره بروفنسال في كتابه السالف ص ٢٩٧ ثم شفعه بقوله ص ٢٨٨ :

« وانعدام البيت من جزأين قافيتهما متحدة في الشعر البروفنسي لا يعد في نظر منذت بيدال دليلاً قاطعاً لتأييد نظرية المنكرين للتأثير العربي ، وتبريراً لهذا الوضع عمد العالم الإسباني إلى تدليل قد لا يفضي إلى الإقناع الكامل ، فهو يرى أن هذا البيت قد سقط من الشعر البروفنسي خلافاً للزجل الأندلسي لأن هذا الشعر لم تكن تصحبه الموسيقى لدى إنشاده ، وإنما كان من شعر البلاط ، وينشده تروبادور يحمل آله موسيقية دون أن يردد البيت أحد من الحاضرين وكانوا يقتصرون على عدد قليل من الناس هم السيد والسيدة وبعض الأقارب والأتباع » .

ونحن نعلم أن الموشح كالزجل في الأدب الأندلسي لم يأخذ طابعاً خاصاً لا يجيد عنه حتى نبعث عن علة سقوط المراكز في أواسط المقطوعات !

فكل وشاح أو زجال كان يجتهد في ابتكاره وتكراراً وحذفاً وتقفية ووزناً!!
والأمر في الزجل أيسر وأيسر! فمن الجائز أن تكون هناك أزجال وموشحات
لم نرها لا ترى الالتزام الصارم بالمركز في الوسط أو المطلع بل تحتفي به في
الآخر فقط! ونسير إلى أبعد من هذا فنقول ألا يجوز لحيوم أن يحدد قيد
أتملة عن نماذج الموشحات والأزجال، وهل إذا خالفها في شيء ووافقها
في أشياء لا يكون متأثراً بها، ثم لماذا تكون مخالفته النادرة دليلاً على عدم
التأثر عند هؤلاء ثم لا تكون موافقاته الكثيرة ذات ترجيح وتدليل إن لم
تكن ذات جزم وإيقان.

وقد وقف الأستاذ جانروى موقفاً وسطاً بين المعارضة والتأييد، فهو
يسلم باحتمال التأثير فقط ولكنه لا يقطع به إذ ربما كان التركيب الزجلي
في رأيه مقتبساً من الشعر اللاتيني في العصر الوسيط، والرد عليه من أبسط
الأشياء وأهونها لأن الذين يرون تأثير الشعر اللاتيني مفترضين، قد عجزوا
عجزاً تاماً أن يثبتوا مثلاً واحداً للغناء اللاتيني في الصور الست المختلفة
للدور يشترك مع الزجل العربي في نظام، حتى يقال إن التأثير قد جاء من
الأصل اللاتيني! وإذا كان الزجل قد ظهر قبل شعر أول شاعر لاتيني
معروف بقرنين من الزمان فلا شك أن الأغنية اللاتينية الحديثة مشتقة من
الأغنية العربية الأندلسية لا أن يكون العكس هو الصحيح (١).

على أن مما يوقف النظر في هذا الموضوع صراع الباحثين حول شعر
التروبادور إذ بدا به تعقيب منحرف عن الحق، فبعض مؤرخي الألمان
ينكرون قيام أي صلة ما بين شعرائهم المنشدين وبين زملائهم من الأسبانيين
والفرنسيين ويرون أن شعرهم الغنائي وليد الأغنية الألمانية الشعبية! وهم
في ذلك يتفقون مع منطقتهم الذائع في تفصيل مواهبهم وارتقاء مثلهم عن
الناس حتى الآريين الذين هم بعضهم، إذ أن درجات الآرية تتفاوت
صعوداً وهبوطاً وفق درجات الشعوب! أما المؤرخون الفرنسيون فقد

(١) الإسلام في إسبانيا ص ١٢٠ للدكتور لطفي عبد البديع.

سخرُوا من الألمان في ذلك لا ليرجعوا الحق إلى نصابه بل ليزعموا أن شعر التروبادور نشأ أول ما نشأ في شمال فرنسا لا في جنوبها وكأنهم بذلك يريدون أن يقطعوا كل صلة تمت إلى الشعراء العرب بالأندلس ! ولكن الحق لا يعدم أنصاره بين أولئك وهؤلاء فقد أنصف مؤرخوا الطليان العرب وأقروا أن جذور أشعارهم نبتت في أرض الأندلس ، ولهم كتب خاصة بتفصيل هذا الموضوع وقد استشهد الأستاذ محمد مفيد الشوباشي في كتابه العرب والحضارة الأوروبية بعالمين كبيرين غير من أشرنا إليهم قبل ذلك تحدثا بإخلاص عن هذه الحقيقة فذكر قول (بريفو) في أول صفحة من كتابه « الشعراء التروبادور » (١) « نشأ لون جديد من الأدب في جنوب فرنسا خلال القرون الوسطى بينما كانت ملاحم الإغريق الوثنية في ذلك الوقت هي التي تستثير مشاعر الناس ، وهذا اللون الجديد أجنبي كذلك عن فرنسا وقد جلبه إليها شعراء التروبادور الذين أغنوا به اللغة الفرنسية المحلية ، وأحدث في المجتمع الفرنسي الإقطاعي أثراً بليغاً بما عبر عنه من عواطف ظاهرة سامية ، وذلك بعد أن أنف ذلك المجتمع من بربريته متأثراً بالتيار الحضاري المهذب الذي هب عليه من الأندلس العربية بعد أن تهباً لتذوق الشعر المهذب » .

كما نقل الأستاذ الشوباشي عن « بيرديه » في كتاب « القصة في سبعة قرون » قوله : « نشر العرب في الأندلس خلال القرن العاشر الميلادي حضارة جديدة وابتدعوا شعراً غنائياً إنسانياً حمله شعراء التروبادور إلى الشمال ، وتدل المراجع التاريخية على أن القصور الأندلسية بعد أن احتلها الإسبان ، كانت تزخر بشعراء العرب الذين وقعوا في الأسر ، بينما كانت الحرب لا تزال دائرة بين الإسبان والمسلمين ، ومن السخف أن يتجنب مؤرخو الأدب الفرنسي هذه الوقائع الثابتة بالأدلة المسجلة » .

(١) العرب والحضارة الأوروبية ص ١٠٢ للأستاذ محمد مفيد الشوباشي .

ومن الإطناب الزائد أن نفيض في أمثال هذه النقول المنصفة إذ تحتشد بها المؤلفات الأخيرة شرقية وعربية ولكننا نكتفي بما تقدم لنذكر أثر العرب في خلق روح غزلي جديد ينمى أوروبا ويهب على أقطارها مضمخاً بعبير الإخلاص والوفاء والشوق والتضحية بعد أن كانت آدابها السالفة لا تستلهم في ذلك غير الأدب الإغريقي وحده وهو في أكثره متجه إلى الحب الفاجر وانصراف الزوجة إلى العشيق دون الزوج وملاحم اليونان تضج بشهوة الجسد واتقاد الرغبة واغتصاب الحسان وإزهاق الأرواح في استهتار وما أبعد ذلك كله عن شعر الحنين والضراعة والعفة الذي بعثه الأندلسون ثم تأرجت به أوروبا حين حملته نسيمات التروبادور . . .

أجل كانت أوروبا لا تعرف في أشعارها غير آلهة الملاحم الإغريقية ووحوش الجبال الأسطورية وخرافات الغابات المليئة بالأشباح والغيلان والبحار المزدحمة بالجن والمردة ثم انقلب المسرح فجأة على يد الأندلس فكانت كتابة ابن حزم وأشعار ابن زيدون وأغاريد بني عذرة لحوناً جديدة توقظ الأرواح الغافلة وتتجه إلى تحليل المشاعر الإنسانية ، وتشريح النوازع العاطفية ، وتجعل قلوب العاشقين أقطاراً فسيحة تمتليء بالشوق والأسى والشجن ، وتمور بها عواطف الحرمان والقنوط والحيرة ! مما مهد لأدب جديد يتصل بالنفس الإنسانية ، ويرى به القاريء هواتف صدره وهمسات جوانحه ونبض عروقه ! وتلك كانت وما زالت رسالة الأدب الحي في لبابه الصميم !

ومما يدهش حقاً في مجال المقارنة اقتفاء شعراء التروبادور آثار الأندلس شبراً بشبر ! حتى فيما يستغرب فيه الاقتفاء ويستبعد فقد اتجه الزجل الصوفي على يد « الشتشري » من الموضوعات الدنيوية إلى الآفاق العلوية فانطلق يمجّد الخالق الأعظم ، كما سبقت موشحات ابن عربي الصوفي الذائع الصيت الى هذا الضرب من الهيام الروحي ! فظهرت آثار ذلك كله في شعر التروبادور إذ أصدر الأديب المسيحي رامون لول وكان يعرف

العربية معرفة جيدة مناجاته الإلهية في رسائل المحب والمحجوب ! بل إن تقليد التروبادور للأندلس لم يقف عند المجال الأدبي وحده إذ تعداه إلى أسلوب الحياة ! فيذكر المؤرخون مثلاً عن ابن قزمان أنه في خريف حياته تنسك وتزهد ولزم المسجد فارغاً للصلاة والتسبيح والتوبة والحشوع ، وهم يذكرون نظير ذلك عن زعيم التروبادور جيوم التاسع حيث تصنع التوبة والزهد إلى الدير ضارعاً تائباً ! وكم لهما من أشباه في خواتم أمره .

ولا نحب أن نحتم هذا الباب دون أن نمتنع القاريء العربي ببعض ما نفحننا به شعراء التروبادور حين حاكوا الحب العذري فذابوا ضراعة ولهفة وحنيناً وانطلقت شواردهم السائرة تذكر بابن داود وعروة وجميل وكثير وقيس وابن حزم !! ننقل ذلك عن ترجمات الباحث العربي الدكتور حسين مؤنس فهو من أعرف كتاب العرب باللغة الإسبانية ومن أقدرهم على استشفافها وتعريبها مقدره تسدى إلى الحقائق الأدبية جزيل النفع ، وتمدها بالجد النفيس ! وها هي ذي بعض المترجمات :

« إن ما تبعته الحبيبة من الغبطة في النفوس ليشفي العليل ، وإذا غضبت على أحد فغضبها كفيل أن يقتل أوفر الناس صحة وشباباً ، وجمالها يسلب أعقل العقلاء لبّه ، ويفقد أجمل الناس جماله ، ويستطيع أن يحيل أوفر المهذبين شريراً ذميماً ويجعل من الشرير إنساناً كريماً » .

« وعندما يأخذ نهار الربيع في الطول ، أجد في نفسي لغناء الطير وقعاً جميلاً فإذا انقطع عني هذا الغناء ، تحسست في أعماق نفسي آثار حب بعيد . فتجدني إذ ذاك غريقاً في الفكر ، حزيناً خافض الرأس ، إذ ذاك لا أجد لغناء الطير لذة ولا للزهد فتنة » .

« ليس بعجيب أن يكون غنائي أجمل من غناء أي إنسان غيري إذ أنا أشد الناس خضوعاً للحب وانقياداً لأمره فإن قلبي وجسمي وفهمي وحسي وجاهي وقوتي كلها رهين بأمره » .

الأندلس معبر القصة العربية إلى أوروبا

يحلو لبعض الكاتبين أن يعتركوا في غير معترك ، إذ يلوكون الأحاديث المعادة حول مكانة القصة في الأدب العربي القديم ما بين معترف ومنكر ، وكان الظن أن امتداد الزمن مع هذه المناقشات يصل بها إلى رأي حاسم ، ولكن شهوة الجدل تجعل منها معركة دائمة ، والحق سافر وضيء ، فنحن نعرف بداهة أن حب القصة يكاد يكون غريزة في النفس البشرية ، ففي كل مجتمع بدائي أو متقدم يتقابل الناس فيحكون ويروون ، وأخبار العرب القدامى تروى كثيراً مما كانوا يسمرون به من أقاصيص فيها المثل والحرافة والقصة ، حتى عرف بينهم قصاصون تروى عنهم هذه الأنواع ، وامتلأت بها الكتب القديمة ، فإذا كانت القصة في معناها الساذج أمراً فطرياً يختلط بالنفس وتهوى إليه الأفتدة ، ففيم النقاش في غير مجال ؟

وقد تعرضنا في موضوع الملاحم إلى ما يقال عن قصور الذهن السامي عن التفكير الكلي فما يقدر أن ينتج ملحمة أو قصة ، وعقبنا عليه هناك بما نملك من براهين ، ونريد الآن أن نتعرض إلى ما يقال من أن السبب في ضعف القصة العربية عند قوم وفقدانها نهائياً عند قوم آخرين هو الصحراء المجذبة التي عاش فيها أجدادنا العرب ، حيث لا تنوع في المشاهد ولا افتتان في المناظر ، بل رمال ممتدة ، ورياح هائلة ، وشمس محرقة فلا غابات تشق الفضاء بأشجارها الفارعة ، ولا كهوف تتحدث عن شعوب كانت تأوى إليها ، ولا قمم يكسوها الثلج بل كئيبان وتلال وجبال موحشة جرداء مما يقصر بالخيال عن التحليق ، وهذا إغراق واهم لأن الصحراء قد ملأت على العربي حياته بحيواناتها ورحلاتها ومعاركها وإشراق مجيهاها في الصباح. وتألقت نجومها في الليل وقد ألهمته في دنيا الشعر عرائس فاتنة ، ولدينا

من قصص العرب في الجاهلية وصدر الإسلام مجلدات ذات أجزاء . . وهي وثائق مادية تجابه ما يفترض المفترضون من خيالات ! !

وسيلنا الآن أن نتحدث عن دور القصة العربية في إنماء هذا الفن بالأدب الأوربي ، حيث وفدت إليه من جهات مختلفة ، أكبر جهة منها الأندلس العربية المسلمة وقد كان من بين تأثيرها الملموس أنها في نطاق القصة غيرت كثيراً من طابع الملحمة في ذكر الخوارق والتحليق مع الخيال وجذبت الرواية الأوروبية إلى نطاق واقعي يتحدث فيه القاص عن المجتمع الراهن بشخصياته العادية فمضت تعالج المألوف المشهود وكانت روعتها أن تسرد على الناس ما يشاهدون ويلمسون في إطار في محكم ، وصار البطل إنساناً عادياً يتألم ويأس ويأمل ويفرح ويحزن . وليس ربا من الأرباب يحطم منطق الحياة ليأتي بالمعجزات . تم ذلك كله على يد لون من ألوان القصة العربية ، وهو المقامة ، فإذا أضفنا إليه أثر الألوان الأخرى في نهضة هذا الفن ، حفظ الباحثون للعرب مكانهم الأدبي في مضممار حي يُخيّل إلى الناس أنهم عالة فيه على غيرهم ، والحقيقة التي يشهد بها التاريخ أنهم أمدوا القصة الأوربية بمقومات رائعة ثم أتيح لهم أن يغفوا إغفاءة طويلة تقدمت أثناءها الرواية الأوربية تقدماً واثباً ، حتى استيقظوا من سباتهم ففتحو عيونهم على نمط جديد من الإبداع ، فانطلقوا في عصرنا الحديث يحاكونه ويستلهمونه ولا يدرون أنهم شاركوا في بنائه حين كان لبنات متواضعة لا ترتفع قليلا عن مستوى الأرض ، ونحن لا ننكر الحق على أصحابه حين نعرف الآن لهذا الفن بالنضوج والاكتمال في أوربا ، ولكننا نطالب مع ذلك أن ينظر إلى أثرنا البارز في نشأته ، وهو أثر تنطق به الحقائق دون افتعال ! ! !

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه أثر العرب في الحضارة الأوروبية (١) . « والذي نعتقده على أية حال أن العقل يأبي كل الإباء أن

(١) أثر العرب في الحضارة الأوروبية ص ٦١ ط أول للعقاد .

قيام الأدب العربي في الأندلس يذهب من صفحة التاريخ الأوربي بغير أثر مباشر على الأذواق والأفكار والموضوعات والدواعي النفسية والأساليب اللغوية التي تستمد منها الآداب . . . وقد اقترنت بموضوعات الأدب العربي أسماء طائفة من عباقرة الشعر في أوروبا بأسرها خلال القرن الرابع عشر وما بعده، وثبتت الصلة بينهم وبين الثقافة العربية على وجه لا يقبل التشكيك أولاً يسمح بالإنكار ونخص منهم بالذكر بوكاشيوو دانتي وبترراك الإيطاليين وشوسر الإنجليزي وسرفانتيز الإسباني وإليهم يرجع الأثر البارز في تجديد الآداب القديمة بتلك البلاد» .

وستتبع الآن خطوات هذا الأثر المباشر في مضممار القصة لنرى كيف اشتد جسمها الواهن بدم فائر منحه حرارة الفناء ونشاط الشباب .

كانت مجموعة (أدب العلماء) أول كتاب يضم بين دفتيه قصصاً عربية ذات طابع إسلامي ، وقد ألفه يهودي تنصر سنة ١١٠٦ وشهد تعميده الفونسو الأول ملك أرغوان وقد جمع ثلاثين أقصوصة عربية أو شرقية جاءت عن طريق الترجمة العربية فترجمها إلى اللاتينية، وقد اعترف صراحة بأصلها العربي ، لأنه يعلم عن يقين انجذاب القراء في الأمم اللاتينية إلى نوع جديد من الفن يتشوقون إليه ، ويعرفون ما لأصحابه من التفوق الفكري والنضوج الحضاري ، واجو العربي الإسلامي - مع أن المؤلف راهب نصراني كان يهودياً من قبل - يملأ مجموعة أدب العلماء ، وهي بعد تتجه وجهة المواعظ والحكم ففيها ذكر للقمان الحكيم وقصص عن تاجرين أحدهما مصري والآخر بغدادي يذهبان إلى الحج في مكة ، وقصة عن الوفاء والشرف بطلها أسباني مسلم يتوجه إلى بيت الله الحرام ! وما جاء في المجموعة عن سقراط وأرسطوليس مما عرفه الكاتب عن أدب اليونان ولكنه مما ترجمته العربية لفلاسفة الإغريق في كتبها الذائعة وقد ترجم الكتاب - كما يقول الدكتور لطفي عبد البديع في كتابه الإسلام في إسبانياص ١٢٨ - إلى اللغات الأوربية ونظم شعراً بالفرنسية في القرنين الثاني عشر والثالث

عشر مرتين (كما نظم كتاب كلية ودمنة في العربية من قبل) والمؤلفون القصصيون في أوربا عالة عليه فيما أوردوا من قصص حاكوه في بعضها واقتبسوا منه في البعض الآخر ، مثل دون خوان ما نويل وألاربتز ستادي هيتا وبوكاشيو وشوسر وغيرهم والطريف أن هذا المؤلف الذي يجمع كتابه القصصي من ثقافة العرب يسمي نفسه (خادم المسيح) ويقول إن قصص الكتاب توقف على ما في العقيدة الكاثوليكية من كمال مع اعترافه بالأصول العربية في مقدمة الكتاب اعترافاً لا تنقصه الأدلة ومن يقرأ قصة فرسان مصر وبغداد يجد نفسه في كتاب ألف ليلة وليلة مما يدل على وجود أجزاء منه بالأندلس إذ ذاك ! ! وقد اشتهرت في الأدب الغربي قصة أبي القاسم ونيكلوت وقد ألفها الشاعر الفرنسي « أولدأنينف » في القرن الثاني عشر من الميلاد وهي تشبه إلى حد كبير قصة روميو وجوليت لشكسبير حتى جزم كثير من النقاد برجوع الشاعر الانجليزي الكبير إلى الرواية الفرنسية ، والقصة الغرامية عربية منقولة عن الأندلس ، فأبو القاسم بطل القصة كان أحد حكام قرطبة في القرن الحادي عشر ، وسياق القصة في تركيبها الأدبي نثراً يروي الوقائع وشعراً ينفس عن عواطف البطل مما يذكر أيضاً بألف ليلة وليلة وكان المظنون أن هذا الكتاب تسرب إلى أوربا من الشرق أثناء الحروب الصليبية بل جزم بعض الذين تحدثوا عن بوكاشيو بذلك جزماً لم يترك معه احتمالاً لغيره - ولكن امتلاء الأدب الإسباني بمتشابهات حوادثه يدل دلالة قاطعة أن أجزاء كبيرة منه رحلت إلى الأندلس العربية قبل أن تفد مع العائدين من الغزوات الصليبية بأمد كبير ! ! وإلى هذه الأجزاء الأندلسية وحدها يرجع كل ما جاء في مدونة ألفونسو الحكيم مقتبساً من ألف ليلة وليلة مما كان ملهماً للكاتب الإسباني لبادي فيجا المسرحي الشهير وقد عقب على ذلك الأستاذ الدكتور أحمد لطفي عبد البديع بقوله ص ١٣٦ من كتابه السابق (١) .

(١) الإسلام في أسبانيا ص ١٣٦ .

« وما يدل على أن الكتاب كان شائعاً بين الناس في آخرة العهود الإسلامية بإسبانيا أن بعض قصصه قد رواها الموريسكيون باللغة الأعجمية التي كانوا يكتبون بها كقصة قصر الذهب وما إليها ، هذا إلى أن الباحثين تعقبوا طائفة من موضوعات قصص شهر زاد فوجدوا لها صدى في قصص أسبانية ومن ذلك المعجزة الثالثة والعشرون لبرينو وفيها يقذف المدين في البحر أموالاً تصل إلى الدائن ، وقصة ملك اليمن وأبنائه الثلاثة التي تنسب فيها البطولة إلى من ليس بطلا تُشبهه قصة الوعل ذي القدم البيضاء وقصة الغيور العجوز عند سرفانتيز ، لها أصل في قصة القاضي وابنه التاجر» .

وقد أفاض الدكتور في نحو ذلك من ص ١٣٥ - ١٣٨ من كتابه المشار إليه .

هذا بعض أثر ألف ليلة وليلة في الأدب الأوربي ، أما أثر المقامات فلا بد أن تقف عنده متمهلين !

كان أسلوب المقامة المسجوع ورسفه في أغلال الصنعة البديعية مما باعد بينها وبين كثير من الأدباء ، حتى خفي عليهم مغزاها الاجتماعي ووصفها الإبداعي لعصر مضطرب متناقض من عصور التاريخ ! فوجدنا من أعلام الكاتبين من يصمها بما لا تستحق - فهي في رأي الأستاذ سلامة موسى وفي رأي الدكتور أحمد أمين ، أدب مكر واحتيال يصطنع بطله جميع المهن والحرف ليسلب أموال الناس ، هو مرة قراد يسير بقرده ليجمع الناس في حلقات فيضحكهم ويأخذ من أكياسهم ، وهو مرة واعظ محترف يلج المساجد لتدمع عينه ويرتل آيات الذكر ورقائق الوعظ وسير الصحابة ويتحدث عن مشاهد القيامة وأهوال الجحيم لتعطف عليه القلوب فيرجع مليء الوطاب بالدوانق والدراهم ، وهو مرة ثالثة ينحط إلى دركات وبيئة فيسرق أكفان الموتى ويُجمّل خادمه ليوقع في حبه المتهورين ويتخذ الفصاحة وسيلة هذا الكسب الذميم ! ! والحكم على المقامات من همدانية

وحريرية بالانحطاط الخلقى والإسفاف النفسي خروج بالحق عن طريقه القويم ، لأن من البداهة أن مؤلف الرواية حين يجعل أبطاله من نمط شاذ لا يصور نفسه في شيء ولكنه يرسم إحدى الصور لوقائع مجتمعة ، وألوان مصره وهو اجس معاصريه ، فالغرض الحقيقي من نظم المقامات هو تصوير جانب من جوانب الحياة الاجتماعية في القرن الرابع وما يليه ولذلك تعرض البديع وتابعوه لوصف ما يرون من مثالب تقع عليها العيون ، ورسم ما يتفنن فيه المشعوذون والدجالون من أنواع المكيدة وضروب الاحتيال كما يكشفون ألعيب الماكرين من ذوي الصلاح الكاذب والنفاق المسموم مما لانزال نراه في عصرنا الراهن ، وإذا كان تصوير المجتمع من أهم خصائص الأدب الواقعي في عصور الحضارة والتقدم فإن المقامات قد انتحت هذا المنحى فعرضت صوراً صادقة لما كانت تموج به الدنيا من خديعة واحتيال !! صحيح أن البطل الواحد كأبي زيد السروجي عند الحريري مثلاً لا يمكنه أن يتقمص جميع الشخصيات في كل المقامات ، فهو تارة واعظ وتارة مهرج وتارة أستاذ مدرسة ، وطوراً طبيبٌ مرضى ، مما يتعذر فنياً قبوله ، وهو نقد وجه إلى الحريري والهمداني ، ولكن الناقلين يغفلون شيئاً هاماً هو أن أبا زيد ليس مؤلفاً وإنما هو ممثل فقط ، والممثل يأخذ عن المؤلف ويلبس لكل حالة لبوسها بإتقان فهو في مسرحية طبيب وفي أخرى مدرس وفي ثالثة محام ! أما كاتبُ القصة فله من سعة أفقه ما يستطيع به تصوير الأشخاص المتناقضة كما يشاء ! وهل يُعاب على شكسبير مثلاً أنه وصف جميع الناس في مسرحياته أو يحسب له ذلك في مجال التفوق والأبداع !! وإذا كانت هذه المقامات الرائعة قد وجدت من يزدريها من كتاب العرب وأدبائهم فإنها وجدت فيلسوفاً فرنسياً ذائع الصيت كأرنست رينان يقول عنها في إعجاب ، نقلا عن ترجمة الأستاذ الكبير صديق شيبوب بالبصير ٢/١٢/٦١ (١) .

« يجب علينا أن نتأمل كيف قاد الحريري شحاذه في خمسين موقفاً مختلفاً بقوة اختراع عجيبة ودقة تأمل في الأخلاق والعادات لنعلم المهارة

(١) جريدة البصير الاسكندرية ٢ / ١٢ / ٦١ ص الحياة الأدبية .

والغربة التي تنطوي عليها فكرة المقامات ، أرادوا أن يضعوا للقرن التاسع عشر مهزلة بشرية (يشير رينان إلى مجموعة بلزاك المسماة بهذا الاسم) فلم يعرفوا كيف يجعلونها في قالب مقبول في حين حقق الحريري هذه الفكرة للمجتمع الإسلامي في القرن الثاني عشر ، أما بلزاك فقد نقصته شخصية أبي زيد التي لا تكاد تلمسها حتى تفلت ، والتي تمثل في تهكم أدواراً مختلفة فلا يتبين في الحارث بن همام من خلال هذا كله إلازي ممثل هزلي عجيب .

انتقلت هذه المقامات إلى الأندلس واحتفى بها أدباؤها شرحاً ونقداً وتعليقاً ، ومنهم من أنشأ على غرارها مقامات مشهورة كمقامة أبي حفص عمر بن الشهيد ومقامة أبي محمد بن مالك القرطبي ومقامة عبد الرحمن بن فتوح ومقامة ابن المعلم وكلها مذكورة في ذخيرة ابن بسام ، كما وضع الدكتور إحسان عباس بالجزء الثاني من كتابه عن الأدب الأندلسي في صفحات ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ فهرساً طويلاً بمن عثر عليه أو سمع به من كتاب المقامات بالأندلس ، هذا الفهرس الطويل ذو الصفحات الأربع يطلعنا على مدى اهتمام الأدباء بمعارضة المقامات ، واحتفالهم بها احتفال المقدّر العارف ! أما من شرحوا مقامات الحريري بالذات من شيوخ الأدب بالأندلس فكثيرون نذكر منهم عقيل بن عطية المتوفي سنة ١٢١١ م وأبا العباس أحمد الشريشي المتوفي سنة ١٢٢٢ م ثم ترجمت أيضاً إلى اللغات العبرية واللاتينية مما دعا علماء ، الأدب المقارن إلى القول بتأثيرها في إيجاد قصص الشطّار المعروفة بالأدب الإسباني ، فاتجه الكتاب الروائيون بإيحائها إلى التحدث عن أحوال المجتمع وظروف الأعمار من الناس ، وأخذوا يفتحون عيونهم على ما يشاهدونه من خوالج الفرد العادي وكفاحه في محيطه واحتياله على اقتناص رزقه ثم أبدعوا روايتهم في هذا الاتجاه الواقعي متناسين هذه الأحلام الهادئة التي كانوا يملأون بها قصصهم الخيالية قبل ذلك متخذّرين بأناشيد الرعاة ، وتم لهؤلاء الأسبان من وراء ذلك كله قيادة الأدب الأوربي إلى عالم الواقع الملموس .

وقد اهتم الأستاذ الدكتور محمد غنيمي هلال بهذا التأثير الواقعي في كتابه (الأدب المقارن) فضرب كثيراً من الأمثلة الناطقة باقتباس (قصص الشطار من أدب المقامات ، ونص على أن أول قصة من هذا الضرب القصصي في الأدب الإسباني كان عنوانها « حياة لاسوريو » ومحتته وقد نشرت أول مرة سنة ١٥٥٤ ، وفيها وصف لطفل بائس كان ابناً لطحان فقير ، سجن والده لجريرة صغيرة كانت منه ومات في السجن دون عائل يرعاه ، فبدأ حياته شحاذاً يتسول ، وقد اهتدى في حرفته الحقيبة بأعمى متمرس كان يسن له طريق الشحاذة ، ثم يختلفان بعد حين لشراهة الأعمى وطمعه في ابتزاز صاحبه فيتركه ليعمل خادماً لدى قسٍ محترف يعيش على أموال الصدقات ، ويشاهد غرائب عجيبة من بخله وجشعه وأثرته ثم يتركه هو الثاني إلى خدمة نبيل يتشدد بعراقة منبته وهو فقير لا يكاد يجد ما يأكل فيضطر إلى أن يتسول لحسابه ويعطيه من كسبه الشحيح ! والسيد النبيل يتعجرف عليه ويأبى أن يجلس معه على مائدة واحدة لأنه سؤفة وهو نبيل ! ثم ينطلق إلى خدمة غيره فيرى من فضائح الشرف وهتك العفاف في أوساط دينية وملكية ما ينغص له الحياة » . هذه عناصر أول قصة تمثل أدب الشطار ، وصلتها بالمقامة لا تحتاج إلى تبين // هذا وقد أفاض الدكتور هلال في الحديث أيضاً عن قصص الفروسية في الأدب الأسباني وجعل الأدب العربي ملهمها الأول ، ووضح الصلات القوية بين أقاصيص كريتيان تروا ، وسان بدروا وجارثي أوردونيس في صفحات ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ (١) من الطبعة الثالثة وبين أقاصيص الفروسية والحب العذري لدى العرب ، ولم ينس المقامات في مطافه حيث عقد مقارنة هامة بين المقامة البشرية ذات القصيدة المشهورة للبديع :

أفاطم لو شهدت ببطن خبت وقد لاقى المزيير أخاك بشرا
إذن لشهدت ليثاً أم ليثاً هزبرا أغلب لاقٍ هزبرا

(١) الأدب المقارن ط ٣ للدكتور محمد غنيمي هلال من ٢٠٨ إلى ٢١٢ .

وبين قصة لانسيلو « الفارس ذو العربة » إذ يلاقي البطل محناً متوالية في تخلص حبيته من السجن ، فيعبر على جسر حاد كنصل السيف فوق نهر مروع هائل يُسمى نهر الشيطان ولا يستمع تحذير إخوانه ثم ينزل أسديّن رهييبين في معركةٍ ساخنة ينتقل منها إلى مصارعة العملاق العنيف « ميليا جان » كل ذلك ليحوز رضا معبودته الحسنة ؛ وبطل البديع بشر بن عوانة من هذا الطراز فهو يقوم بمغامراته الجنونية ليفوز بحبيته التي تحتجب عنه في قصر أبيها ويصارع الآساد والحيات مما يوحي بالتقارب الداني بين الاتجاهين !!!

ومؤرخو الأدب يذكرون أنّ أول قصة ظهرت في أوروبا تمثل الاتجاه الواقعي بعد أن كافحت في سبيل الظهور آماًداً طويلة هي قصة (باملا) للكاتب الإنجليزي (رتشردسن سنة ١٧٤٠) وكان ظهورها وليد المصادفة إذ طُلب من المؤلف أن يكتب سلسلةً من الرسائل التعليمية بتثقيف الطبقة الوسطى ممن لم يُصيبيوا حظاً من التعليم فخطر له أن يبدعها في نهج قصصي ليكون أشوق وأجذب فأحدث دويّاً رناناً لم يكن يتوقعه المؤلف وهي في مضمونها تعالج مسائل العفاف والشرف والتوبة والندم وقد جذبت الأنظار أثناء تأليفها حتى كان القراء الذين يتابعون القصة مسلسلة في أبواب يلاحقون الكاتب ليخفف من وطأة حكمه على (كلاديسا) إحدى بطلات القصة ! واعتبرت بذلك أول قصة واقعية تتحدث عن مجتمع مشاهد متطور وأشخاص يرون ويسمعون ، وجاز لبعض النقاد أن يبالح فيضع (رتشردسن) في مصاف هوميروس وشكسبير ! ! ولك أن تسأل عن بذور هذا الأدب الواقعي فتجده في المقامات المترجمة الى اللاتينية ثم في قصص الشطار الإسبانية المتفرعة عنها ثم فيما يلي ذلك من الروائع حتى تصل أخيراً إلى كبار القصاصين العالميين من أمثال هيجو ودي موباسان وتشيكوف وعشرات من نظرائهم .

لقد تحدثنا عن ألف ليلة وليلة و عن المقامات ، ولا بد أن نختم القول بكلمة عن كليلة ودمنة وأثره العميق في أدب القرون الوسطى وما تلاها إلى

اليوم ، وكتاب كليلة ودمنة هندي نُقِلَ إلى العرب عن طريق فارس !
ولكن الأصل الهندي كالصورة الفارسية مفقودان لم يعثر عليهما باحث
في تراث الهند والفرس ، حتى تُرجم إلى الفارسية من العربية نفسها ، ولك
أن تضحك لهذه المفارقة حين يحتاج أدب من الآداب إلى ما أعاره أدباً آخر
فيعود إليه ثانية بعد تحوير وتعديل لم يكونا لديه ! وأقول بعد تحوير
وتعديل لأن ابن المقفع حين نقل الكتاب إلى العربية تصرف فيه ببعض
الزيادة على سبيل الخزم وبعض النقص على سبيل الاحتمال ، يدل على ذلك
ما حكاه البيروني وقد قرأ الأصل الهندي وشاهد تصرف ابن المقفع فهم
بترجمة جديدة للكتاب لا ندري أصرفته عنها شواغله الكثيرة أم أنه أبدعها
ثم غرقت في خضم الضياع !

يقول أبو الريحان البيروني في تحقيق ما للهند من مقولة :

« ولهم - للهند - فنون من العلم آخر كثيرة وكتب لا تكاد تحصى
ولكني لم أحط بها علماً وبودي إن كنت أتمكن من ترجمة (ينج نرا)
وهو المعروف عندنا بكتاب كليلة ودمنة فإنه ترددين الفارسية والهندية
ثم بين العربية والفارسية على السنة قوم لا يؤمن تعبيرهم إياه ، كعبد الله
بن المقفع في زيادته (باب برزويه) فيه قاصداً تشكيك ضعيفي العقائد
في الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب ألمانية » .

وقد تزيد البيروني على ابن المقفع فاشتط في حكمه عليه بالظن لا باليقين
ومهما كان من شيء فالنسخة العربية المقفعية هي التي سلمت من الضياع ،
وبقيت أصلاً لهذا النوع من القصص ، وقد سافرت إلى الأندلس فيما سافر
من كنوز اللغة العربية ، وقد ثبت أنها تُرجمت بيقين إلى اللغة القشتالية
سنة ١٢٦١ بناء على أمر الملك القشتالي ألفونسو الحكيم وبذلك تكون إسبانيا
أسبق الأمم الأوربية إلى قراءته والاستفادة منه .

فإذا ظهرت بعد ذلك قصص (الفابليو) وانتشرت في فرنسا انتشاراً
جعلها على كل لسان ، وكان بينها ما أخذ نصاً من كليلة ودمنة فذلك

دليل على تأثير الكتاب في الأدب الفرنسي ! وإلا فماذا يقال في قصة تُذكر بحوادثها وأشخاصها مطابقةً لقصةٍ سابقةٍ في كتاب ذائع معروف ، لقد دافع بعض النقاد مثل « جوزيف بيدييه » بأن التشابه بين القصص الخرافي لدى الشعوب لا يدلّ على نقل وتأثر ، لأن الشعوب الفطرية تتلاقى في تخيلاتهما وتصاويرها تلاقياً عفويّاً من قبيل توارد الخواطر فقط ! وهذا مسلم إذا كان التشابه في الإطار العام أو الرّوح المسيطر ، أما أن يكون في الأجزاء الدقيقة والتفاصيل الخاصة فهذا ما يتعذر قبوله ! قد تُخترع قصة عن مكر الثعلب في أكثر من أدب ، دون أن يتأثر لاحق بسابق إذ أن الفكرة العامة عن الثعلب هي الخديعة والاحتيال ، وإنها لتكوّن إطاراً لكل ما يمكن أن يندرج فيه من عناصر المكر وأساليب الدهاء ، أما أن تكون القصة عن الثعلب مطابقةً في جميع خطواتها لقصةٍ سابقةٍ فإنّ مما تنكره طبائع الأشياء أن تكون الموافقة إذ ذاك عفوية اعتبارية بل لك أن تحكم بالتأثر مهما انقطعت وسائله التاريخية عن عينيك ، فالتّمائل المطابق هنا فوق النصوص الجازمة بالتأثر ! بل إذا فُرض أن هذه النصوص التاريخية قد وُجِدَت فعلاً ولم يوجد معها مثالُ التأثر فهي مدعاةُ شك وارتياب ، أما إذا عكس الأمر كمسألتنا هذه فوجد النص وعزّت الوسيلة ، فلنا أن نحكم بالتأثر إلى أن تتمخّض الأيام عن نصٍ تاريخي يشفعُ في تأكيد الصلة فقط ، ولكن اختفائه لا يوهنها بحال .

لقد كان فيما روي من أقاصيص (الفابليو قصة) اللص الذي حاول أن يتسلق ضوء القمر ، وملخصها أن « سارقاً اعتلى بيتَ ثري من الأثرياء في ليلة مقمرة فشعر به صاحب المنزل ، فطلب من امرأته بصوتٍ خفيضٍ أن تسأله في إلحاحٍ كيف جمع ثروته ؟ فتسأله ؟ ويُجيبها بعد تمنّع أنه جمع ثروته من السرقة وأنه كان يتلو رقيةً سحريةً فيحمله ضوء القمر إلى داخل المنزل ليجمع ما يريد ، ثم يتلو الرقية ثانية فيرفعه ضوء القمر ليخرج سالماً ، وهذه الرقية هي كلمة « سول » ينطقها سبع مرات وإذ ذاك ينخدع اللص بما سمع وينطق بالرقية ثم يسلم نفسه إلى الضوء ليقع فنقطع

أوصاله وتُكسر ساقه اليمنى وزراعته ويدركه صاحب المنزل فيقول له
اللس : قد سمعت نصيحتك لسوء حظي وعملت بها وهأنذا أحتضر(١) .

هذه الأقصوصة مأخوذة من كليلة ودمنة في باب برزويه وليس بينها
وبين قصة الكتاب العربي غير اختلاف في كلمة واحدة وهي كلمة الرقيا!
أما جميع الجزئيات والتفصيلات فواحدة ! ومعنى ذلك أن تأثير كليلة ودمنة
مبدئياً في قصص الغابليو أمر لاشك فيه !

أما انتشار نصائح كليلة ودمنة في الأوساط المسيحية فأنبه من أن يشار
إليه فقد صار المثل المحتذى في كتب الحكم والأمثال وحاكاه (دون خوان
مانويل) و (أرثرست دي هيتا) حتى جاء (لافونتين) فأحسن استقلاله
بصورة واضحة ، بل إن الشك في خرافات «أيسوب» قد وصل ببعض
الباحثين إلى القول بأنها دخيلة على اليونان، إذ نسبها إلى أيسوب بعض المزورين
دون أن يكون له جهد في تأليفها وهي هندية في صميمها تنحو منحى كلية
ودمنة وتتأثر به وتقتفيه .

يقول الأستاذ عمر الدسوقي في كتابه دراسات أدبية(٢) بعد حديث
عن الحكاية الهندية : «وقد انتقلت هذه الحكايات من الهند إلى فارس ثم
إلى الشام فاليونان حيث ترجمها بلانودس وهو قسيس يوناني في القرن
الرابع عشر ونسبها إلى (أيسوب) ومن هذا الطريق دخل في الآداب
الأوروبية كثير من الحكايات الهندية القصيرة ، ولا سيما الحكايات التي
يتكلم فيها بعض الحيوان ، وهي التي تعرف في عالم القصة بالأمثال تحت
العنوان المزور (حكايات أيسوب) والذي يقرأ هذه الحكايات وهو عالم
بالقرى الهندية وحياة الهنود ، يدرك تمام الإدراك أن هذه الحكايات نبتت
في بلاد الهند ، وليست من عمل أيسوب اليوناني ، وأصدق مثل على هذا

(١) الأدب المقارن للدكتور هلال ص ٦٦ ط ٣ .

(٢) دراسات أدبية لعمر الدسوقي ص ٥ ط أولى .

حكاية الحمار في جلد أسد لأن بُودا حين يحكي الحكاية يصوّر فيها قري الهند وحياتها تصويراً زاهياً لا يدع مجالاً للشك فيها ، ونطق الحيوان والطير في هذه الحكايات نشأ عن العقيدة التي دعا إليها بودا وهي أن الإنسان إذا مات رجع ثانية إلى الحياة في صورة أخرى ، فإن كان ما عمله في حياته السابقة شراً رجع في صورة حية أو وحش ، وإن كان ما عمله خيراً رجع إلى الحياة في درجة أعلى من درجته التي مات عليها ، وكل هذه الحيوانات حياة واحدة ، ورجلٌ صالحٌ مثل بودا يستطيع أن يتذكر ما مر به من حيواته المتقدمة والقصص الهندية ما هي إلا الخمسمائة والخمسون مولداً التي مرّ بها بودا .

لعلنا قد أطلنا الاستشهاد ، ولا بأس به في بيان رأي جديد يقبل المناقشة متى أتاحت أسبابها ، وإذا كانت قصص الخرافة لا تندرج في القصة بمعناها الفني فإنها لون من ألوان القصة ، ولها كتابها الفنيون من ذوي الملكات الروائية وأنصارها المستنبطون من أساتذة الحكم والأخلاق ! وتأثير كليله ودمنة في هذا المجال أوضح من أن يذكر ! على أن الأندلس كانت معبرة إلى الآداب الأوروبية جمعاء فليذكر لها ذلك مدعماً بالإسناد .

حي بن يقظان بين الشرق والغرب

لم تأخذ قصة حي بن يقظان نصيبها التام من التحليل والتوضيح ، فهي أثر فذّ خالد يشير إلى عبقرية نادرة ونبوغ ناضج ، ولها صلات متشعبة بأكثر من ناحية من نواحي البحث العلمي ، فرجال التربية يرون فيها مثالا لما تحدّثه التربية الفطرية السليمة من آثار ، ويستدلون بها على أثر الطبيعة في تنمية الحواس وشحذ الإدراك ، والذين يتحدثون عن نشأة الحياة على الأرض يرجعون إليها في ملء الفجوات التي تتسع أمامهم حين يفترضون أشياء معقولة يظنونها قد استقامت على نحو من الأنحاء ، ثم يضطربون في إيصال الحلقات لتسيير السلسلة الكونية منتظمة كما يعقل أن تسير ، وعلماء الفلسفة يرونها الدليل على قدرة العقل وقوته ، واستطاعة الإنسان المتأمل أن يرتقي عن عالمه المحسوس الضيق إلى العالم الأوسع الفسيح ! فيصل إلى الخالق بتفكيره ، ويرى آثار الله دالة على وجوده كاشفة عن حقيقته ، أما رجال الأدب فلهم أن يقولوا كلمتهم في هذا الإبداع المطرد في تدفق وحيوية ، وهذا النظر المصوّب إلى الأعماق الدفينة تارة والصاعد إلى الآفاق الرحبية تارة أخرى نافذاً ناقداً ومحللاً معللاً ! كل ذلك مما تتسع له هذه القصة العجيبة ، إذا تجرّد للحديث عنها أفذاذ جهابذة ! وهي الآن مظلومة مهضومة مع أثرها البعيد واتجاهها الفريد !

كنت أقرأ كتاب « لحظات الإلهام في تاريخ العلوم » للكاتب الكبير « مريون فلورنس لاتسنغ » فوجدته يتحدث في الفصول الأولى عن الإنسان الأول وكيف اهتدى إلى ما يصلح حياته بالتجربة والملاحظة . فأحسست أني أقرأ لابن طفيل لا لمريون فلورنس مع قرب عهده بالنسبة للمفكر الأندلسي البديع ! أحسست ذلك في أكثر من صحيفة وفي أكثر من فصل ، بل إن عبارات ابن طفيل كانت تتراقص أمام غيبي ، وكأنها المصدر الأول

لمريون ! فهو مثلاً يتحدث عن الاهتداء إلى النار ، فيرى أن البرق كان يُصيب الغابات الجافة فيضرم بها اللهب ، وربما كان فيمن رأوا هذا المشهد رجلٌ جريءٌ فأخذ يحتفظ بجزء من النار ويتعهدها بالوقود كي لا تنطفئ ، وكانت كل قبيلة تقيم حراساً من أشدائها يتناوبون الحراسة فيمدونها بالحطب والألياف كيلا تتمد ، ثم مضت مئات من السنين حتى اهتدى الإنسان إلى معرفة الحصول عليها دون أن يسهر على حياتها إما بسنة قطعة خشب محدّدة على لوحة صلبة من البلاط وإما بدقّ حجرين من الصوان ، هذا بعضٌ ما قاله مريون فلورنس وهو مقتبس لا محالة من هذه الفروض المحتملة التي افترضها المفكرون في حياة الإنسان الأول ، فأخذوا يتخيلون ثم يكتبون ، لأن حياة الإنسان الأول لم تصل إلينا بوجه من الوجوه في أثر من الآثار ، ويوم أن استطاع هذا الآدمي العجيب أن يكتب ويترك من الآثار والعاديات ما يدل عليه لم يكن هو الإنسان الأول عن يقين ، بل كان الإنسان المتطور السائر في ركب الوجود على هدى من التجربة والملاحظة ومعاناة من التعرّ والتخبّط فإذا لجأ مؤرخو الإنسان الأول إلى الافتراض فإن في طليعتهم صاحب حي بن يقظان ، وهو في ذلك بالنسبة إلى مراجعة العربية مبتدئ مجدّد لم يرجع إلى سابق متداول كان بين قرنائه ومعاصريه .

لقد وقفت على خلاصة حديث مريون فلورنس عن اكتشاف النار ولك أن تسمع ما قاله ابن طفيل العالم المفكر المتخيل حين تحدث عن حي الوحيد المتفرد في الجزيرة فقال .

« واتفق في بعض الأحيان أن انقذت ناراً في أجمة قلع ، على سبيل المحاكاة فلما بصر بها حيّ رأي منظرأ لم يعتده من قبل ، فوقف يتعجب منها ملياً وما يزال يدنو منها شيئاً فشيئاً فرأى ما للنار من الضوء الثاقب والفعل الغالب حتى لا تعلق بشيء إلا أتت عليه وأحالتها إلى نفسها فحمله العجب بها وبما ركب الله في طباعه من الجرأة والقوة ، على أن يمد يده فلم يستطع القبض عليها ، فاهتدى إلى أن يأخذ قبساً لم تستول النار على جميعه

فأخذَ بطرفه السليم ، والنار في طرفه الآخر فتأتى له بذلك حملة إلى موضعه الذي كان يأوي إليه ، وكان قد خلا في احجر استحسنة للسكنى قبل ذلك ، ثم مازال يمد تلك النار بالحشيش والحطب الجزل ، ويتعهد لها ليلاً ونهاراً استحساناً لها وتعجباً منها وكان يزيد أنسه بها ليلاً لأنها كانت تقدم له مقام الشمس في الضياء والدفء ، فعظم بها ولوعه واعتقد أنها أفضل الأشياء التي لديه ، وكان يراها دائماً تتحرك إلى جهةٍ فوق ، وتطلب العلو فغلب على ظنه أنها من جملة الجواهر السماوية التي يشاهدها ، وكان يختبر قوتها في جميع الأشياء ، بأن يلقيها فيها ، فيراها مستولية عليها ، إما بسرعة أو ببطء ، بحسب قوة استعداد الجسم الذي كان يلقيه للاحتراق أو ضعفه ، وكان من جملة ما ألقى فيها على سبيل الاختبار لقوتها شيء من أصناف الحيوانات البحرية — كان قد ألقاه البحر إلى ساحله — فلما أنضجت ذلك الحيوان وسطح قنارهُ تحركتْ شهوته إليه فأكل منه شيئاً فاستطابه فاعتاد بذلك أكل اللحم فصرف الحيلة في صيد البر والبحر حتى مهر في ذلك .

هذا التخيلُ المعقول لحياة الإنسان في بدء الخليقة ! قد ساعد ابن طفيل على إيجاده ، بل إنه رسم الطريق لكل تخيل يجري مجراه ويسير نحوه ! حتى اكتملت قصة الحياة كما تصورها الفنانون من مُبدعي التاريخ البشري ، وأصبح الحديث في ذلك قريباً من قول ابن طفيل أو علي نحو يتجه إليه سريعاً إن حاد عنه قليلاً ، ولصاحب حيِّ بصر متأمل حين يسير بالأشياء في طريقها المعقول فيتصوّر ما كان كأنه يراه حين يكون ، والقاريء لا يملك إلا تصديقه بل إنه يحس في أطواء نفسه حين يستمع إليه أنه يصغي إلى قصة يعرفها ويتخيلها ولكنه لظروف ما لم ينطق بها إذ هيأت الأقدار لها كاتباً بصيراً يتولى صياغتها الدقيقة ، فيحيط بأقطارها الفساح ، وفي الناس من تهجس أعماقه بمثل ما هجست به أعماق ابن طفيل حين تخيل الحياة الأولى للإنسان الأول فقال :

« وفي خلال هذه المدة المذكورة تفنّن في وجوه حيله واكتسى بجلود الحيوانات التي كان يشرحها واغتذى بها ، واتخذ الحيوط من الأشعار ولحاء

القصب والحبازي والقنب وكل نبات ذي خيط واستأنس جوارح الطير ليستعين بها في الصيد ، واتخذ الدواجن ليستعين ببيضها وفراخها واتخذ من صياصي البقر الوحشية شبيه الأسننة وركبها في القصب القوي وفي عصر الزان وغيرها ، واستعان في ذلك بالزان وحروف الحجارة حتى صارت شبه الرماح ، واتخذ ترسه من جلود مضاعفة ، كل ذلك لما رأى من فقدته السلاح الطبيعي ولما رأى أن يده تقى له بكل ما فاته من ذلك ، وكان لا يقاومه شيء من الحيوانات على اختلاف أنواعها إلا أنها كانت تفر عنه فتعجزه هرباً ففكر في وجه الحيلة في ذلك فلم يجد شيئاً أنجح له من أن يتألف بعض الحيوانات الشديدة العدو ويحسن إليها بإعداد الغذاء الذي يصلح لها حتى يتأتمى له الركوب عليها ، ومطاردة سائر الأصناف بها ، وكان بتلك الجزيرة خيل برية ، وحمير وحشية فاتخذ منها ما يصلح له وراضها . حتى كمل له بها غرضه وعمل عليها من الشرك والجلود أمثال الشكائم والسروج ، فتأتمى له بذلك ما أمله من طرد الحيوانات التي صعبت عليه الحيلة في أخذها ، وإنما تفنن في هذه الأمور /كلها في وقت اشتغاله بالتشريح وشهوته في وقوفه على خصائص الحيوان ، وبماذا تختلف .

هذا نحو من أنحاء ابن طفيل في القصة ! ملأ به ثغرات كثيرة كانت فجواتها البارزة تعترض مؤرخي الحياة البشرية ، وأثره فيمن تلاه من رجال هذه المباحث أوضح من أن يشار إليه ، وما بسبيلنا أن نفصل ذلك ، ولكننا نرصد مجالات التفوق في قصة حي بن يقظان ، وتصوير التاريخ الأول للبشرية أحد هذه المجالات ! !

أما المجال الثاني فدورها الهام في التربية إذ كانت الطريقة السائدة إذ ذاك في حقل التربية والتعليم شرقاً وغرباً ترجع إلى التلقين والاستظهار ، فالطالب يملأ ذهنه بالمعارف ووظيفة الأستاذ أن يقف على مدى التحصيل لديه ، وإذا شاء أن يجعل تلميذه في رأيه مثقفاً مستنيراً أرهقه بحفظ القواعد العلمية والنظريات العقلية ثم أخذ ينصت إليه وهو يتلوها عن ظهر قلب ،

ولكن ابن طفيل قد حارب هذه الطريقة حين جعل حيّ بن يقظان يتخذ من الطبيعة أستاذاً يلهمه أدق الأسرار ، وحين أرهف حواسه وملكاته وشحذها شحذاً قوياً لتتفهم ما يحيط بها من ألغاز الكائنات ! فجعل يوقظ فيه روح الملاحظة الدقيقة والإدراك الفطري ، ويكثر تجاربه الشخصية ليخطيء أولاً ويصيب ثانياً فيتجنب أسباب الخطأ عن يقين واستبصار ، ثم يفسح له مجال التأمل البصير ليوازن بينه وبين نفسه فلا يخطط طريقاً لا يوصله إلى نفع قريب ، وابن طفيل يعرف لا محالة ما يعرفه علماء التربية من أن الطفل يولد مزوداً بقوى فطرية وغرائز لا بد من توجيهها اتجاهاً صالحاً ولا بد من استغلالها في تنمية العقل وتكوين الخلق ، وهو متعطش دائماً إلى معرفة الحياة الجديدة التي تحيط به وإدراك ما استتر وراء ظواهرها البارزة من خواف مدهشة ، ولا بد من إرواء عطشه ونقع غليله كي يطمئن به مقامه في الحياة فيسير على أرض صلبة لا تزعزعها عواصف الشكوك ! وسيله إلى ذلك قوة الملاحظة ودوام التأمل ، وتعهد التجربة ، نرى ذلك كله في تصرف حيّ بن يقظان حين يبصر الأشياء لأول مرة ، ويقارن ما يراه من المخلوقات بنفسه فيرى وجوه اتفاق واختلاف فيتساءل عما يرى ويصور ابن طفيل شجونه وخواطره حين يقول عنه ص ٧٣ (١) دار المعارف :

« وكان في ذلك كله ينظر إلى جميع الحيوانات فيراها كاسية بالأوبار والأشعار وأنواع الريش وكان يرى ما لها من سرعة العدو وقوة البطش وما لها من الأسلحة المعدة للدفاع من ينازعها مثل القرون والأنياب والحوافر ثم يرجع إلى نفسه فيرى ما به من العرى وعدم السلاح وضعف العدو ، وقلة البطش عند ما كانت تتنازع الوحوش أكل الثمرات وتستبد بها دونه وتغلبه عليها فلا يستطيع المدافعة عن نفسه . ولا الفرار عن شيء منها وكان يرى أترابه من أولاد الظباء قد نبتت لها قرون بعد أن لم تكن ، وصارت قوية بعد ضعفها في العدو ، ولم ير لنفسه شيئاً من ذلك كله ، فكان يفكر

(١) اعتمدنا على النص الذي حققه الدكتور أحمد أمين ونشرته دار المعارف في سلسلة ذخائر العرب ط أولى .

في ذلك ولا يدري ما سببه ، وكان ينظر إلى ذوي العاهات والحلق الناقص فلا يجد لنفسه شبيهاً فيهم ، وكان أيضاً ينظر إلى مخارج الفضول من سائر الحيوانات فيراها مستورة دونه ، فلما طال همه في ذلك كله وهو قد قارب سبعة أعوام ويئس من أن يكمل له ذلك ، وما قد أضر به من نقصه ، اتخذ من أوراق الشجر العريضة شيئاً جعل بعضه خلفه ، وبعضه قدامه وعمل من الخوص والحلفاء شبه حزام على وسطه وعلق به تلك الأوراق ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى ذوى الورق وجف وتساقط عنه فما زال يتخذ غيره ، ويخفف بعضه ببعض طاقات متضاعفة وربما كان ذلك أطول لبقائه إلا أنه كان على كل حال قصير المدة ، واتخذ من أغصان الشجر عصياً سوياً أطرافها وعدل متنها ، وكان يهش بها على الوحوش المنازعة له فيحمل على الضعيف منها ، ويقاوم القوي منها ، فنبل بذلك قدره عند نفسه بعض نباله ، ورأى أن ليده فضلاً كثيراً على أيديها إذ أمكن له بها ستر عورته ، واتخاذ العصي التي يدافع بها عن حوزته مما استغنى به عما أراده من الذنب والسلاح الطبيعي» .

كلام نفيس جيد نخشى أن نطيل اقتباسه فننقل أكثر ما قال ابن طفيل ، وهو يطرد في هذا المنحى اطراداً موفقاً إذ يجعل الملاحظة والتجربة ديدنه ، فيصيب بهما قدراً كبيراً من النجاح ! كما أنه قبل كل شيء يميل بالتربية إلى الطبيعة فهو أستاذ (روسو) في ذلك ! وليس معنى هذا أن الكاتب الفرنسي قد أخذ عنه رأيه التربوي ! ولكنه قد سبقه بعدة قرون في تلقي أسرار التربية عن فم الطبيعة نفسها ، وقد نشأ جان جاك روسو مفتوناً بمباهج الكون ومجاله ثم بحث في أعماقه مدققاً في استكناه الطبائع والغرائز والميول فرأى أن الطريقة المثلى للتربية هي مساورة هذه الطبائع السليمة إذ تتجه دائماً إلى استكناه الكون ومعرفة البواعث وتعدّي الظواهر إلى الخفايا وإن غلا في ذلك مغالاة دفعتة إلى المناداة بالتربية السلبية على أساس أن يترك الأشياء للطفل يعالجها وتعالجه دون إرشاد معلم ، وهو تصور بعيد عن الحقيقة لأن الطفل مهما كان قويّ الملاحظة في حاجةٍ إلى من ينظم له طريق البحث ، ويمهد

إليه أسباب النظر ويهيج فيه شعور الاستنتاج ! ولن نتخذ حي بن يقظان دليلاً على صحة اتجاه روسو ، لأنّ بطل الفيلسوف الأندلسي قد عانى من المصاعب الشدائد ما كان يهون لديه ، لو وجدَ المعلم الناصح والمربي البصير ! وإذا كان قد عرف الطريق بعد مجهود شاق تصرمت به السنون والأعوام ، فما أجدرنا أن نجنب أطفالنا هذا التعثر ، وظروفهم غير ظروف حيّ دون نزاع ! ثم إن ابن يقظان من وراء ذلك كله حاد البصيرة ، خارق الذكاء ، ولن يكون جميع الأطفال من هذا الطراز ! على أن القول بالجزء الطبيعي الذي نادى به رُسُو واعتنقه (هربرت سبنسر) ودافع عنه مدافعة صارمة أيدها بتفكيره الدقيق وميزانه المنطقي قد وُجد بصورة واضحة عند ابن طفيل ، فحيّ كان يخطيء فكان يلقي جزاء الخطأ من جنسه ، يمدّ مثلاً يده إلى النار حين يراها أول مرة ليختبر جوهرها فيدركه الجزاء الصارم باللذع والإحراق ! وفي ذلك ما يؤكد أن القصة في حاجة إلى دراسة تربوية تبين منهج مفكر كبير من مفكري الإسلام في التربية والتعليم ، وتوضّح مدى استفادة معاصريه وتأثر من تلاهم بأرائه ثم نُقارن ما تمخضت عنه الأبحاث الجديدة في التربية ببعض ما اهتدى إليه ! وهو مبحث بكر يتطلب من يهتم به من الباحثين . . .

وقبل أن نتحدث عن مغزى القصة الفلسفي كما عناه ابن طفيل وعن أثرها القوي فيما تلاها من المؤلفات وهو ما أردناه بكتابة هذا البحث ، نوجز المقال عن أسلوبها الأدبي فترى أنها من حيث كونها قصة يصدق عليها قول الأستاذ غرسيه غومس (1) .

« إن الخيط الذي ينتظم حلقات القصة يبدو واضحاً غليظاً في أولها وآخرها ويدق في الوسط حتى يكاد يخفي ، وإن بداية القصة ونهايتها أشبه بقوسين ضخمين يضمنان بينهما حشداً رائعاً من الآراء الفلسفية » . وهو حكم نميل إليه ، لأن الطابع القصصي كان واضحاً في البدء حين

(١) مقدمة الترجمة الفرنسية للأستاذ ليون جوتيه ص ٩ .

تَحَدَّثَ الكَاتِبُ عَنِ الحَزِيرَةِ وَمَجِيءِ التَّابُوتِ إِلَيْهَا ، وَرَسَمَ المَسْرَحَ بِمِيَاهِهِ وَأَشْجَارِهِ وَحَيَوَانَاتِهِ ، ، ثُمَّ انْسَاقَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي أَجْنَاثِهِ الفَلَسْفِيَّةِ عَنِ الرُّوحِ وَالكُونِ وَوَجِبِ الوجودِ وَالوصولِ إِلَى الخَالِقِ عَنِ طَرِيقِ الاستشفافِ وَالتأملِ وَأَفَاضَ فِي ذَلِكَ إِفَاضَةً العَالِمِ الأَدِيبِ ، لَا القَصَاصِ الفَنَانِ حَتَّى إِذَا انْتَهَى حَيٌّ مِنْ مَأْرَبِهِ العَقْلِيِّ اتَّصَلَ بِأَبْسَالِ وَهنا نرى خيوط قصةٍ تَأْخُذُ مَجْرَاهَا الوَصْفِيَّ وَتَنْتَهِي بِأدوارها وَأشْخَاصِها وَمَسْرَحِها انْتِهاءَ القِصَصِ الفَنِيَّةِ ! فَكأن الخيطَ الفَنِيَّ قَدْ انْقَطَعَ فِي الوَسْطِ وَظَهَرَ وَاضِحاً فِي الطَّرْفَيْنِ كَمَا يَقُولُ الأَسْتَاذُ غَرَسِيهَ غُومَسُ ، وَإِنْ كَانَ الأَسْتَاذُ لِيُونِ جُوتِيهَ مُتَرْجِمَ القِصَّةِ إِلَى الفَرَنْسِيَّةِ لَا يَرَى ذَلِكَ وَيُخَالِفُ الأَسْتَاذَ غُومَسَ حَيْثُ يَقُولُ فِي نَقْدِهِ : « إِنْ ذَلِكَ يُوحِي بِضَعْفِ القِصَّةِ بَيْنَمَا العَنَصْرُ القِصْصِيُّ فِي الوَاقِعِ مُتَعَادِلٌ مُتَنَاسِقٌ فِي أَجْزَاءِ القِصَّةِ كُلِّهَا ، وَهُوَ يَخْتَلِطُ بِالعَنَصْرِ الفَلَسْفِيِّ مِنْ أَوَّلِ الكِتَابِ إِلَى آخِرِهِ وَقَدْ عَرَفَ ابْنُ طَفِيلٍ أَنَّ يَسْتَبْقِي مِنَ الأَسْطُورَةِ مَا يَصِلُحُ وَمَا يَسُوعُ ، وَيَطْرَحُ مِنْهَا مَا لَا يَنْفَعُ فَأَضْفَى عَلَيْهَا رُوحاً جَدِيدَةً وَمَكْنَهَا مِنْ حَشْدِ جَمِيعِ آرَائِهِ وَأَفْكَارِهِ (١) » .

وَقَدْ عَرَضْنَا رَأْيَ الأَسْتَاذِ لِيُونِ جُوتِيهَ دُونَ أَنْ نَرَاهُ ، إِذْ أَنْ مِمَّا يَسْرُنَا أَنْ نَسْجَلَ هَذِهِ الشَّهَادَاتِ السَّارَةَ لِفِيلَسُوفِنَا الكَبِيرِ ، وَلَئِنْ كَانَ السِّيَاقُ القِصْصِيُّ غَيْرَ مُطْرَدٍ فَإِنَّ الأَسْلُوبَ الأَدْبِيَّ - بَعِيداً عَنِ مَوَازِينِ القِصَّةِ - قَدْ جَاءَ آيَةً فِي البَرَاةِ وَالإِبْدَاعِ إِذْ أَحْكَمَ المُؤَلِّفُ تَصْوِيرَ المَوَاقِفِ إِحْكَاماً رَائِعاً ! وَفِي بَعْضِ عِبَارَاتِهِ نَبْضُ مُؤَثِّرِ حِي تَهْتَرِلُهُ المِشَاعِرُ كَمَا تَهْتَرِلُ قِصَاصِ فَنَانٍ ، فَهُوَ مِثْلًا يَتَحَدَّثُ عَنِ حَيٍّ حِينَ تَمُوتُ مَرَضِعَتُهُ الطَّبِيَّةُ ، وَيَنْظُرُ فَيَجِدُهَا لِأَوَّلِ عَهْدِهِ بِالمُوتِ جِثَّةً هَامِدَةً دُونَ أَنْ يَعْرِفَ حَقِيقَةَ مَا طَرَأَ عَلَيْهَا ! فَيَأْتِي مِنَ الأَعْمَالِ مَا يَدُلُّ عَلَى حَيْرَتِهِ وَارْتِبَاكِهِ ، وَهُوَ مَوْقِفٌ عَاصِفٌ مُؤَثِّرٌ أَجَادَ تَصْوِيرِهِ ابْنُ طَفِيلٍ حِينَ قَالَ ص ٧٤ ط - المَعَارِفُ :

« وَمَا زَالَ الهَزَالُ وَالضَّعْفُ يَسْتُولِي عَلَيْهَا وَيَتَوَالِي - عَلَى الطَّبِيَّةِ المَرَضِعَةَ - إِلَى أَنْ أَدْرَكَهَا المَوْتَ فَسَكَنْتْ حَرَكَاتِهَا بِالجَمَلَةِ وَتَعَطَّلَتْ جَمِيعَ أَفْعَالِهَا ،

(١) مَقْدَمَةُ التَّرْجُمَةِ الفَرَنْسِيَّةِ ص ١١ .

فلما رآها الصبي على تلك الحالة جزع جزعاً شديداً ، وكادت نفسه تفيض أسفاً عليها فكان يناديها بالصوت الذي كانت عاداتها أن تجيبه عند سماعه ويصيح بأشد ما يقدر عليه فلا يرى لها عند ذلك حركة ولا تغيراً فكان ينظر إلى أذنيها وإلى عينيها فلا يرى بهما آفة ظاهرة ، وكذلك كان ينظر إلى جميع أعضائها فلا يرى بشيء منها آفة ، فكان يطمع أن يعثر على موضع الآفة فيزيلها عنها فترجع إلى ما كانت عليه ، فلم يتأت له شيء من ذلك ولا استطاعه وكان الذي أرشده إلى ذلك الرأي ما كان قد اعتبره في نفسه قديراً ، لأنه كان يرى أنه إذا أغمض عينيه أو حجبهما بشيء لا يبصر شيئاً حتى يزول ذلك العائق ، وكان كذلك يرى أنه إذا أدخل إصبعيه في أذنيه وسدهما لا يسمع شيئاً ، حتى يزول ذلك العارض وإذا أمسك أنفه بيده لا يشم من الروائح شيئاً حتى يفتح أنفه ، فاعتقد من أجل ذلك أن جميع ما لها من الإدراكات والأفعال قد تكون لها عوائق تعوقها فإذا أزيلت تلك العوائق عادت الأفعال .

لهذا الموقف في قوته وتصويره أمثال في القصة ! وحين قرأته تذكرت مشهد طفل كان ينادي أباه الميت دون أن يعلم شيئاً عن حقيقته ! وكنت أشاهده وقلبي يتقطع من الألم ولا أستطيع أن أفعل شيئاً ! وجاء من أبعده عن الجثة وهو لا يفهم سر الإبعاد ! لقد أعاد ابن طفيل لإحساسي هذا المشهد بما كتب فطفت من غيبي الدموع !

ولعلنا بعد ما تقدم عن القصة وأفانينها التاريخية والتربوية والأدبية نستطيع أن نستمع إلى ما قيل عنها في مجال التأثير والتأثير لنصل إلى رأي توضحه البراهين وتدعمه الأسانيد .

لقد ظهر ابن طفيل في القرن الثاني عشر للميلاد ، وهو من جبابرة المفكرين في العصور الوسطى كما وصفه بذلك أكثر الباحثين وقد وصل إلى إلى الحجابة فالوزارة في بلاط صاحب المغرب الأمير يوسف بن عبد المؤمن ، وكان بين الأمير والوزير من الصداقة ما مهد له الطريق للراحة والاطمئنان فاستطاع أن يؤدي دوره الثقافي عالماً وفلكياً وطيبياً ورياضياً . وفيلسوفاً

وأديباً ، وكان من الثقة بنفسه بحيث واجه أفكار الأفاذاذ من سابقه ومعاصريه
فناقش آراء بطليموس والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن باجه والغزالي ،
مناقشة ذات حُجج وإقتناع ، وكانت قصة حي بن يقطان بعض آثاره
الباقية التي قال عنها الدكتور « سارطون » بحق إنها من أجمل الكتب المبتكرة
في موضوعها التي ظهرت في العصور الوسطى جميعها !

وكان طبيعياً أن يتجادل الكاتبون حولها ، فظهرت مجموعة من
البحوث تزن أفكارها وتحدد مدى ابتكارها وتجديدها كما تدل على تأثيرها
فيما تبعها من القصص المماثلة ! وقد تكاثر البحث في ذلك حتى كاد أن
يبعد عن موضوعه ، إذا كان مجال الافتراض لدى بعض الباحثين طلقاً
فسيحاً تعذرت معه الضوابط الفاصلة وسناقش من هذه البحوث
ما نراه جديراً بالنقاش لنصل إلى الحقيقة التي نريد . لقد كان ابن طفيل
معجباً بابن سينا وقد قرأ قصته عن حي بن يقطان فأوحت إليه
أن يكتب قصة حيّ كما يتخيلها هو لا كما أرادها الشيخ الرئيس ،
فابن سينا قد جاء في قصته برفقة يتحدثون ويتناقشون ، ليسوا أشخاصاً من
لحم ودم ولكنهم يرمزون إلى أشياء معنوية تجريدية ، فحي بن يقطان رمز
إلى العقل المجرب ، الذي حنكته السنون ، وعركته الأحداث ، ورفقته
رموز إلى الشهوات والغرائز والغضب ، وسائر الملكات الإنسانية وميدان
الجدل بينهما ما يحدث عادة بين غرائز الإنسان وشهواته وعقله ، والقصد
منها كما يقول الأستاذ أحمد أمين في كتابه حي بن يقطان (١) :

« تبين قوة العقل وتميزها على ما لدى الإنسان من غرائز وملكات ،
وهدايتها ونجاتها إذا استمعت قوله ثم بيان علاقة هذا العقل الأرضي بالعقول
السماوية العليا ثم علاقتها جميعاً بالعقل وهو العلة الفاعلة أو بعبارة أخرى
هو الله واجب الوجود » . قرأ ابن طفيل رسالة ابن سينا عن حي بن يقطان

(١) حي بن يقطان تحقيق الدكتور أحمد أمين ط دار المعارف ص ٢١ .

فأوحت إليه فكرة أخرى لا تستهدف ما عناه الشيخ الرئيس ولكنه شاء أن يبين كيف يستطيع الإنسان أن يرتقي بنفسه وبتفكيره من عالم الحس إلى عالم العقل . بحيث يستطيع أن يصل إلى معرفة الله وهو بذلك متأثر بفكرة المعتزلة عن العقل فهو دليل الجزاء من ثواب وعقاب ! وإذا استطاع الإنسان أن يصل إلى الله بنفسه كما وصل حي بتأملاته فقد بلغ مشارف الكمال !

رأى ابن طفيل أن حياً تولد من غير أب وأم في إحدى جزر الهند تحت خط الاستواء وتلك الجزيرة وأعدل بقاع الأرض وأصلحها للتولد والاختصار والامتزاج وقد خاف ألا يصادف هذا التوالد الطبيعي مقنعاً عند بعض الناس فأجاز رأياً آخر هو أن حياً ولد لأب وأم من البشر إذ كانت أمه أخت ملك جبار وقد عضلها ومنعها من الزواج إذ لا يوجد كفو لها من بني الإنسان ، ولكنها تزوجت سراً بيقظان أحد وزرائه وحين جاءها الوضع حذرت من أخيها ، فأخذت حياً وليدها ووضعتة في صندوق وألقته في اليم دامعةً باكية ، راجيةً أن تلحظه السماء بعنايتها فسار الصندوق حتى وصل إلى الجزيرة ونشأ حي هناك ، يقول ابن طفيل في رواية ذلك (١) :

« ثم قذفت به في اليم فصادف ذلك جري الماء بقوة المد ، فاحتمله من ليلته إلى ساحل الجزيرة ، وكان المد يصل في ذلك الوقت إلى موضع لا يصل إليه إلا بعد عام فأدخله الماء بقوة إلى أجمة ملتفة الشجر عذبة التربة مستورة عن الرياح والمطر محجوبة عن الشمس ، تزور عنها إذا طلعت وتميل إذا غربت ، ثم أخذ الماء في النقص ، والجزر عن التابوت الذي فيه الطفل ، وبقي التابوت في ذلك الموضع وعلت الرمال بهبوب الرياح ، وتراكت بعد ذلك حتى سدت باب الأجمة على التابوت ، وردمت مدخل الماء إلى تلك الأجمة فكان المدلا ينتهي إليها ، وكانت مسامير التابوت قد قلقت وألواحه قد اضطربت عند رمي الماء إياه في تلك الأجمة ، فلما اشتد

(١) ص ٦٨ : ط دار المعارف .

الجوع بذلك الطفل بكى واستغاث ، وعالج الحركة فوق صوته في أذن ظبية فقدت طَلاها، خرج من كناسه فحملة العُقَاب فلما سمعتِ الصوت ظنته ولدها فتتبعَت الصوت وهي تتخيل طلاها حتى وصلت إلى التابوت ففحصت عنه بأظلافها وهو ينوء ويئن من داخله حتى طار عن التابوت لوح من أعلاه ، فخفت الظبية وحتت عليه وأروته لبناً سائغاً وما زالت تتعهدُه وتربيُه وتدفع عنه الأذى .

هذه السطور المحدودة التي جاءت بين صفحات القصة الطويلة كانت مدعاة لتقول كثير فقد قرأ الأستاذ غرسيه غوميه بضعة أسطر في خرافة تروى عن الإسكندر ذي القرنين ، فرأى بين الخرافة ، وهذه الأسطر من قصة حيّ ما يدل على أن ابن طفيل قد استغل أسطورة ذي القرنين وبنى عليها قصته ، ثم جاء (بلتاز جراسان) بعد ابن طفيل بعدة قرون فنقل عنه فكرته التي رسمها بوضوح وكان الاحتذاء واضحاً سافراً ينادي على نفسه! ولكن الأستاذ غرسيه وبعض من شايعه من المستشرقين لا يميلون إلى الجزم بذلك بل يرون أسطورة الإسكندر أساس القصتين وأنها كانت مصدر ابن طفيل وجراسان معاً! والأمر أوضح من أن يختلف عليه اختلاف الشكل الغامض من الآراء! وسنبسطة بسطاً سافراً يلمسه القاريء بالنظر السريع بعد أن تبدد ماحاكوه حول قصة حي من شبهات واهية لا تركز على أساس متين .

لقد جعل ابن طفيل بطل قصته - أولاً - طفلاً يُرمى في تابوت ينقله البحر إلى جزيرة نائية ثم جعل مرضعته - ثانياً - ظبية رقيقة تعطف عليه وتختاره بديلاً من طلاها الفقيد ، ثم مضى به - ثالثاً - حتى بلغ أتم مرحلة من النضوج الفكري تولّى فيها تعليم نفسه بنفسه عن طريق التأمل والاستبصار حتى وصل إلى فكرة الإنسان المتوحد - بوحى من تفكيره الدقيق ، فما في هذه الثلاثة من الغريب على ابن طفيل حتى يستند إلى أسطورة وثنية لا تصلح لإلهام عبقرى بديع .

أما أنه قد رمى بالطفل إلى البحر مع التابوت خوفاً من ملك جبار ! فجائز جداً أن تكون قصة موسى عليه السلام كما حكاه القرآن الكريم قد

هدته إلى ذلك الإنقاذ الغريب ، وابن طفيل الفيلسوف المسلم قد قرأ القرآن وأدرك أسرارهِ ولأنَّ يتأثر به أقرب إلى العقل من أن يتأثر بخرافةٍ وثنية لم يثبت وجودها لعهدهِ على وجه قاطع صريح ! فلو تأثر خيال ابن طفيل في هذا الموضوع بشيء لتأثر بقول الله، ولا يقدر في ابتكارهِ أن يهتدي بنص كريم .

هذا عن الشبهة الأولى . . أما عن الشبهة الثانية التي لمحها الأستاذ غومس في إرضاع الظبية لحَيٍّ حتى استوى ومرن ! فليست أسطورة الإسكندر صاحبة التفكير في ذلك ، إذ أن أساطير العرب القديمة تذكرُ نحواً قريباً منه حين تجعل بعض الحيوانات تعطف على الصغار فترضعها الأثداء وكتاب الحيوان للجاحظ ذائع مشتهر ، ولا بد أن عالماً طبيياً يهتم بالتشريح كابن طفيل قد قرأه ودرس طبائع الحيوان وخصائصه كما صورها الجاحظ وفي بعض قصص الجاحظ وطرائفه ما يدل على رضاءة الأطفال من الحيوان ! فقد قال ما نصه :

« وزعم علماء البصريين أن طاعوناً جارفاً جاء على أهل دار فلم يشك أهل تلك المحلة أنه لم يبق فيها صغير ولا كبير ، وقد كان فيها صبي يرتضع ويحبو ولا يقوم على رجله فعمد من بقي من المطعونين من أهل تلك المحلة إلى باب تلك الدار فسده ، فلما كان بعد ذلك بأشهر تحول فيها ورثة القوم ففتح الباب ، فلما أفضى إلى عرصة الدار إذا هو بصبي يلعب مع أجراء كلبته ، وقد كانت لأهل الدار ، فراعهُ ذلك فلم يلبث أن أقبلت كلبته كانت لأهل الدار فلما رآها الصبي حبا إليها فمكنته من أطبائها فمصها ، فظنوا أن الصبي لما بقي في الدار وصار منسياً واشتد جوعه ورأى أجراءها تستقي من أطبائها حبا إليها فعطفت عليه فلما سقته مرة أدامت ذلك له وأدام هو الطلب . فسبحان من دبّر هذا وألهمه وسوّاه ودلّ عليه (١) . »

(١) الحيوان للجاحظ ج ١ ط السادس .

وبديهي أنني لا أذكر هذه القصة لأجزم بوقوعها ، فقول الجاحظ وزعم
علما البصريين مما يضعف تحققها ، ولكني أقول إنها كانت معروفة لابن
طفيل فيما قرأ من كتب الجاحظ فإذا جعل حياً في قصته يفيء إلى ظبية
ترضعه وترئمه فذلك مما أوحاه إليه أمثال هذه الأقاويص ! وخياله الرائع
جدير أن يتفتق تلقائياً عن اتجاهٍ معقول يرتضيه ! على أن اختيار الظبية بالذات
ذو مدلول ذوقى وعلمي لا يبعد عن ذهنٍ راقٍ كذهن ابن طفيل . . .
وما تعمدنا الاستشهاد بقصة الجاحظ إلا لنبطل رأي من يقول باستلهاهم خرافة
غريبة لم تكن ذائعة في عصر الموحدين ! ! أما وصول حيّ بنفسه إلى
ماهدتُ إليه التعاليم السماوية من قدرة الخالق الأعظم وإبداعه فهو الهدف
الأساسي الذي قام في نفس الفيلسوف قبل أن يُنشئ القصة وعلى أساسه
اختار البطل وهياً المسرح وكتب تاريخ الحياة ، أفيكون قد استوحاه أيضاً
من أسطورة الإسكندر وهي لا تشير إلى مغزى فلسفي على الإطلاق ! !
ربما كان القول بتأثير ابن باجة في نفس ابن طفيل بفكرة الإنسان المتوحد
مما يلتفت إليه في تكوين بنائه الفلسفي ! ولكن القول بتأثير أسطورة
الإسكندر وهم متآكل لا يثبت إلى تحقيق ! !

لقد طال الحديث عن هذه الأسطورة وكأني بالقاريء قد اشتاق إلى الوقوف
على مضمونها ليلمس بيديه مكان الشطط في الاستنتاج والغلو في التقدير ! وهي
تقص علينا أن الاسكندر وصل في فتوحاته المظفرة إلى جزيرة تسمى (أرين)
فرأى بها تمثالاً ضخماً كتبت عليه سطور كثيرة فسأل عن ترجمتها فعرف
أن صاحب هذا التمثال كان ابناً لبنت ملك فألقت به في البحر لسبب ما
فرحل به التيار إلى جزيرة بعيدة لا يسكنها إنسان فربته ظبية عطفت عليه
فنما بالجزيرة وترعرع وأخذ يتفكر ويتأمل دون أن يصل إلى شيء ؛ ! !
حتى وصل إلى الجزيرة أبوه باحثاً عنه ، فتعارفا واصطحبا دون أن يعرف
أحدهما الآخر ثم تركا مكانهما إلى الجزيرة المعمورة . وهذا بعينه قريب
مما حكاه ابن طفيل ولكن مكان الشطط في الاستنتاج والغلو في التقدير يكمن
في ناحية هامة لا يجوز إغفالها هي أن هذه الأسطورة لم تُعرف إلا في مخطوط

كُتِبَ بحروف لاتينية أرغونية يرجع إلى القرن السادس عشر (حي بن يقظان ط - دار المعارف ص (١٣) ومعروف أن ابن طفيل قد كتب قصته في القرن الثاني عشر الميلادي فكل ما يجيء بعد ذلك من الأساطير المشابهة لا بد أن يكون مستلهماً من قصة حي بن يقظان ! ولا يمكن أن يكون العكس صحيحاً إلا بدليل يقيني تطمئن إليه النفس ! وهذا ما لم يأت به القائلون بتأثير هذه الأسطورة إلى الآن ! وادعاء قدم الأساطير الشعبية مما يستأنس به عند قيام أدلة متضاربة ولكنه لا ينهض وحده دليلاً يُجابه أدلة منطقية ذات زمان وتاريخ . على أن هذه الأسطورة جعلت في رأي بعض النقاد أصلاً لقصة ألفها الكاتب الإسباني بلناسار جراثيان ١٦٠١ - ١٦٥٨ .

وهي في ثلاثة أجزاء يتشابه الجزء الأول منها تشابهاً قريباً بقصة حيّ إذ أن بطل القصة ينجو من الغرق فتدفعه الأمواج إلى جزيرة نائية فيصادف فتى مثل حي بن يقظان كان يحيا في الجزيرة على نحو مماثل لحياته لا يعرف خالقه ولا يفهم عن الحياة شيئاً فيصادفه ويفهمه طريقة الكلام كما فعل أوسال بحيّ تماماً !! ثم يتوجهان معاً إلى إسبانيا ويبدأ صاحبه بتحذيره من الناس ويدعوه إلى التعقل والتصون فيستجيب إلى غرائزه مخالفاً إياه ثم ينزلق في علاقة أثيمة مع بعض الساقطات ، فيحاول أن ينقذه ثانية بإرشاده وتوجيهه ولكنه يخفق . . وتمضي القصة على هذا النحو متأثرة بقصة حيّ تأثراً لا شبهة فيه ولكن الأستاذ غرسية غومس لا يقطع به ويظن أسطورة الإسكندر مصدر ابن طفيل وجراثيان معاً ، وقد وافقه على ذلك بعض الكاتبيين من المستشرقين ولكن الدكتور البحاث محمد غنيمي هلال يبسط جوهر الخلاف في كتاب « الأدب المقارن » ثم يرى أن تأثر جراثيان بابن طفيل لا بالأسطورة واضح ويعلل ذلك ص ٢٤١ ط الثالثة . « بأن شبه قصة (جراثيان بلنار سار) بقصة حي لا ينحصر في قالب القصصي العام ولكن يبدو كذلك واضحاً في الطابع الرمزي فهذه الميزة هي جوهر ابن طفيل وليس في قصة الصنم المعبود شيء منها على أنه ليس لدينا دليل قاطع على سبق أسطورة الإسكندر لقصة ابن طفيل تاريخياً » .

ثم يتحدث الدكتور محمد غنيمي هلال عن تأثير قصة حي في أوروبا وأثرها البارز في الاتجاه إلى قيم جديدة ، وأفكار هامة فيقول (١) :

«وحيث عرفت قصة حيّ بن يقظان في أوروبا لقيت حظاً رائعاً لدى فلاسفتها وخصوصاً في القرن الثامن عشر ثم التاسع عشر ، ذلك أن القرن الثامن عشر الأوروبي كان يعتقد مقدرة الإنسان الفطري على الاهتداء للفضائل ، وإلى الأسس السامية التي تفضل الشرائع الإنسانية ، وقد راجت هذه الدعوة نفسها لدى الرومانيين في القرن التاسع عشر ، ورأى هؤلاء وأولئك في قصة حي بن يقظان ما يشد أزر دعوتهم ، إذ اهتدى حي فيها إلى ما يتجاوز الشريعة ، ومن الواضح أن رأي هؤلاء في تأويلهم لقصة ابن طفيل لا سند له من حقيقة القصة نفسها ، ولكنه كان جوهر دعوتهم وإذن فقد كان تأثير قصة ابن طفيل في الآداب الأوروبية تأثيراً كبيراً متنوع الدلالة » .

هذا كلام الدكتور محمد غنيمي هلال وقد وقفت كثيراً عند قوله ومن الواضح أنه رأي هؤلاء في تأويلهم لقصة ابن طفيل لا سند له من حقيقة القصة نفسها ، ولو كان الأمر كما يقول لما تمسك بها هؤلاء دليلاً على ما يهدفون إليه ! وإذا كانت دعوتهم - باعتراف الدكتور الفاضل - تذهب إلى الاعتقاد في مقدرة الإنسان الفطري على الاهتداء إلى الفضائل وإلى الأسس السامية التي تفضل الشرائع الإنسانية ! ! إذا كانت دعوتهم كذلك فإنّ حيّ بن يقظان كما عرضه ابن طفيل تطبيق صريح لهذه الدعوة ومثال قوي الدلالة على إمكانها حيث اهتدى إلى الفضائل الإنسانية بتفكيره التأملي وإحساسه الفطري ثم ارتقى إلى ما فوقها في عالم الغيب . واهتداؤه إلى هذه الفضائل وحدها هو المقصود عند هؤلاء وهو واضح لا شبهة فيه ! !

(١) الأدب المقارن ط الثالثة للدكتور هلال ص ٢٤١ .

طوق الحمامة تيسبق إلى تشریح الحب

تظل كتابة المستشرق الهولندي الأستاذ ريتهارت دوزي جيدة مستقيمة ، حتى يلم بميزة بارزة للإسلام فينحرف !

لقد ذهب في الجزء الثالث من كتابه عن تاريخ المسلمين في إسبانيا إلى أن ابن حزم قد عرف الحب العذري العفيف وتذوقه لأنه من أصل مسيحي في زعمه ، ولأن عرق المسيحية العفيف قد نبض فيه رغم إسلامه فجعله ينحو منحى العفة شاذاً بذلك عن بقية المسلمين ! ! وجاء من المستشرقين من أيده وسانده ، ومنهم الأستاذ ماسينيون وهو من أعمق الدارسين للحب الإسلامي صوفياً وعذرياً ، فماذا نقول في ذلك ؟ ! ! لو كانت مسألة العفة في الإسلام من الأمور المتشابهة التي تلتبس فيها الآراء وتحتاج إلى مجهر دقيق يبرز ما استتر من النصوص والأحداث لعذرنا دُوزي وماسينيون فيما ذهبا إليه من التفسير ! ولو كان المستشرقان الكبيران ممن لم يتعمقوا هذه النصوص الصريحة ولم يتبينوا الوقائع المشاهدة لقلنا عنهما لقد فقدنا الدليل وأعوزهما البرهان ، ولكن الحب العذري في الإسلام برجاله وأحداثه وأشعاره أوضح من أن يدل عليه وأشهر من أن يجعله مبتدئ ناشيء يتلقى الدراسة الأولى في الثقافة الإسلامية ! بل إن كتاب طوق الحمامة الذي جعلهما يصدرا هذا الحكم الجائر ليضم فصلين طويلين عن قبح المعصية وفضل العفة في الإسلام ، وبهما من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما يكفي لإيضاح رأي الإسلام في التمسك بالفضيلة والشرف والعفاف ! فلو أن الأستاذ دوزي - على سبيل الجدل - لم يقرأ شيئاً عن تعاليم الإسلام وقرأ هذين الفصلين وحدهما لكان جديراً أن يبطل رأيه فيما ادعاه ! فما ظنك بما سينون وأبحاثه عن التصوف الإسلامي والحب الإلهي ذائعة مستفيضة ! ! أنفترض بعد ذلك كله أنهما حكما على كتاب ابن حزم دون

أن يقرأه ! وأن الأستاذ ماسينيون تكلم عن الحب الإلهي في الإسلام دون أن يعرف عن أصحابه شيئاً ! ذلك أهون بكثير من أن نصمهما بسواه .

لئن كان الحب العذري نبع في الجاهلية لدى المرقش الأكبر وأضرابه ، ممن هدتهم الفطرة العربية إلى الطهارة النبيلة ، والشرف الأثير فإن ما ولى ذلك من دعوة الإسلام المتكررة إلى العفاف والصون ومحاسبة النفس ورقابة السماء ، قد أكدت هذه المعاني وجعلت لها أناساً وقبائل وبيوتاً تنسب إليها ، وتشتهر بها ، وإذا كان الإسلام قد دعا إلى الجهاد بقوة ، فإن الجهاد الأكبر جهاد النفس ومصارعة الأهواء كما يقول الرسول الكريم ، وبهذه التعاليم المثالية أصبح العفاف مبدءاً إسلامياً قويا الدعائم وصارت الطهارة والمروءة والترفع من سمات هذا الدين العفيف ، وتحدث التاريخ لدينا عن جماعة من العشاق تتأجج أشواقهم في صدورهم ثم لا يهتمون بشيء دعايةً للشرف وامتثالاً لقواعد الإسلام ، كان عبد الرحمن بن عمار المعروف بالقس عابداً متنسكاً وقد أوقعه حظه في سلامه المغنية فبادلته حباً بحب حتى اشتهرت به فقبل عنها سلامة القس ، فقالت له أنا أحبك فقال لها وأنا والله كذلك ! قالت فما يمنعك فوالله إن الموضع لحال ، فقال في إشفاق لقد تذكرت قول الله عز وجل : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلا المتقين » وأنا أكره أن تنقلب خلقتنا عداوة يوم الحساب .

وبرح للوجد بعروة ابن حزام فقادته أشواقه إلى منزل صاحبتة ، ونزل ضيفاً على زوجها بالشام ، فأكرمه وأحسن وفادته ثم خرج وتركه مع عفراء يتحدثان فلما خلوا تشاكيا وطالت الشكوى وهو يبكي أحر بكاء ثم أتته بشراب وسألته أن يشربه فقال والله ما دخل جوفي حرام قط ، ولا ارتكبته منذ كنت ، ولو استحللت حراماً لكنت قد استحللته منك فأنت حظي من الدنيا ! ولعل من البدائة أن نشير إلى حديث رسول الله : سبعة يظلمهم الله وفيهم : ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال إني أخاف الله .

وقد كنا على أن نفيض في أمثال عبد الرحمن القس ، وعروة بن حزام
وقيس وعروة بن أذينة وتوبة بن الحمير وجميل بن معمر وكثير عزة
وسواهم من ذوي الحب العفيف ، ولكن كتب الأدب تزدهم بذلك مفزقاً
في الأغاني ومنتصلاً في كتاب ذمّ الهوى للإمام ابن الجوزي بحيث أصبح
الحب العذري في الإسلام موضوعاً كبيراً له أبطاله ووقائعه وأشعاره ، ولن
يجرؤ أحد على القول بتأثر العذريين في دولة بني أمية بالحلب الأفلاطوني ! !
إذ لم تكن إذ ذاك صلة ما بين العرب واليونان ! ! فالحب العذري مرتكز
لا محالة على مبادئ الإسلام .

«والحق أن اتجاه طوق الحمامة الفريد ! إلى تحليل الحب والسمو به على
نحو طريف لم يعهد قبله في الأدب الأوربي قد دفع دوزي إلى رأيه ،
ليجعل ابن جزم متأثراً بالمسيحية لا بالإسلام فيما يصدر عنه من قيم
وآراء ، ولكن ذلك شيء والحق شيء آخر ، يقول الأستاذ زكي مبارك
في النثر الفني (١) :

«لقد طبع كتاب طوق الحمامة في لندن سنة ١٩١٤ بعناية المأسوف
عليه الأستاذ بتروف وقد أحدث ذلك الكتاب رجة عنيفة في أوروبا ، وتناولته
المجلات الأدبية بالنقد والتحليل وكان موجب تلك الضجة أنه لم يثبت أن
كتاباً ألف في فن الحب قبل ذلك الكتاب لا في اللغات القديمة ، ولا في
اللغات الحديثة لأن أوروبا في القرن العاشر الميلادي كانت معارفها قليلة جداً
في الشئون الوجدانية ، فكان من المستظرف حقاً أن يكشف الباحثون أنه كان
في ذلك العصر كاتب عربي يتناول حديث الحب والعشق والهيام في
تفصيل شائق جذاب هو آية الآيات في فهم أسرار الأهواء والشهوات
والقلوب» .

لم تكن للمرأة الأوروبية في عصر ابن حزم إلى قرن بعده منزلة رفيعة
تدعو إلى التسابق في استرضائها ، فالمجتمع الأوربي إذ ذاك لا يراها إحدى

(١) النثر الفني ج ٢ ص ١٦٦ لزكي مبارك .

عناصره المؤثرة ولا يجد في محاسنها الحالية ما يلهم أحاسيس كتابه ويذكي مشاعر شعرائه فيقدمون لها تراثيل الولاء والحب في نغم ضارع لهيف ! ! نعم قد تحدث الأدب اليوناني قديماً عن الحب وأشاد به أفلاطون ، وبرزت قصص الإغريق مضمخة بعبير المرأة أحياناً . . . ولكن صدى الإغريق قد انقطع عن أوروبا في العصور الوسطى حتى هبت نسيمات العرب من الشرق تحمل أنباء الفروسية العربية ومن تقاليدھا احترام المرأة وتمجيد الحب الطاهر ، والارتفاع بالغرائر إلى أوج الشرف والفضيلة والعفاف ، ثم انتقل التأثير الأندلسي من كتابة ابن حزم العاطفية فوجه العيون إلى طراز جديد من العواطف ، ودعا الكتاب إلى ممارسة فن جديد من الكتابة ، وكان أندريه لوشابلان ، « في منتصف القرن الثاني عشر للميلاد أول من كتب في ذلك ، فأصدر كتابه « فن الحب العف » وقد تعرض له الناقد الفاضل الدكتور محمد غنيمي هلال بالتحليل فقال عنه في كتابه الأدب المقارن (١) .

« وفيه يذكر إدراكاً للحب لم يكن لأدب الأوربي به عهد حتى ذلك القرن ، وفيه ترتفع المرأة إلى مكانه لم تحظ بها من قبل في أوروبا ويخضع الفارس لها كما يخضع للسيد صاحب الإقطاع ، فالفارس يضحى في سبيل حبها ، ويبكي في سر حين يهدده الخطر في حبه ويعد ضعفه أمامها نبلا وسمواً لا استكانة فيه ولا شرر يسببه » إلى أن يقول الدكتور الفاضل ص ٢٠٨ :

« والقرائن التاريخية تحمل على الاعتقاد أن هذا الإدراك للحب على نحو فريد في الآداب الأوروبية إنما ظهر في تلك الفترة بتأثير حب الفروسية العربي بعد أن أشرب أهله روح الإسلام فعبروا في شعرهم العربي عن عاطفتهم العفة الخالصة ، ومن القواعد التي يذكرها شابلان في كتابه السابق أن المحب لا يهيم بسوى محبوبة واحدة ، وأن المحب يظهر عليه بهت الخشوع أمام حبيبته ويضطرب قلبه بمحضرها ولا يقصر في أي مطلب تريده

(١) الأدب المقارن : ص ٢٠٥ ط ٣ للدكتور هلال .

منه حبيبته ولو تحمل في ذلك المشاق وخيالها دائماً نصب عينيه إن غابت عنه ، وعليه أن يكتم حبه لأن إذاعة الحب سبب من أسباب القضاء عليه ، ثم عليه أن يكون كريماً غير بخيل إذ الكرم صفة جوهرية لعاطفة الحب الصادق ، وهذه كلها كما نعلم يفيضُ بها الشعر العربي وينص عليها كل من تعرضوا لدراسة هذه العاطفة من القدماء ومنهم محمد بن داود وابن حزم .

وإذا كان لطوق الحمامة وما نحا نحوه من كتب العرب ، هذا التأثير النفاذ فيما اتصل به من الآداب ، فإن الحديث عنه هنا محتوم مفروض .

* * * * *

سلم يكن ابن حزم بدعاً بين الفقهاء في مقاساة الحب ، ولا بين الكتاب في الحديث عنه ، والتأليف فيه ، فنحن نعلم عن كثير من الفقهاء والمحدثين ضروباً من الحب العذري الصادق ، وقد يكون هذا مستغرباً لدى من يظنون التفقه في الدين والتنسك في العبادة مما يمنع خفوق القلب بالهوى ، والتهاب الجوانح بالشوق ! وهذا خطأ واضح ، لأن العواطف الإنسانية لا تكبت بدراسة الفقه والتفسير والحديث ! ولكن هذه الدراسة فقط مما يساعد على إعلاء الغرائز وسمو العواطف ؛ فالفقيه العاشق أقرب إلى التصون غالباً من الأديب العاشق لأن له من فقهه الديني وإحساسه بمكانته في المجتمع ما يسمو به عن الريبة والظن ، هذا إلى ما يغرسه الإسلام لدى الصادقين من رجاله من طموح إلى الكمال وارتفاع عن النزوات ، فإذا وقع أحدهم في غمرة الحب فإن له من مبادئه ما يهديه إلى التصون والكرامة والعفاف وقد يجد العاشق المتحلل منفذاً غير كريم إلى ارتوائه فتهدأ عاطفته ، ويسلو وجده ، أما الفقيه المتنسك فلن يعترف ما يغضب الله فيظل عفيفاً طاهراً على وجده المضطرم وإحساسه المشبوب ! وقد تلج به الأشجان حتى تصل به إلى الوله السقيم ! وهذا ما كان لذوي الصبابة من الفقهاء .

لا عجب إذن أن يكثر الحب العذري في تاريخ الفقهاء ، وهم قوم
ذو تصون وعفاف بل إن العجب ألا يكون مع ما يحملون من قلوب خفاقة
وعواطف رقيقة ، ووجدان مشبوب ، أننا نجد جماعة من الفقهاء في الصدر
الأول من الإسلام يشتهرون بالصباية ويترنمون بالشعر حتى اشتهروا بالخفة
والظرافة ، وضرب بهم المثل في ذلك فقليل : « أظرف من فقيه » هذا عروة
ابن أذينة الفقيه المحدث وشيخ مالك بن أنس يقول :

إن التي زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأدقها وأجلها
منعت تحيتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها
فدنا وقال لعلها معذورة في بعض رقبتها فقلت لعلها

ويقول في قصيد مؤثر :

إذا وجدت أوار الحب في كبدي عمدت نحو سقاء الماء أبترد
هبني بردت ببرد الماء ظاهره فمن لنار على الأحشاء تتقد ؟

وهذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الذين انتهى إليهم
بالمدينة على عهد عمر بن عبد العزيز وكان أمير المؤمنين يقول فيه لمجلس
ابن عبد الله أحب إلى من الدنيا وما فيها ! هذا عبيد الله يقول :

كتمت الهوى حتى أضربك الكتم ولاملك أقوام ولومهم ظلم
وزادك إغراء بها طول بخلها عليك وأبلى لحم أعظمك هم
ألا من نفس لا تموت فينقضي شقاها ولا تحيا حياة لها طعم
تجنبته هجران الحبيب تأثماً ألا إن هجران الحبيب هو الإثم
فدق هجرها قد كنت تزعم أنه رشاد ألا يا ربما كذب الزعم

وهذا عبد الرحمن القس ! وأبياته أشهر من أن تذكر ، وهذا سواه
وسواه في فجر الإسلام وهم كثير !

على أن أشهر من كتب من الفقهاء قائماً بذاته في الحب هو محمد بن داوود الظاهري صاحب الزهرة وابن حزم صاحب الطوق وقد احتذاهما بعد ذلك مؤلفون ! والثابت المجزوم به أن ابن حزم قد قرأ كتاب الزهرة وتأثر به فقد أشار إليه في الطوق ! وكان الزهرة من الزيوع في الأندلس بحيث عارضه أبو عمر أحمد بن فرج الجمياي بكتاب سماه الحقائق - ضاع ولم يصل - ألفه للحكم المستنصر بالله وقال عنه ابن دحية في المطرب (١) :

« وعارض به كتاب الزهرة لأبي بكر بن محمد بن داود بن علي الأصبهاني إلا أن أبا بكر إنما ذكر مائة باب في كل باب بيت ، وأبو عمر أورد مائتي باب في كل باب بيت ، ليس منها باب تكرر اسمه لأبي بكر ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً » . هذا إلى كتابات إخوان الصفا في رسائلهم عن العشق وأبي بكر السراج صاحب مصارع العشاق والحرائطي صاحب اعتلال القلوب وكلهم قد سبق ابن حزم ؛ ولكن الرائد الأول هو محمد بن داود ، وتلاقى كتاب الزهرة مع كتاب الطوق في أكثر من وجه يلفتنا إلى الحديث عنه في مجالي المقارنة والتأثير !

كانت ظروف ابن داوود غير ظروف ابن حزم فالأول حيي رقيق خجول تزعجه الهمسة وتضايقه الإشارة واللفتة نشأ في أسرة فقيرة شريفة فأبوه إمام المذهب الظاهري ببغداد كان يأكل من كسب يده على ندرة وكفاف ، وقد عرف ذلك بعض مقدريه فأهداه بكرة ثمينة من الدنانير فرفضها في إباء ! وولده منذ صغره ضعيف رقيق يذهب إلى الكتاب مع الصبية فإن تندر عليه زميل بكلمة أوجعته وأسالت دمه وجاء إلى والده شاكياً ! ثم مضت به السنون فمات أبوه وتبواً كرسيه في رئاسة المذهب الظاهري بعده ، وما زال على رقة قلبه ورهافة حسه ، وانفعال وجدانه وثورة عاطفته حتى ابتلاه القدر بهوى عاصف ! وقد تعرض ابن داوود

(١) المطرب لابن دحية ص ٤ .

لعواطف الهجر والغضب والوشاية والرقابة والعزل فتمرس بأحاسيس
عنيفة ألهمته كثيراً من المقطوعات الشعرية وأمدته بعواطف وجدانية شفافة
سطرها في كتاب الزهرة فكان تجربة ذاتية لعاشق مسكين ! !

أما ابن حزم فيشترك مع ابن داود في أنه أحد أئمة المذهب الظاهري
مثله وأقوى المدافعين عنه بلسان صارم ومنطق قوي وعارضة ذات صيال
ومجالدة ، ولكنه يختلف عن صاحبه في كثير ، لقد نشأ في بيئة مترفة منعمة
فأبوه وزير خطير ، تمتليء قصوره بمغريات الأنس ومفاته ، وضروب
النعيم وأفانيه من مأكول ومشرب وملبس ومنظر وملمس ومشتم ومنتزه !
هذا إلى الجاه المؤثّل والكلمة المسموعة والصيت المدوي ! ولم يذهب إلى
الكتاب مع الصبية كما كان ابن داود بل تلقى الدراسة الأولى على المثقفات
من جواري القصر ، علمنه الكتابة والحساب وحفظ على أيديهن القرآن
والحديث ورأى أشباههن الناعمات المتنعمات يرفلن في قصر أبيه بين الزخارف
والرفارف والحرير والديباج والفل والريحان ! في مجالس للأنس واللهو
والطرب ترن بالشعر وتصدح بالأوتار والعيوان !

فخبر الحسان خبرة وافية في صباه وأحب وعشق وقاطع وواصل !
مع أنه لم يرفع ذيله على حرام كما أقسم على ذلك أغلظ الأيمان ثم سطر
كتاب الطوق فأودعه ذكرياته وتجرباته ، وقدم لنا أثراً عاطفياً يقرأ على
مدى الأجيال في تقدير وإعجاب . .

تحدث ابن داود في الزهرة عن الحب فألمّ بأقوال الفلاسفة فيه ،
وروى عن جالينوس وبطليموس ووصف سبيل الهوى إلى القلب ومسلكه
إلى النفس ، وقدر أثر السماع ، وتنقل في خطوات الحب من استحسان
إلى مودة إلى محبة إلى خلة إلى عشق إلى تميم إلى تدلّه مستشهداً بالشعر له
ولغيره من كبار المدنفين ، وله تعليقات طريفة عند كل مقطوعة وملاحظات
نفيسة بارعة لا تخلو من طرافة وإبداع الحبيب إذا استيقن ود حبيبه
(استغنى عن التعرف وارتفعت حاجته) .

إلى التألف فحينئذ يقع الغضب من غير ذنب والإعراض من غير وجد
لسكون القلب الواثق واستظهار المعشوق على العاشق» . ص ٤٥ من الزهرة .

والمحب يؤتي من مأمنه « فالتصنع الشديد يخرج عن العادة فيوقع التهمة
بصاحبه » . ص ٣٢٢ .

أما حديثه عن الحجاب والرقيب والعذول والواشي وصنوف المهجر
فتمط من الملاحظة والدقة ، وله خطرات شفاقة تتجلى في مثل قوله :

« إن المعتذر لا ينفك من إحدى حالين إما أن يكون صادقاً أو كاذباً
فإن كان صادقاً فعذره مقبول ، وإن كان كاذباً فإنه لم يتجشم مضاضة
الكذب في نفسه إلا لنفاسة صاحبه في صدره ومن كان بهذه الحال قبل
عذره بل وجب شكره ! » ص ٥٧ .

ويروي هذه الأبيات عن لحظات العيون في حضرة الرقيب :

إذا نحن خفنا الكاشحين فلم نطق كلاماً تكلمنا بأعيننا سراً
فنفضي ولم يعلم بنا كل حاجة ولم تظهر الشكوى ولم نهتك السترا
ولو قذفت أحشاؤنا ما تضمنت من الوجد والبلوى إذن قذفت جمرنا

ثم يعلق عليها بهذا القول البديع : « صاحب هذا الشعر البائس مغتر
بالزمان ، جاهل بصروف الأيام ، يتبرم بالرقيب مع مشاهدة الحبيب ،
وهو لا يعلم أن هذه الحال تتقاصر عنها الآمال ، وتنقطع دونها الآجال ،
ولكن من لم ينكبه الفراق ولا الهجر ولم يتعرض للخيانة والغدر حسب أن
الرقيب هو منتهى كيد الدهر وظن أنه امتحن بما لا يقوم له الصبر » ص ٩٢ .

ويلاقى من بلاء الإخوان وكراثات النميمة والوشاية ما يوقعه في اليأس
حتى يضطر إلى التمسك بالمنافقين ! وهذا أمر يستغربه من لم يقرأ كلام
ابن داوود ، ولكنه يلمس وجهة نظره سافرة واضحة حين يسمعه
يقول :

« واعلم أدام الله تأييدك أن المرتضين من الإخوان معدومون في هذا الزمان وإنما بقي قوم ينتصفون ولا ينصفون ، إن بسطتهم لم يهابوك ، وإن أحشمتهم اغتابوك ، وما دامو لك راجين أو خائفين فهم لك منقطعون فإذا زایلوا هاتين الحاليتين لم يرعوا لك إحاء ، ولم يعتقدوا لك وفاء ، فإذا ظفرت بمنافق فتمسك به فإنه على كل حال خير من غيره لأنه يظهر لك ما تسر به ، وإن كان يضمخ خلافه بقلبه » . ص ٢ .

وقد يشتط كثيراً في محاسبة غيره كما نقد المجنون في قوله :

يلومك فيها اللأثمون نصيحة فليت الهوى باللائمين مكانيا
لو أن الهوى عن حب ليلي أطاعني أطعت ولكن الهوى قد عصانيا
حيث يرى ابن داوود أن « هذا الكلام لا يكون إلا عن حال ضعيفة أو يعقب ضجرة شديدة لأن صاحبه لم يرض بالتبرم من هواه حتى ضم إلى ذلك تمنى انصراف الحال إلى سواه » .

ولست مع الناقد في رأيه ، لأن كل إنسان يتمنى لنفسه السلامة ! وهو في أعماقه لو تبين نفسه تبيناً صادقاً لعرف ذلك منها ! أما أنه يتمنى انصراف الهوى لللائمين فإحساس فطري صادق يغلب على كل إنسان يرى مجادلة يعنفه دون أن يستشعر إحساسه ولن يقنعه بيان ما مهما أكدته الحجج فلم يبق إلا أن يذوق ليحس ويستشعر ! !

ومهما يكن من شيء فقد كان كتاب الزهرة أول مصنف بقي بأيدينا في موضوعه ، والفرق بينه وبين طوق الحمامة فرق ما بين المبتدئ والمعقب ، فإذا كان قانون التطور والارتقاء يرى في الزهرة غرساً صغيراً في تربة جديدة ، إذ أن مؤلفه نقل عن نفسه وعن غيره وجمع من هنا وهناك ، وقد تعوزه الوحدة والاطراد وشمول الملاحظة فإن هذا القانون نفسه يرى في كتاب الطوق ثمرة يانعة آتت أكلها بتوالي الزمن على يد قاطف ماهر أحسن السقي ووالى العناية حتى تهملت الأفنان ، وجاء كتابه صورة مكتملة لإحساس قوي نفاذ ! !

كان ابن حزم آية من الآيات بين أقرانه وأنداده ، فالرجل عالم ضليع متمرس بالجدل متقدم في المناظرة والحجاج ، ينافح عن مذهب قل أنصاره وكثر مناوئوه ، ويتعرض لأئمة عظام متقدمين سار لهم في التاريخ ذكر وفي النفوس مهابة وإجلال ، فيكر على أمثال أبي حنيفة والشافعي ومالك والأشعري وأئمة الاعتزال بما يجبه آراءهم وينقض حججهم معتصماً ببرهانه النافذ ودليله المكين ، ولعله لم يتجه إلى تأييد مذهب الظاهرية إلا حين رأى بعض معاصريه من الفقهاء ينزلون على آراء الملوك والرؤساء فيعولون النصوص ، ويتعسفون الدليل ، وفي ذلك فساد للشريعة ، ووهن في الخلق فربأ بنفسه أن يسكت عن هؤلاء المغرضين ، وقد ملكوا الدنيا بالأندلس بمذهب مالك ، وقسموا الأموال بابن القاسم ! وانبرى لمنازلة أئمة المذاهب المختلفة جميعاً سوى مذهبه الظاهري من أحياء وأموات ! ! ولسنا نزعم أن الحق مع ابن حزم في جميع ما حاور وأفتى ، فأئمة الإسلام معروفون بحسن الاستدلال ونزاهة الرأي ، وما أصدروا أحكامهم دون تعقل واستقراء ولكننا نوضح أنفة ابن حزم وحميته حين اعتنق مذهباً رأى فيه الصواب ، فأبطل القياس وتمسك بالنص .

هذا الإمام الذي كتب أربعمئة مجلد في الفقه والتفسير والمثل والنحل والأخلاق والتاريخ ، ولم يفقه في كثرة التأليف من رجال الإسلام غير ابن جرير الطبري رحمه الله لم ير مانعاً أن يسجل تجاربه الذاتية في دنيا الصبابة ، غير عابئٍ بافتراءات خصومه على كثرتهم الكاثرة ! هؤلاء الذين ألّبوا الرؤساء عليه فكان يرحل من بلد إلى بلد فراراً بنفسه حتى أحرقت مؤلفاته بسمع منه فما وهن أو استكان بل نظم أبياته السائرة :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس إذ كان في صدري

هذا الداعية المنافح الألد قد أصدر « طوق الحمامة » ليطلع الناس على خفقات الأفئدة ، ورجفات الضلوع فكان نسقاً جميلاً من القول ، كشف الستائر عن نبضات تدق بها القلوب ! وجذوات تشتعل بها الدماء .

تري قوة الملاحظة لدى ابن حزم في تحليل الوقائع وتشريح الحوادث ، وتلمس يقين القول في الاعتراف المخلص والشهادة الصادقة وتدرک لطافة الحس وصفاء النفس في استشفاف البواعث المستترة وتفسير الحركات العارضة ، وتصوير الانفعالات المتتابعة مما يجعل طوق الحمامة مزيجاً من المذكرات الشخصية والتحليلات النفسية ، وتصوير المجتمع الأندلسي في أرقى مستوياته وأرفع طبقاته فهو كتاب أدب وعلم نفس واجتماع وتاريخ وهو بهذه النفاسة الطريفة أهلٌ لما أحدث في الشرق والغرب من تأثير وإيحاء ، يتحدث عن علامات الحب فيذكر منها إدمان النظر ، والإقبال بالحديث والإسراع بالسير نحو مكان الحبيب والتعمد للعود بقربه ، والبهت والروعة عند رؤيته مفاجأة ، والتكارم والتشجع أمامه وكل هذه من الأمور المدركة التي يعرفها ابن حزم وسواه ولكن ما يبهرنا من ابن حزم أن يمهّد بها مع اتساع في الوصف إلى العلامات المضادة فيكشف خبايا النفوس ويزيح الأغطية عما لا يراه سوى الألبة الحصفاء ، فينص على أن المحبّين إذا تكافأ في المحبة وتأكدت بينهما تأكداً شديداً يتخاصمان ويتناقشان ويتتبع كل منهما ألفاظ صاحبه ، ويؤولها على غير معناها ليبدو لها من ذلك ما يكشف عن دخيلة حبيبه ثم يقول ابن حزم : « والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجر والمضادة المتولدة عن الشحنة هو سرعة الرضا فإنك بينما ترى المحبين قد بلغا الغاية من الاختلاف الذي لا تقدره يصلح عند الساكن النفس ، السالم من الأحقاد في الزمن الطويل فلا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجمل الصحبة وأهدرت المعاتبة وسقط الخلاف وانصرفا في ذلك الحين بعينه إلى المضاحكة والمداعبة ، هكذا في الوقت الواحد مراراً ، وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يخاللك شك ، ولا يدخلنك ريب البتة ، ولا تتمار في أن بينهما سرّاً من الحب دفيناً ، واقطع عليه قطع من لا يصرفه صارف وقد رأيت كثيراً » (١) .

(١) طوق الحمامة لابن حزم ط المستشرق بروف سنة ١٩١٤ ص ١٤ .

وقد كانت نشأة ابن حزم الأولى بين جاريات القصر وحسانه ،
ومشاهدته ضروب العلاقات بين الفتيان والفتيات ومزاولة هذه التجارب
بنفسه أعواماً طويلة مما أعانه على أن يضع أحكاماً عاطفية لا تخطيء فهو يسن
من الأقوال ما يظل قانوناً عاماً يطبّق بين الناس ما بقيت قلوب وعيون !
وتراه يتحدث عن الإشارة بالعين فيرى أن اللحظ المتبادل يقطع به ويتواصل ،
ويوعد ويهدد ، وينتهر ويبسط ، ويؤمر وينهي وتضرب به الوعود ، وينبه
على القريب ، ويضحك ويحزن ولكل واحد من هذه المعاني ضرب في هيئة
اللحظ لا يوقف على تحديده إلا بالرؤية ، ولا يمكن تصويره ولا وصفه
إلا ما تيسر « فالإشارة بمؤخر العين الواحدة نهي عن الأمر وتفتيرها إعلام
بالقبول ، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف ، وكسرُ أنظارها آية
الفرج ، والإشارة إلى أطباقها دليل على التهديد ، وقلب الحدقة إلى جهة ما
ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه ، والإشارة الخفية بمؤخر العين سؤال
وقلب الحدقة من وسط العين إلى المآق بسرعة شاهد المنع ، وترعيد الحدقتين
من وسط العينين نهي عام (١) » . أرأيت دقة في الملاحظة وعمقاً في التفسير ،
وبراعة في التأويل أنفذ من هذا السياق الصريح وهل يتسنى ذلك لغير داهية
خبير ؟ .

أما تصويرهُ النفسي لخبايا النساء فمن أجمل ما كتب في موضوعه
الدقيق ، فابن حزم يفهم نفسية المرأة كما يفهم نفسية الرجل ، ويرى موقع
القوة والضعف لدى الجنسين فلا يجور في حكمه متعصباً للرجال بل يصف
المشاهد الملموس كما كان ! يتحدث عن المساعد المعين من الإخوان على
الشوق والشجن ! فيرى التنفيس عن الصدر بالبث ، والشكوى للرفيق
الأمين مدعاة للراحة والاطمئنان ، وبعض العشاق يفقد الصديق الأمين على
السر الحافظ للغيب ، فيضيق بأشجانه وينفرد بنفسه في المكان النازح عن
الأنيس يناجي الهوى ويكلم الأرض ويجد في ذلك راحة المريض في التأوه ،

(١) الطوق ص ٢٩ .

والمحزون في الزفير ، يقول ابن حزم : « وما رأيت الإسعاد أكثر منه في النساء فعندهن من المحافظة على هذا الشأن والتواصي بكتمانه والتواطؤ على طيه إذا أطلعن عليه ما ليس عند الرجال ، وما رأيت امرأة كشفت سر متحابين إلا وهي عند النساء ممقوتة مستثقلة مرمية عن قوس واحدة وإنه ليوجد عند العجائز في هذا الشأن ما لا يوجد عند الفتيات لأن الفتيات منهن ربما كشفن ما علمن على سبيل التغاير وهذا لا يكون إلا في الندرة ، وأما العجائز فقد يثن من أنفسهن فانصرف الإشفاق محضاً إلى غيرهن . . . وإنك لترى المرأة الصالحة المسنة المنقطعة الرجاء من الرجال وأحب أعمالها إليها وأرجاها للقبول عندها سعيها في تزويج يتيمة وإعارة ثيابها وحليها لعروس تعلمه (١) .

وقد يحدث أن يجمعك برفقائك مجلس عام وتريد أن تتحدث إلى زميل من الرفقة بحديث خاص تلمح إليه دون أن يفهم أحد سواه فيرد عليك بما يناسب قولك في تحفظ واحتياط ! ! هذه حالة ملحوظة بين الناس ولكنها تحتاج إلى لباقة حصيفة بين المتحابين بنوع خاص لأن الحب كان ولا يزال مدعاة الريب ومثار الظنون ! ونفوس الجلاس لا تشغل بمسائل الكسب والطعام والشراب شغلها بمسائل الحب والوصال فهي إلى إشارات المحبين أجذب وعلى تفسيرها أحرص ، وهذا يتطلب من العاشقين لباقة سريعة في إيصال ما يريدان فإذا بلغا مقصوديهما في إخفاء استشعرا سروراً وبهجة لا يوصفان ! وقد رصد ابن حزم هذه الظاهرة اللطيفة بمرصده اللاقط وشرحها ببيانه الرائق إذ قال :

« ومن التعريض بالقول جنس ثان ولا يكون إلا بعد اتفاق ومعرفة المحبة من المحبوب فحينئذ يقع التشكي ، وعقد المواعيد والتعديد ، وإحكام المودات بالتعريض وبكلام يظهر لسامعه معنى غير ما يذهب إليه فيجيب السامع عنه بجواب غير ما يتأدى إلى المقصود بالكلام على حسب ما يتأدى

(١) المصدر نفسه ص ٤٦ .

إلى سمعه ، ويسبق إلى وهمه ، وقد فهم كل واحد منهما عن صاحبه وأجابه بما لا يفهمه غيرهما إلا من أيد بحس نافذ ، وأعين بذكاء — وأمد بتجربة (١) .

وشبيه بذلك قوله ص ٥٩ : « وقد شاهدت من هذا المعنى كثيراً وإنه لمن المناظر الباعثة على الرقة الرائعة المعنى لا سيما إن كان هوى يكتتم به فلو رأيت المحبوب حين يعرض بالسؤال عن سبب تغضبه بمحبة ، وخجلته ، بالخروج مما وقع فيه بالاعتذار وتوجيهه إلى غير وجهة وتخيله في استنباط معنى يقيمه عند جلسائه لرأيت عجباً ولذة مخفية لا تقاومها لذة وما رأيت أجلب للقلوب ولا أغوص على حياتها ولا أنفذ للمقاتل من هذا الفعل » .

ومعدن البراعة في بيان الكاتب النفسي أنه يحدثك أحياناً عن مشاعر واضحة ملموسة لدى أكثر الناس ولكنه ينقلها في طرافة خالصة يخيل إليك معها أنك تحسها لأول مرة وأنت لا تعرف عنها ما يريد أن يقول ! وابن حزم من أبرع هؤلاء الواصفين فهو كثيراً ما يحدثك عما تعهد وتعرف ، وإن لحديثه لحلاوة تأخذ عليك مجامع إحساسك وتلك رسالة الفن الأدبي حين تكون الألفاظ به إعادة تجارب ، ورجع صور للعين وغناء للسمع ونشوة للروح وطرباً للفؤاد ! استمع من هذا إلى قوله الرائع :

« هل شاهد مشاهد ، أو رأيت عين ، أو قام في فكر ، ألد وأشهى من مقام قام عنه كل رقيب ، وبعد عنه كل بغيض ، واجتمع فيه محبان قد تصارما للذنب وقع ، فابتدأ المحب في الاعتذار والخشوع والتذلل ، والإدلاء بحجته الواضحة بين الإدلال والإذلال ، والندم بما سلف ، فطوراً يدل ببرائته وطوراً يريد العفو ويستدعي المغفرة ويقر بالذنب ولا ذنب له ، والمحبوب في كل ذلك ناظر إلى الأرض ، يسارقه اللحظ الخفي ، وربما أدامه فيه ، ثم يبسم مخفياً لتبسمه ، وذلك علامة الرضى ثم ينجلي مجلسهما عن

(١) الطوق ص ٢٨ .

قبول العذر ، وذهاب السخط وقبول العتاب ! ! هذا مكان تتقاصر دونه الصفات وتتلكن بتحديدده الألسنة ، ولقد وطئت بساط الخلفاء وشاهدتُ محاضر الملوك فما رأيتُ هيبة تعدل هيبة محبِّ لمحبوبه ، ورأيتُ تمكن المتغلبين على الرؤساء ، وتحكم الوزراء ، وانبساط إلى مُدبّري الدول ، فما رأيتُ أشد تبجحاً وأعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده . ووثق بميله إليه وصحة مودته له ، وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رأيتُ أذل من موقف محب هيمان بين يدي عاشق غضبان قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء ، ولقد امتحنت الأمرين وكنت في الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف لا أجيب إلى الدنية ولا أساعد على الخضوع وفي الحالة الثانية أذل من الرداء وألين من القطن ، أبادر إلى أقصى غايات التذلل لو نفع ، وأغتتم فرصة الخضوع لو نجح ، وأغوص على دقائق المعاني ببياني وأفن في القول فنوناً وأتصدى لكل ما يوجب الترضي (١) .

هذا قولٌ مجرّب امتحن الأمرين وذاق الحالين ! لذلك كانت اعترافاته القلبية في طوق الحمامة صوراً واقعية لها دلالتها الخاصة عند ذوي التحليل والتعليل من أطباء النفوس وخبراء القلوب ! وإذا كان لكل عاشق مزاجه الشخصي ، وميله الذاتي فإن ابن حزم حين يقدم هذه الاعترافات لا ينسى ذلك فهو يذكر عن نفسه ما يتفق فيه مع غيره ، وما يخالف فيه دون أن يجبرنا على التزام طريقته وحسبه أن يصدر عن حسه الصادق فقط ، وإن كان في بعض الأحيان يعجب لمن يخالف طريقته وينأى عن منحاه . فهو مثلاً لا يجب من نظرة واحدة بل لا بدّ من عشرة واختبار ، وسواه يقع في شرك الهوى عن وجه سريع وذلك ما لا يرضيه بل يعده ضرباً من الشهوة ! ويفصل ذلك فيقول :

« وإني لا أطيل العجب من كل مَنْ يدعى أنه يجب من نظرة واحدة ، ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة ، وأما أن يكون في

ظني متمكناً من صميم الفؤاد نافذاً في حجاب القلب ، فما أقدر ذلك
وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل ، وبعد ملازمة الشخص
لى دهرأ وأخذى معه في كل جد وهزل ، وكذلك أنا في السلو
والشوق فما نسيت ودأ لي قط وإن حنني إلى كل عهد تقدم ليغصني
بالماء ويشرقني بالطعام ، وقد استراح من لم تكن هذه صفته ، وما
مللت شيئاً قط بعد معرفتي به ولا أسرع إلى الأتس بشيء قط أول
لقائي له ، ولا رغبت الاستبدال إلى سبب من أسباني منذ كنت ، لا أقول
في الآلاف والإخوان وحدهم ولكن في كل ما يستعمل الإنسان من
ملبوس ومركوب ومطعم وغير ذلك وما انتفعت بعيش ولا فارقني
الإطراق منذ ذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لشجي يعتادني
ووقوع هم ما ينفك يطرقي ، ولقد نغص تذكري ما مضى كل عيش
استأنفه ، وإني لقتيل الهموم في عداد الأحياء ، ودفين الأسى بين أهل
الدنيا والله المحمود على كل حال وفي ذلك أقول شعراً :

محبة صدق لم تكن بنت ساعة	ولا وريت حين ارتياد زنادها
ولكن على مهل سرت وتولدت	بطول امتزاج فاستقر عمادها
فلم يدن منها غرسها وانتقاضها	ولم ينأ عنها مكثها وازديادها
يؤكدنا أنا نرى كل نشأة	تم سريعاً عن قريب نهادها
ولكنني أرض عزاز صليبية	منيع إلى كل الغروس انقيادها
فما نفذت منها إليها عروقها	فليست تبالي أن يجود عهادها

ولعمري لقد حكم ابن حزم عن تجربته حين لم يعلق به هوى دون عشرة
ملازمة وطول اتصال ، لأن ظروف نشأته في قصور أبيه وفيها الكثيرات
من الجواري الإسبانيات وسواهن ممن يتبادلن الزيارة من علىة الأسر ،
قد مهدت له سبيل الاختيار والاختبار ، فالحسان من حوله في كل مكان ،
وبقاؤهن معه هين دون حجاب ، ولا كذلك المحروم الذي تحم عليه نشأته
ألا يعرف شيئاً عن حواء حتى إذا سنحت له فرصة خاطفة عشق من أول

نظرة ، هذا كثير في الحياة ، وليس لابن حزم أن يعجب منه ، فلو صادف من الجذب والحواء والحرمان ما صادف هذا المتسرع العجول لحاكاه ! وقد تقدمت أبيات ابن حزم في اثناذ المحبة وتولدها بطول امتزاج حتى استقر عمادها ، وهي أبيات جيدة رائعة ! وقلما تستجد أبيات ابن حزم في طوق الحمامة لأنه ينظم في كل موضوع عن كل موقف له أو لغيره ، وفي نظمه سرعة عاجلة لا تسلس له قياد العذوبة والرقة فترى أبياته – غالباً – ذات ثقل وجفاف ! وهي وحدها أضعف ما في طوق الحمامة من سطور ! وماذا عليه لو أعرض عن تسطيرها واكتفى بالتحليل والاعترافات ! أيعظن هذا العالم الأصولي الفقيه النظار الكاتب المفسر أنه شاعر كبير ! !

ويوقعنا الإمام في حيرة حين يتحدث عن بعض معشوقاته فيروي قصتها وتأتي الخاتمة بالفراق – رحيلاً أو موتاً – فيعلن أنه لم يسلمها للآن ، وأنه دفين الأسى بين أهل الدنيا ، وقتيل الموموم في الأحياء ، وما طاب له عيش بعدها ولا أنس بسواها ، ثم يروي بعد ذلك عن غيرها وما كابد في حبها ! أيكون قد جمع في قلبه بين حب الراحلة وحب الطارئة ، فكان صادقاً بينه وبين نفسه حين حنّ إلى الأولى واستطاب الثانية ! هذه حالة نفسية لا تعد غريبة ومن الجائز أن تقع ! والذين يجزمون بخلوص القلب لواحد فقط ! إنما يعبرون عن أنفسهم وليس لهم أن يتكلموا عن جميع الناس فإن العواطف البشرية من الامتزاج والاختلاف والغموض أبعد من أن يندرج عليها حكم عام ، ولنا أن ننصف ابن حزم فنذكر أنه قال ذلك عن حبيبته نعم ولعلها كانت آخر من أحب ، فلهجته في الحديث عنها توحى بذلك إذ يقول :

« لقد كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً بجارية لي كانت فيما خلا اسمها نعم ، وكانت أمنية المتمني وغاية الحسن خلقاً وخلقاً وموافقة لي ، وكنت أبا عذرها ، وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتني بها الأقدار ، واخترمتها الليالي ومرّ النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار ، وسني حين وفاتها دون العشرين سنة ، ، وكانت هي دوني في السن فلقد أقمت بعدها سبعة

أشهر لا أتجرد عن ثيابي ، ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني وقلة إسعادها ،
وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن ، ولو قيل فداء لفديتها بكل ما أملك
من تالد وطارف ، وبيعض أعضاء جسمي العزيزة على مسارعاً وطائماً
وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ، ولا أنست بسواها ولقد عفى
حي لها على كل ما قبله وحرم ما كان بعده ومما قلت فيها :

مهذبة بيضاء كالشمس إن بدت وسائر ربات الحجال نجوم
أطار هواها القلب عن مسـتقره فبعد وقوع ظل وهو يحوم (١)

وقد ذاق هذا العاشق الدائب مرارة الإعراض كثيراً ولاقى ألم الحرمان
والنفور حتى أعيته الحيل ، وبذل جهد الطاقة في التقرب فما بلغ حاجة
أو بل غليلاً وهو يروي قصته في ذلك مسهباً مكثرأ . فجاءت اعترافاته
عنها حية نابضة تصور تيارات من اللوعة والإشفاق والأسف والاشتياق ،
وسأقلها هنا للقاريء لأختتم بها حديث هذا المحب الطريف ! ! قال
ابن حزم :

« وأخبرك عني أني ألفت في أيام صباي ألفة المحبة جارية نشأت في
دارنا وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً ، وكانت غاية في حسن
وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرتها ودمايتها عديمة الهزل منيعة البذل ،
نقية من العيوب دائمة القلوب ، حلوة الإعراض مطبوعة الانقباض مليحة
الصدود ، رزينة القعود ، كثيرة الوقار مستلذة النفار ، لا توجه الأراجي
نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا مغرس للأمل لديها فوجهها جالب
كل القلوب ، وحالها طارد من أممها ، تزدان في المنع والبخل ما لا يزدان
غيرها بالسماحة والبذل موقوفه على الحد في أمرها غير راغبة في اللهو ،
على أنها كانت تحسن العود إحساناً جيداً فجنحت إليها وأحببتها
حباً مفرطاً فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبني بكلمة وأسمع من
فيها لفظة غير ما يقع في الحديث الظاهر إلى كل سامع بأبلغ السعي

(١) طوق الحمامة ص ٨٥ .

فما وصلت من ذلك إلى شيء البتة ، فلعهدي بمصطنع كان في دارنا
 لبعض ما يصطنع له دور الرؤساء تجمعت فيه دخلتنا ودحلة أخي رحمه
 الله من نساتنا ونساء فتياتنا ومن لاذ بنا من خدمنا ممن يخف موضعه
 ويلطف محله ، فلبث صدرأ من النهار ثم تنقلن إلى قصبة كانت في دارنا
 مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها متفتحة
 الأبواب فصرن ينظرن من خلال الشراحيب وأنا بينهن فإني لا ذكر أني
 كنت اقصد نحو الباب الذي هي فيه أنثأ بقربها متعرضا للدنو منها فما هو
 إلا أن تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف الحركة
 فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذي سارت إليه فتعود إلى مثل ذلك الفعل من
 الزوال إلى غيره وكانت قد علمت كلني بها ولم يشعر سائر النسوان بما نحن
 فيه لأنهن كن عدداً كثيراً، وإذ كلهن ينتقلن من باب إلى باب لسبب
 الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها ، واعلم أن
 قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدليج في الآثار ، ثم نزلت إلى
 البستان فرغب عجائزنا وكرائمننا إلى سيدتها في سماع غنائها فأمرتها فأخذت
 العود وسوته بخفر وخجل لا عهد لي بمثله وإن الشيء يتضاعف حسنه في
 عين مستحسنة ثم اندفعت تغني بأبيات العباس بن الأحنف حيث يقول :

إني طربت إلى شمس إذا غربت كانت مغاربهـا جوف المقاصير
 ليست من الأنس إلا في مناسبة ولا من الجن إلا في التصاوير

فلعمري فكان المضراب إما يقع على قلبي ، وما نسيت ذلك اليوم
 ولا أنساه إلى يوم مفارقتي الدنيا ، وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن
 في رؤيتها وسماع كلامها وفي ذلك أقول :

منعت جمال وجهك مقلتيـا ولفظك قد ضننت به عليـا
 أراك نذرت للرحمن صوما فلست تكلمين اليوم حيا
 وقد غنيت للعباس شعرا هنيئاً ذا العباس هنيـا
 فلو يلقاك عباس لأضحى لفوز غالباً وبكم شـجيا(١)

(١) الطوق ص ١٠٥ .

ويعضي ابن حزم في القصة إلى نهايتها .

وبعد ! ألا يكون طوق الحمامة بتحليله النفسي وأسلوبه الأدبي ،
ومدلوله الاجتماعي وهواه العذري جديراً أن يحدث دويه فتهب منه على
آداب الشرق والغرب نسمات الطهارة والعفة ممزوجة بعبير الجلال والجمال
ولهذا وجد موضعه في حديث التأثر والتأثير .

تأثير التوابع والزوابع في رسالة الغفران

وجدت في دوائر الاستشراق بحوث كثيرة حول صلة رسالة الغفران بالكوميديا الإلهية لدانتي وأسرف الكاتبون في هذه الناحية إسرافاً لا يزال يتجدد ومع هذا السرف المسرف في تأكيد العلاقة بين الأثرين الأدبيين الكبيرين أو تفهيمها فإننا لم نر فيما قرأناه لهؤلاء بحثاً يحلل صلة الغفران بالتوابع والزوابع تحليلاً جدياً مدعماً ، وعلى افتراض أن تكون الصلة مقطوعة مجذومة أفلا يكون هذا القطع المجذوم موضع بحث يقضي على الشبهات ! مهما كان الاثران النفيسان في أدب واحد ، وفي حقبة واحدة تدعو الباحث إلى نظر بصير !

ولكن كتاب العرب لم يغفلوا ذلك ، فمنذ عُرِفَت رسالة التوابع والزوابع سنة ١٩١٥ في مصر حين اهتم بها الأستاذ محمد المهدي لأول مرة في عصرنا الحديث ، فتحدث عنها لطلابه بالجامعة المصرية القديمة - وهم فيما بعد - ذوو نباهة وتمحيص ، منذ ذلك ، والآراء تختلف حول صلة التوابع والزوابع برسالة أبي العلاء فتارة تؤكد هذه الصلة ، وتارة تجزم بامتناعها ، ونحن أبناء العرب قد ورثنا ابن شهيد وأبا العلاء معاً ، فلن نتحيز لأديب منهما على الآخر ، ولكننا حين نبحث هذا الموضوع نكشف عن وجه الحق كما يترأى لناظره ، ونقدم من الأدلة ما نراه يميل برأي على رأي ، ويهمننا أن تنفرج دائرة هذه الآراء عن صواب سديد .

وإذا كانت رسالة أبي العلاء من الشهرة والذيعوع بحيث لا تحتاج هنا إلى تلخيص أو تحليل ، فإن رسالة ابن شهيد تحرز كثيراً من طرافتها الخالصة ، فقد تحدث صاحبها عن رأي أديب من الجن كان يصاحبه في رحلته إلى ديار عبقر ، يسير به كالطائر يجتأب الجو فالجو ، ويقطع الدو

فالدوة، حتى يشارف أرضاً لا كأرضنا وجوًّا لا كجونا متفرع الشجر ،
عطر الزهر فيصل به إلى دارات ، مُلهمي الشعر ويناقدش معه صاحب
امرؤ القيس يستمع منه ويسمعه ثم يغادره إلى أصحاب طرفة وقيس
بن الحطيم ، وأبي تمام والبحثري وأبي نواس وكلهم يسمعه ويجيزه ثم
ينتهي به إلى شياطين الكتاب، ويسميهم ابن شهيد خطباء فيلقاهم في
محفل واحد ، ويسامر أصحاب الجاحظ وعبد الحميد وبديع الزمان
على نحو يضمن الفاج والانتصار لابن شهيد ، وأنا لم أعرف أن للكتاب
شياطين كما للشعراء إلا حين قرأت رسالة التوابع والزوابع فلعل ابن شهيد
يشير إلى أن الإلهام ذو أصل واحد عند أولئك وهؤلاء ومضت الرسالة
تفتن في عرض هذه الرحلة الأدبية عرضاً يستريح له القارئ وإن ناز علي
بعض ما يتردد بها من الأحكام القاطعة كما يعتنقها ابن شهيد ويحاول أن
يقنع بها الناس !

وأعجب ما يروفي في التوابع والزوابع قدرة صاحبها على الوصف
المناسب ، وتدسسه إلى مواطن الغمز في حيوات الأدباء وأشعارهم فصاحب
أبي تمام يأوى إلى شجرة غيناء، يتفجر من أصلها عين كقطة حوراء ، فإذا
ناداه اشتق الهواء صاعداً من الماء (وكان أبو تمام سقاء يبيع الماء أول
أمره ، فيسأله وما الذي أسكنك قعر هذه العين فيقول حيائي من التحسن
باسم الشعر وأنا لا أحسنه ، وصاحب أبي الطيب المتنبي صلف فخور يسمع
غيره ، ولا ينشد لنفسه وهو فارس على فرس بيضاء ، وبيده قناة قد أسندها
إلى عنقه ، وعلى رأسه عمامة حمراء ، قد أرخى لها عذبة صفراء وقد حيّاه
فأحسن الرد ، ناظراً من مقلة شوساء ، قد ملئت تيهاً وعجباً . وصاحب
بديع الزمان الهمداني ، يسمع أبا عمر بن شهيد حاسداً مغيضاً ثم يضرب
الأرض برجله فتتفرج له عن مثل برهوت يتدهدى إليها فتجتمع إليه ويغيب
بها ، أما صاحب الجاحظ وعبد الحميد فيقولان له : إنا لنخبط منك في
بيداء حيرة وتفتق أسماعنا منك بعبرة ، ولا ندري أنقول شاعر أم خطيب
فيقول ابن شهيد الإنصاف أولى والصدع بالحق أحجى ولا بد من قضاء

فإردان عليه انصرف فأنت شاعر وخطيب معاً . . . ويمضي والأبصار إليه
ناظرة ، والأعناق نحوه ماثلة .

أما صاحب أبي نواس فما أحسن ما تحدث عنه أبو عامر . رآه في
دير حنة ، وهو دير عظيم تعبق روائحه وتصوك نوافحه ، وأقبلت نحوه
الرهابين مشددة بالزنابير ، قد قبضت على العكاكيز ، بيض الحواجب
واللحي ، إذا نظروا للمرء استحيا مكثرين للتسبيح ، عليهم هدى المسيح ،
فقالوا أهلا بك من زائر ؟ ما بغيتك ؟ فقال صاحب أبي نواس . فقالوا
إنه في شرب الحمرة منذ أيام عشرة وما ستتفع به ، فقال أبو عامر :
ونزلنا وجاءوا بنا إلى بيت قد اصطفت دنانة وعكفت غزلانه وفي فرجته
شيخ طويل الوجه والسبلة ، قد افترش أضغاث زهر ، واتكأ على زق
خمر ، وحواليه صببة كأظب تعطو إلى عرارة ، فحيناه ، فجاب
بجواب من لا يعقل لغلبة الخمر عليه ، فأشدها بعض خمرياته (وذكراها
ابن شهيد) فصاخ من حباتل نشوته ، واستدعى ماء قراحاً فشرّب منه
وغسل وجهه فأفاق واعتذر إليّ من حاله فأدركتني مهابته وأخذت في
إجلاله ، وأخذت أنشده قصائدي فقام يرقص ويردد ، ويقول : هذا والله
شيء لم نلهمه نحن ، ثم استدانني فدنوت منه فقبل بين عيني وقال اذهب
فإنك مجاز .

على هذا النمط البديع سارت رسالة التوابع والزوابع ، فأعجبت القراء
وتصارع حولها الباحثون من الأدباء . ونحن هنا نوجز ما عثرنا عليه
مما قيل معقبين بما يتضح لنا بعد الإمعان .

* * * * *

أشار الأستاذ الدكتور أحمد ضيف في كتابه « بلاغة العرب في الأندلس » (١) إلى أن ابن شهيد قد تأثر بأبي العلاء . وهو أول باحث عربي أصدر حكمه في هذه المسألة ، وكان دليله الأول أن شهرة أبي العلاء قد طبقت المشرق والمغرب فلا بد أن يكون أبو عامر قد قرأ رسالته واحتذاه .

يقول الدكتور ضيف ص ٤٨ : « وقد كتب رسالة هي أشبه برسالة الغفران من حيث أسلوبها الأدبي وسماها التوابع والزوابع وكان يقلد أبا العلاء في ذلك لأنه أدرك عصره ولأن شهرة أبي العلاء كانت ذائعة في المشرق والمغرب ، وكان أهل الأندلس يقلدون المشرق في كل شيء » .

وأستاذنا الدكتور ضيف كان يكتب دراسة موجزة منهجية في أدب الأندلس لأول مرة في العصر الحديث ، فلم يكن من همه أن يقف وقفات طويلة عند كل رأي . ولو فعل لامتد به التأليف إلى أجزاء طوال ، وهذا لم يكن . لأنه كان يلقي الأضواء الأولى على تراث ثمانمائة عام ، ويجهد قدر الطاقة أن يحشد من المؤلفات والمؤلفين ما يسمح به مجال مذكرة جامعية تلقى على الطلاب . ولسنا شهد الله نضائيل من كتابه الرائد فحسبه أن كان الخطوة الأولى في طريق المكتبة الأندلسية المعاصرة ولكننا نقول إن أثر العجلة السريعة قد ظهر في حكمه على ابن شهيد بتقليد أبي العلاء إذ أن أقوى حجة لديه أن عصر ابن شهيد يتدرج في عصر أبي العلاء فقد عاش من سنة ٣٨٢ إلى سنة ٤٢٦ وعاش المعري من سنة ٣٦٣ إلى سنة ٤٤٩ ، وكانت شهرته أذيع وأشهر ، ولو سلمنا أن شهرة أبي العلاء كانت مستفيضة في الأندلس ما منعه ذلك أن يقرأ أدب الأندلس ويرجع إليه ، وإذا كان المعري المتمكن المتمرس يجلس مجلس الأستاذ من ابن شهيد الشاب اللاهي في تقدير مؤرخي الأدب ، فكم من أستاذ تأثر ببعض أفكار تلاميذه . فليست استفادة الشهرة وحدها دليلاً يعتمد عليه في ذلك حتى يتقدم به الدكتور ضيف في تأييد حكمه دون أن يشفع به بعض المبررات المحتملة . وما كان أكثرها لو اتسع أمامه المجال على اطمئنان وثيد .

(١) بلاغة العرب في الأندلس للدكتور أحمد ضيف ط أولى ص ٤٨ .

ولكن الدكتور زكي مبارك في الجزء الأول من النثر الفني ، قد وقف تجاه المسألة وقفة طويلة ، فتأمل كلام الدكتور ضيف ثم اتضح له ما يخالفه ، واستند إلى مؤكدات ملموسة من المنطق والتاريخ فصلها حين قال (١) :

« وقد رأينا أن نحقق هذه المسألة فبحثنا طويلا عن التاريخ الذي وضعت فيه رسالة التوابع والزوابع فلم نهتد ، ولكننا رأينا في الرسالة نفسها ما يدل على أنه وضعها وهو كهل فقد جاء على لسانه ما يُشير إلى أن من إخوانه من بلغ الإمارة وانتهى إلى الوزارة ولكن لا ينبغي أن نخدعنا هذه التعابير ، فهناك نصّ يدل على أنه وضعها وهو شاب ، فقد حدثنا في التوابع والزوابع أن الجن قالوا له : بلغنا أنك لا تجاري في أبناء جنسك ولا يمل من الطعن عليك والاعتراض لك فمن أشدهم عليك . . وقد أجاب : جاران دارهما صقب ، وثالث نابته نوب فامتطى ظهر النوى وانتضى على لسانه عند المستعين . وهذا يشعر بأنه كتب هذه الرسالة في عهد المستعين وقد بويع بقرطبة سنة ٤٠٠ ثم جددت بيعته سنة ٤٠٣ ومات مقتولا سنة ٤٠٧ ، ومن هنا نرجح أن رسالة التوابع والزوابع كتبت بين سنة ٤٠٣ ، وسنة ٤٠٧ .

هذا جانب من المسألة أما الجانب الآخر فهو التاريخ الذي وضعت فيه رسالة الغفران وإذا كانت الرسالة جواباً على رسالة ابن القارح فقد عدنا إلى رسالة ابن القارح فانتبهنا إلى قوله : « وكيف أشكو من قاتني وعالي سبعين سنة » ، فعرفنا أنه وضعها بعد أن جاوز السبعين ثم نظرنا فوجدناه ولد سنة ٣٥١ فإذا أضفنا إلى هذا الرقم ٧٠ وجدناه كتب رسالته حوالي سنة ٤٢١ وتكون النتيجة أن رسالة الغفران كتبت حوالي ٤٢٢ ، وإذا قدرنا أن ابن القارح قال نيفاً وسبعين ولليّف دلالاته وقدرنا أن أبا العلاء

(١) النثر الفني ج ١ ص ٢٥٩ للدكتور زكي مبارك .

اعتذر عن تأخير الرسالة بأنه يستطيع بغيره كان من الممكن أن تكون رسالة الغفران كتبت بين سنة ٤٢٢ ، سنة ٤٢٤ . » .

ثم قال الدكتور مبارك : « ونتيجة هذا التحقيق أن رسالة الغفران كتبت بعد رسالة التوابع والزوابع بنحو عشرين سنة وصار من المرجح أن يكون أبو العلاء هو الذي قلد ابن شهيد ، وكما كان الأندلسيون يقلدون أهل المشرق في كل شيء كان أهل المشرق يحرصون أشد الحرص على متابعة الحركة الأدبية في الأندلس بدليل أن رسائل ابن شهيد ذاعت في الشرق ودونها المؤلفون الشرقيون قبل أن يموت وقبل أن توضع رسالة الغفران... »

نتيجة جديدة مضادة قد انتهى إليها الدكتور مبارك وهي ذات دليلين دليل قطعي ودليل راجح فالدليل القطعي أن ابن شهيد لم يقلد أبا العلاء بالمرّة لأن رسالة الغفران قد كتبت سنة ٤٢٤ وابن شهيد مات سنة ٤٢٦ بعد مرض أقعده مدة طويلة ، وقد كتبت رسالته قبل ذلك بأعوام كثيرة قدرها الدكتور مبارك بنحو عشرين . . والمؤكد أنها أقل من ذلك كما قرر الدكتور أحمد هيكل وسيأتي توضيح رأيه عن قريب . . هذا هو الدليل القطعي ، أما الدليل الراجح فهو أن أبا العلاء تأثر بابن شهيد لأن رسائل ابن شهيد ذاعت في المشرق ودونها المؤلفون الشرقيون قبل أن يموت ابن شهيد وقبل أن توضع رسالة الغفران . . فلا بد أن تكون قد انتهت إلى أبي العلاء وقد بحثت في كتب المشرق التي عناها الدكتور مبارك فرأيت أن يتيمة الدهر للثعالبي هي التي تحدثت عن ابن شهيد في حياة أبي العلاء فذكرت بعض شعره وبعض نثره . دون أن تشير إلى رسالة التوابع ، وكان عليّ بعد ذلك أن أثبت شيئين هامين في هذا الصدد الشيء الأول أن الثعالبي كان يعرف رسالة التوابع والشيء الثاني أن أبا العلاء قد قرأ اليتيمة .

أما أن الثعالبي كان يعرف رسالة التوابع ، فواضح من مختاراته الشعرية والنثرية لابن شهيد ، إذ أن من يقرأ الجزء الثاني من يتيمة الدهر مطبوعة حجازي يجد المختارات قد جاءت ابتداءً من ص ٣٥ كما يلي :

- المقطوعة الأولى مختارات من قصيدة
ص ٣٥ ج ٢ شجته طول من سليمي وأدور
- المقطوعة الثانية مختارات من قصيدة
ص ٣٦ ج ٢ أمن رسم دار بالعقيق محيل
- المقطوعة الثالثة مختارات من قصيدة
ص ٣٧ ج ٢ منازلهم تبكي إليك عفاءها
- المقطوعة الرابعة مختارات من قصيدة
ص ٣٧ ج ٢ أبكيت إذ ظعن الفريق فراقها
- المقطوعة الخامسة مختارات من قصيدة
ص ٣٩ ج ٢ أفي كل عام مصرع لعظيم ؟
- المقطوعة السادسة مختارات من قصيدة
ص ٣٩ ج ٢ هذه دار زينب والرباب
- المقطوعة السابعة مختارات من قصيدة
ص ٤٠ ج ٢ أصفيح شسيم أم برق بدا
- المقطوعة الثامنة مختارات من قصيدة
ص ٤١ أبرق بدا أم لمع أبيض فاصل
- المقطوعة التاسعة مختارات من قصيدة
ص ٤٢ هاتيك دارهم فقف بمغانها
- المقطوعة العاشرة مختارات من قصيدة
ص ٤٣ ومر تجز ألقى بدى الاثل كلكلا
- المقطوعة الحادية عشرة مختارات من قصيدة
ص ٤٣

هذه القصائد نقلت هكذا وفق ترتيبها في رسالة التوابع والزوابع كما ذكرها ابن بسام بالدخيرة ١-١ ابتداء من ص ٢١٣ حيث المقطوعة الأولى

و ص ٢١٤ حيث المقطوعة الثانية و ص ٢١٦ حيث المقطوعة الثالثة و ص ٢١٧ حيث المقطوعة الرابعة و ص ٢١٨ حيث المقطوعة الخامسة و ص ٢٢٠ حيث المقطوعة السادسة و ص ٢٢٣ حيث المقطوعة السابعة و ص ٢٢٦ حيث المقطوعة الثامنة و ص ٢٢٨ حيث المقطوعة التاسعة ولم يذكرها ابن بسام بطولها كما جاءت في أصل الرسالة لأنه سبق أن ذكرها ص ١٧٣ فلم يشأ التكرار ، و ص ٢٣٦ حيث المقطوعة العاشرة ، و ص ٢٣٧ المقطوعة الحادية عشرة .

فتوالي المختارات وفق ترتيب رسالة التوابع والزوابع ، ينطق بأن الثعالبي قد نقل عنها وأنها كانت تحت يديه حين حدثه أبو سعيد بن دوست (ص ٢٥ ج ٢) عن ابن شهيد ولئن جاءت المختارات ناقصة الأبيات عن قصائد الرسالة فإن الثعالبي قد اختار منها ما راقه وليس له أن يتقيد بجميع ما قال ابن شهيد ، شأنه في ذلك شأن غيره من الشعراء ، أما مختارات الثعالبي الثرية فهي أيضاً من الرسالة مثل وصف البرغوث والبرد والبعوض والنساء والنار ، وإذا كانت بعض هذه الأوصاف لا توجد الآن فيما رواه ابن بسام ، فالسبب واضح هو أن ابن بسام يعترف أنه لم يرو جميع الرسالة ، وإنما ينقل بعض المختارات فما جاء به الثعالبي مما ليس في الرسالة على ندرته — قد أغفله ابن بسام مع ذبوعه لدى غيره . ولو ذكرت رسالة التوابع بنصها في الذخيرة لرأينا كل ما جاء .

أما أن أبا العلاء قد قرأ اليتيمة فذلك ما توحى به البدائة لأن كتاب الثعالبي قد صدر في حياة أبي العلاء وكان له ضجيج ورنة . إذ شرقت اليتيمة وغربت ، وتحدثت عن شعراء يعاصرون شاعر المعرة ومن الطبيعي أن يُسأل عنهم في مجالسه من تلاميذه وأن يصدر فيهم رأيه بل إن الثعالبي تعرض لأبي العلاء إذ نقل أحاديث الأدباء عنه وروى بعض أخباره وأشعاره وليس من المعقول أن يخفى ذلك عن طلعة بصير كأبي العلاء . قال ياقوت الحموي في الجزء الثالث من معجم الأدباء ص ١٢٨ دار المأمون :

وقال أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر « وكان حدثي أبو الحسن الدلفي المصيبي الشاعر وهو من لقيته قديماً وحديثاً في مدة ثلاثين سنة قال : لقيت بمعة النعمان عجباً من العجب رأيت شاعراً ظريفاً يلعب الشطرنج والنرد ، ويدخل في كل فن من الجد والهزل يكنى أبو العلاء وسمعته يقول أن أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر قال : وحضرته يوماً وهو يملي جواب كتاب ورد عليه من بعض الرؤساء (و ذكر الأبيات ثم قال) وأنشدني لنفسه :

لست أدري ولا المنجم يدري ما يريد القضاء بالإنسان
غير أنني أقول قول محقق قد يرى الغيب فيه مثل العيان
إن من كان محسناً فأبكنيه لحميـــــــــــــــــل عواقب الإحسان !

فرسالة التوابع ذاعت في المشرق ، وصاحبها مشهور تحدثت عنه يتيمة الدهر وهي بعد أوسع ذخائر الأدب اشتهاراً ، وقرأها أبو العلاء فعرف ابن شهيد دون جدال . . .

لقد بان إذن بعض الحق في رأي الدكتور مبارك ، ولكن الدكتور أحمد أمين في الجزء الثالث من ظهر الإسلام ص ٢١٠ ينسب هذا الرأي لبعض المستشرقين دون أن يسميه فيقول ما نصه ص ٢١٠ ج ٣ الظهر :

« وقد ظن قوم أن التوابع والزوابع وضعت تقليداً لرسالة الغفران ، ورأى بعض المستشرقين أن العكس هو الصحيح وأن أبا العلاء هو الذي قلده ابن شهيد ورجح أن التوابع والزوابع ألفت قبل رسالة الغفران بنحو عشرين سنة ، وذلك لأن ابن شهيد ذكر في رسالته ما يدل على أنه ألفها في عهد المستعين وهو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الناصر وكانت مدة حكم المستعين هذا من سنة ٤٠٠ إلى سنة ٤٠٧ (الصحيح أنه خلع من ٤٠٠ - ٤٠٣ وولى بعد ذلك) كما نعلم أن أبا العلاء ألف رسالة الغفران رداً على ابن القارح ، وكان أبو العلاء قد بلغ نحو السبعين كما تدل عليه فقرة

في الرسالة نفسها ، فيكون قد كتب رسالته حوالي سنة ٤٢٢ وعلى هذا تكون رسالة التوابع والزوابع كُتبت قبلها بنحو ٢٠ سنة وقد أخذ أبو العلاء الفكرة وطبقها تطبيقاً لطيفاً ، ونحا بها نحو يخالف بعض الشيء رسالة ابن شهيد وإن كان أساس الفكرة عند ابن شهيد ودانتي وأبي العلاء واحداً .

وأرجح أن صاحب هذا البحث هو الدكتور زكي مبارك إذ لو سبق به بعض المستشرقين لذاع واشتهر ، وأظن أن الدكتور أحمد أمين قد سها حين عزاه إلى غيره لأنه قرأ النثر الفني وعده بين مراجعه آخر الكتاب . ولو تأكد من سبق غيره في ذلك لذكر اسمه على الأقل .

ثم جاءت السيدة الدكتورة بنت الشاطيء تعلن رأيها في هذه المسألة ببحثها القيم عن (الغفران) وقد نالت به درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز سنة ١٩٥٠ فذكرت رأيي الدكتورين أحمد ضيف وزكي مبارك مؤكدة أن دعوى التشابه والتقليد بين الرسالتين قولة جديدة في عصرنا لم يقل بها سوى قلة لم تتخصص في هذا الموضوع ولا هي تفرغت لتحقيقه ، وإنما تناولته جملة فيما تناولت من مواضيع عامة في النثر العربي أما الأقدمون فلم يذكروا من ذلك شيئاً على كثرة ما ذكروا من تأثر الأدب المغربي بأدب المشرق ، وعلى ما أحصوه من معارضات كتابهم وشعرائهم لأبي العلاء » ص ٢٠٩ من كتاب الغفران .

وأنا لا أدري كيف تجزم الدكتورة الفاضلة أن أمثال أحمد ضيف وزكي مبارك وأحمد أمين - فهو بين ذوي الرأي في المشكلة وإن لم تنص عليه - قلة لم تتخصص في الموضوع . وما معنى التخصص لديها ؟ أيكون مفهومه أن يصدر الكاتب مؤلفاً خاصاً في هذه الناحية دون أن يتعرض له في مؤلف عام . وإلا كان غير متخصص . . وإذا كان ذلك هو ما تعنيه أفيجوز لنا أن نقول إنها إن تكلمت عن المتنبي أو شوقي أو أبي نواس أو أي أديب عربي لم تكتب عنه مؤلفاً خاصاً تعد غير متخصصة فلا يجوز لها أن تصدر الرأي الأدبي إلا في كتاب كبير خاص ذي صفحات ؟ لاشك أننا

نظلم الدكتورة الباحثة لو قلنا لها ذلك . كما ظلمت زكي مبارك وأحمد ضيف حين سلبت عنهما الاختصاص دون مبرر معقول . ثم إني لم أر من الباحثين الأقدمين من عني بإحصاء معارضات كتاب الأندلس لأبي العلاء ؟ من هؤلاء ؟ وفي أي الكتب ؟ حتى تقول الدكتورة ، وعلى ما أحصوا من معارضات كتابهم وشعراهم بالأندلس لأبي العلاء .

ثم تقول الدكتورة الفاضلة ص ٣٠٩ : « وكان على القائلين بمحاكاة إحدى الرسالتين للأخرى أن يقفوا عند هذا الصمت من الأقدمين ، وأن يفسروا لنا كيف غاب هذا عن مثل مروان بن حيان المؤرخ الأندلسي المعروف بالصدق والدقة وقد كان قريباً من عصر ابن شهيد وعن مثل أبي النصر الفتح بن خاقان وعن مثل أبي الحسن علي ابن بسام وهو حجة ثقة ... إنهم إذ يتحدثون عن التوابع والزوابع يصفونها بما يصفون . أثراً مبتدعاً لا رسالة مقلدة ... » (١) .

أما الصمت الذي سألت عنه السيدة الفاضلة فله ما يبرره دون نزاع ، لأن الدكتورة نفسها تعلم أن الرسالة لم تكن مشهورة بين آثار أبي العلاء قبل القرن الثالث عشر ، وقد قالت الدكتورة بنت الشاطيء بالذات في مقالتها عن رسالة الغفران بالعدد السادس من المجلد الثاني من سلسلة تراث الإنسانية ٥ يونية سنة ١٩٦٤ ص ٤٢٢ ما نصه :

« وحتى القرن الثالث عشر الهجري لم يكن المعروف عنها يتجاوز كلمات قصارا ذكرها مؤرخوه في ترجمته وقد اكتفى القفطي في (إنباه الرواة) بإثباتها في فهرس مصنفاته بين رسائله الطوال التي تجري مجرى الكتب المصنفة ، وكذلك فعل سبط بن الجوزي في مرآة الزمان فذكرها بين المصنفات الحسان لأبي العلاء ، وأبو القاسم الكلاعي المغربي الذي أشار إليها في أحكام صنعة الكلام بين رسائله التي لها بال ، وآخرون تحدثوا عنها في بضع جمل مثل ياقوت الحموي والذهبي والصفدي وابن العديم ثم قالت

(١) الغفران ص ٣٠٩ للدكتورة بنت الشاطيء ط دار المعارف .

الدكتورة ومن مجموع هذا نخرج بأن المعروف عنها إلى القرن الثالث عشر هو أنها من رسائل أبي العلاء الحسان الطوال التي تجري مجرى الكتب المصنفة في مجلد واحد وقد احتوت على مزدكة واستخفاف ، وفيها ما هو من أمارات سوء عقيدته وقبح مذهبه ما يدل على تمكنه من الأدب واطلاعه على اللغة » . ص ٤٢٣ .

فإذا كان هذا هو المعروف عنها في الشرق باعتراف الباحثة الجليلة فكيف تريد أن يعرف عنها ابن حيان والفتح وابن بسام أكثر مما يعرف المشرقيون ؟ أعرفت إذن سر الصمت من هؤلاء ؟ . . . إنه واضح صريح فالرسالة لم تشتهر بالأندلس شهرة غيرها من آثار أبي العلاء .

على ان الباحث المتأمل يقرأ قول الدكتورة عن ابن حيان والفتح وابن بسام : « إنهم إذ يتحدثون عن التوابع والزوابع يصفونها بما يصفون به أثراً مبتدعاً لا رسالة مقلدة » فيرى أن هذا القول يخدم الحق من طرف واحد فقط لأنه يثبت الابتكار لابن شهيد . وهو ما نذهب إليه ولكنه لا يفيد من ينكرون تأثير الغفران بالتوابع إطلاقاً ، ومن بينهم الدكتورة الفاضلة . فالتوابع مبتدعة مبتكرة وهذا حق . ولكن أين مثل هذا القول من هؤلاء عن رسالة الغفران .

وتمضي الدكتورة الباحثة في الاستدلال فتقول ببعض التصرف ٣١٢ - ٣١٤ : « لقد كان هذا يغنيننا عن الرد على دعوى التشابه لكننا مع ذلك نمضي في النظر في الرسالتين فرى ما بينهما بعيداً . من المسلم به أن بينهما أوجه تشابه . لكنها ليست خاصة بهما وإنما هي من الظواهر الأدبية التي يمكن أن تلمس عند غيرهما من أدباء العصر أو في الآداب على وجه العموم صاغ كلاهما أحكامه الأدبية في أسلوب شائق على طريقة الحوار ، ولكن ليس هذا مما اختص به أحدهما حتى يؤثر بادعاء سبق إليه ، وقام كلاهما برحلة في عالم الخيال أنطق فيها الجن والحيوان لكننا نلقي مثل هذا في القصص والأساطير وأخيلة الشعراء ، وأراد كلاهما عرض براعته في الصنعة وتفوقه في الحفظ والإنشاء ، ولكن ذلك مما يمكن أن يقال في كل ما كتب

الرجلان وغيرهما من صنّاع الكلام ، وأحب كلاهما أن يبهر صاحبه (الذي بعث برسالته إليه) ولكن أي أديب لا يتجه إلى مثل ذلك .

وهب شيئاً من هذا التشابه في الأسلوب والهدف قد كان فكيف يقوم وحده دليلاً على التشابه إذا اختلف جوهر الموضوع وتباينت روح الكاتب ، وتغيرت شخصية البطل . رسالة الغفران بطلها ابن القارح أما أبو العلاء فيتوارى كما يتوارى الملقن وراء الستار لا يظهر على المسرح ولا يذكر اسمه على لسان . والتوابع بطلها ابن شهيد نفسه كاتب الرسالة ومؤلف الرحلة لا يتوارى في مشهد من مشاهدها ولا يقوم ثم حوار أو عرض أدبي إلا كان هو الشخصية الأولى .

الغفران تصور أشواق أبي العلاء وترسم أحلامه وتسجل رؤاه وتعرض آراءه ومذهبه في النقد ، والتوابع والزوابع ديوان من شعر ابن شهيد ومجال لإنشاء قصائده . أبو العلاء متفنن حافظ راوية وأبد شهيد شاعر فخور (١) .

هذه هي حيثيات الدكتورة بنت الشاطيء ومن يعيد النظر فيها يرى أنها كانت تحم أن يكون النصان متقاربين تمام التقارب حتى نقول بالمحاكاة وهذا بعيد ، لأننا في قضية الموازنة بين النصوص الأدبية نفرق بين التأثر والاحتذاء فالتأثر أن يستلهم اللاحق سابقاً فيلهمه مهما ابتعد عن جوه ونأى عن مسرحه ، فحسبه أن وجه عينه إلى أفق جديد لم يكن يخطر على باله من قبل . فلو سار في طريق غير طريق صاحبه ما قدم ذلك شيئاً ولا أحر في جوهر القضية ، وحسبه أن أراه السبيل ، فابن شهيد قد ابتكر الكتابة عن بعض عوالم الغيب فتأثر به أبو العلاء وأحب أن يكتب عن بعض هذه العوالم أيضاً وإن سار الأول في طريق الجن والثاني في طريق الجنة والنار . هنا نحكم للسابق بالتأثير واللاحق بالتأثر . . ولن نتطلب منه أن يحذو حذو سابقة وإلا فقد شخصيته الأدبية وأصبح تابعاً هزيباً لا يضيف إلى الأدب شيئاً

(١) الغفران للدكتورة بنت الشاطيء ص ٣١٤ .

ذا بال، ومعاذ أبي العلاء أن يكون كذلك . نعم إن كليهما صاغ أحكامه في أسلوب شائق على طريقة الحوار كما تقول الباحثة وكليهما عرض صناعته وفنه وأحب أن يبهر قارئه، وأن البطل عند أبي العلاء هو ابن القارح وهو ابن شهيد نفسه في رسالة التوابع ، والغفران تصور أشواق أبي العلاء والتوابع ديوان بن شهيد . هذا كله صحيح ولكنه لا يغير من جوهر القضية شروى نقيير . فالرحلة الخيالية هي سر الإبداع ، ولو كانت المسألة مسألة حوار لقرنت بالمقامات أو حديثاً عن النفس لقرنت بقصائد الفخر، وسيان أن تكلم أبو العلاء عن غيره أو نطق ابن شهيد عن نفسه فتلك جزئيات تتداخل في إطار عام هو الرحلة المبتكرة التي اخترعها ابن شهيد . ولا أدري لماذا لا يكون ابن شهيد قد تحدث عن أشواقه وأحلامه كما تحدث أبو العلاء ، ألا تصور التوابع والزوابع أحلامه في الأدب والشعر ورغبته في التفوق والإعجاز ؟ ولنت شعري أيّ الأدبيين أقرب إلى الحديث عن نفسه ، أديب يتحدث على لسانه هو أم أديب يتحدث على لسان ابن القارح حتى نجعل الثاني يصور هواتف نفسه – ولا معارضة في ذلك – ونصر على أن يكون الأول بعيداً عن أشواقه مع أنه بإقرار الدكتورة بطل الميدان . وإذا كانت التوابع ديوان شعر ابن شهيد . أو ليس الديوان في مجموعه خلجات نفس وهمسات وجدان . إن علماء الأدب المقارن يجعلون من اختصاصه أن يدرس مواطن التلاقي في الآثار الأدبية ، ومظاهر التأثير والتأثر سواء تعلقت بالأصول الفنية للمذاهب الأدبية أو اتصلت بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التي تعالج أو تحاكي في الأدب . وكانت خاصة بصور البلاء المختلفة كما تنعكس في الآثار الأدبية (١) . . فكل موطن للقاء بين الآثار الفنية مجال للدراسة والتحليل فالحكم بالتأثر والتأثير . ولن نجد موطناً أفسح ولا أوسع من رحلتين خياليتين قامت أولاهما في الأرض السابعة وارتفعت أخراهما إلى السماء العالية . ثم ألا يكون هذا التناقض المعارض دليل التأثير الواضح حين يذكر الشيء بنقيضه كما يذكر بمثيله على السواء . إذا كانت الدكتورة

(١) الأدب المقارن ص ٩ ط الثالثة .

الفاضلة في شك من ذلك فلتسأل نفسها ألا يذكرها هدوء الليل بضجيج النهار . تلك المسألة واضحة . ولعل أبا العلاء لو سئل عنها ما رأى أي حرجاً في الاعتراف . وإذا كان قد أغفل الحديث عن ابن شهيد حتى يحسم الخلاف فعذره أنه لم يتحدث في رسالة الغفران عن أندلسي قط . وقل حديثه في غيرها عن هؤلاء .

وقد أتى الأستاذ الدكتور أحمد هيكل ببعض الجديد فيما كتبه عن ترجيح صلة الغفران بالتوابع . هذا الجديد يتعلق بتحديد الزمن الذي كتبت فيه رسالة التوابع كما يتعلق بمن كتبت له الرسالة . أما الزمن فقد جعله الدكتور زكي مبارك في حكم سليمان المستعين ، وقد ولى ما بين سنة ٤٠٣ إلى سنة ٤٠٧ فتكون التوابع قد سبقت الغفران بعشرين عاماً ، أما الدكتور هيكل فيرى أن التوابع قد سبقت الغفران بما لا يقل عن تسع سنوات فقط ، ودليله واضح شرحه حين قال (١) رداً على زكي مبارك :

« على أن ذلك الرأي ليس دقيقاً فقد اشتملت التوابع والزوابع على نصوص أخرى يرجع تاريخها إلى ما بعد هذا التاريخ . ومن ذلك قصيدة ابن شهيد التي قالها وهو في سجن الحموديين ، فالمرجح أن يكون قد قال هذه القصيدة أيام القاسم بن حمود الذي نُغلب أن يكون قد سجن ابن شهيد لصلته بمنافسه الثائر عليه وهو يحيى بن حمود وقد كانت خلافة القاسم سنة ٤١٣ ، وفي الرسالة كذلك ما يؤخر زمن تأليفها عن هذا التاريخ فقد اشتملت على بعض رثاء ابن شهيد لأبي عبيدة حسان بن مالك وكان هذا المرثي ضمن وزراء المستظهر سنة ٤١٤ وفي الرسالة أبيات تشير إلى شافعية ابن حزم وقد كان شافعيّاً في هذه الفترة ثم تحول إلى المذهب الظاهري بعد ذلك وعلى هذا يمكن أن نقول إن ابن شهيد قد أتم رسالته سنة ٤١٥ هـ . »

هذا هو الجديد الأول ، أما الجديد الثاني في كلام الدكتور هيكل ، فهو تقريره أن الرسالة لم توجه إلى أبي بكر بن حزم كما ذكر ابن بسام وإنما وجهت

(١) الأدب الأندلسي للدكتور هيكل ص ٤٢٢ .

لشخص آخر يدعى أبا بكر ، فظنه صاحب الذخيرة أبا بكر بن حزم ،
ودليل الدكتور أن أبا حزم مات في طاعون قرطبة سنة ٤٠١ كما ذكر أخوه
في طوق الحمامة ، وإلى هذه السنة لم يكن ابن شهيد قد كتب الرسالة ثم
يرجح الدكتور هيكل أنها موجهة لأبي بكر الكاتب المعروف بأشكمياط
لأنه كان ينتقد ابن شهيد ويعيبه بأخذ كلام غيره وقد رد عليه ابن شهيد
معاتباً لائماً وهدده وتوعده في فصل ذكره ابن بسام ص ١٩٦ ج ١-١ وأنا
أوافق الدكتور على استنتاجه أنها ليست لأبي بكر بن حزم ولا أوافقه على
استنتاجه أنها لأبي بكر أشكمياط لأن ابن شهيد يقول في مطلعها عن رأي
صاحبه فيه : « حين لمحت صاحبك الذي تكسبته ورأيت قد أخذ بأطراف
السماء فألف بين قمرها ، ونظّم فرقديها ، فكلمارأى ثغرة سدها بسهاها
إلى غير ذلك فقلت كيف أوتي الحكم صبياً ، وهز بجذع نخلة الكلام
فأساقط عليه رطباً جنياً ، أما إن به شيطاناً يأتيه وليس هذا في قدرة الإنس » .
وأبو بكر المعروف بأشكمياط يرى ابن شهيد لصاً سارقاً ولم يره قد أوتي
الحكم صبياً وأخذ بأطراف السماء فألف بين قمرها ونظم فرقديها ، فليبحث
لنا الدكتور إذن عن أبي بكر سواه .

هذا بعض ما قاله المعاصرون ممن عثرنا على أقوالهم في صلة الغفران
بالتوابع وهي صلة تقوم الدلائل على وجودها ، وتعود البراهين القاطعة على
نفيها ، ونحن مع هؤلاء المثبتين نعرف بتأثير ابن شهيد في أبي العلاء حتى
يقدم إلينا من الأدلة الثابتة ما يقع موقع اليقين .

* * * * *

أثر الأندلس في الحركة العلمية بمصر

حفظت مصر الثقافة العربية بعد سقوط بغداد إذ كان النصر السياسي الذي اكتسبه المماليك بعد موقعة عين جالوت مدعاة إلى هجرة كثير من العلماء من شتى الأماكن شرقية وغربية إلى القاهرة ، لأن قيام الخلافة العباسية بها - ولو على وجه صوري - قد جعلها تأخذ مكان عاصمة الرشيد ، فيهرع إليها الناس من كل حدب ، وقد وجد العلماء من رعاية السلاطين ما بعث فيهم الرضا والحمد ، ففي كل مسجد ، ولكل مسجد أوقاف وأحباس ، وله مدرسون وطلاب وكتب وأوراق ، وكتب التاريخ تحصي هذه المساجد ذات الصبغة العلمية والدينية معاً ، وتفيض في ذكر من يدرسون العلم بها على اختلاف فروعه من فقه وتفسير وحديث ونحوه و صرف وبلاغة وأصول وقراءات ومنطق ، كما تتحدث عن مشاهير العلماء من أئمة القول في الدين واللغة ، ومنهم الغزنوي والصقلي والمصري والمدني والعراقي والآمدي والأربلي والمقدسي والشامي والحراساني والمغربي والطوسي والنابلسي تعرفهم بأسمائهم كما تعرفهم بلهجاتهم وطبائعهم إلا إنهم في نظر الحكومة المصرية إذ ذاك علماء مسلمون يؤدون أشرف واجب في أظهر مكان ، لهم واجب الرعاية والإجلال وبهم تزدهر المعرفة ويستنير الطلاب .

وقد كانت الأندلس أحد هذه الجداول التي تصب في محيط القاهرة ، إذ كانت الرحلة من المغرب إلى المشرق لا تكاد تنقطع ، وفي الراحلين من يرتشف ويرجع ومنهم من يؤثر البقاء حيث يستريح ، وقاريء نفع الطيب يقف على كثير من تراجم هؤلاء النازحين ، وهم من الكثرة بحيث يسجلون اعترافاً صارخاً بعلم المشرق وأستاذيته ، ويطول بنا القول لو عرضنا لأشهر مشاهيرهم فضلاً عن عامتهم . ولم تكن الرحلة إلى مصر والإقامة قد بها مقصورة على عهد السلاطين من المماليك بل كانت من يوم أن فتحت

الأندلس كما فصلت ذلك في موضوع « سحر المشرق » . ولكن العصر المملوكي قد كتب له أن يشهد مغرب الأندلس وما سبقه من إرهابات منذرة توحى بالكارثة المتوقعة ، فدعا ذلك إلى ضرورة الرحلة وجذب علماء الأندلس إلى مصر ، فلاقوا رحباً فسيحاً وسهلاً مريحاً ، ووجدوا أهلاً بأهل وإخواناً بإخوان . . . ولئن اكتفى بعض هؤلاء بالإقامة في دمشق دون مصر فقد كانت مؤلفاتهم تطير إلى القاهرة سريعاً لتلقى نصيبها من الرواج فهم عنها غير بعيد كابن مالك ومحي الدين ، وإذا كانت الثقافة الإسلامية متقاربة متشابهة تأخذ منحى واحداً في التأليف والصياغة وبخاصة في عصور التقليد والمحاكاة ، إلا ما ندر من أفاذ أمثال يعدون عدداً - فقد يصعب علينا أن نبرز تأثير الأندلسيين في الثقافة المصرية إذ أن مؤلفاتهم في الأعم الأغلب نسخ متشابهة من مؤلفات إخوانهم سواء من رحلوا إلى مصر من المشرق أو من رحلوا إليها من المغرب ، ولكننا على الرغم من ذلك كله نلمس تأثير الأندلسيين بارزاً في فروع خاصة من فروع الثقافة العربية إذ ذاك لأن جهدهم كان من الذبوع والاشتهار بحيث يدل على نفسه ، وقد رزق من الحظوة والإقبال ما جعله بارزاً جهيراً يشير بتأثيره ، وإذا كان هؤلاء الراحلون الفضلاء قد كتبوا في كل علم تقريباً ، فإن من هذه العلوم ما تأثر بتأليفهم تأثراً واضحاً بل منها ما كاد أن يصبح وقفاً على دراساتهم ، هم أهله وأصحابه ولا يستغرب القاريء ذلك ، فعلم القراءات مثلاً يكاد يكون أندلسياً ، إذا نظرنا إلى الكتب التي سبقت إلى تسجيله ، ثم أفاضت في شرحه ، وسنبداً بإيضاح ذلك فنقول . . .

لئن كانت القراءات سبعة أو عشرة مشرقية ، فإن التأليف فيها لم يأخذ سبيلاً علمياً ممتداً على نهج شارح إلا عند الأندلسيين ، وسبب ذلك أن بعض جنود المنصور بن أبي عامر كان مثقفاً عالماً بالقراءات ثم ولي إمارة دانية والجزائر الشرقية فبذل جهده في نشر هذا العلم تقرباً إلى الله وإشباعاً لرغبته العلمية فنفتت لديه سوق القراءة - كما يقول ابن خلدون ص ٤٣٧ من المقدمة - وظهر لعهد أفذاذ دونوا العلم على نطاق شامل ، بحيث تضاعف

جواره ما سبق أن كتب عنه شرقاً وغرباً ، وأبرز هؤلاء الأفاضل وهو الإمام أبو عمر وعثمان بن سعيد الداني صاحب كتاب «التيسير» وقد كان شيخ مشايخ المقرئين بالأندلس رحل إلى المشرق وتخصص في العلوم الدينية إذ ألف في الحديث والفقه والتفسير والقراءات تاركاً مائة وعشرين مصنفاً كما يقول مؤرخوه، وأحدها كتاب التيسير في القراءات السبع وقد نشره العلامة «برتزل» أحد أعضاء لجنة النشرات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية سنة ١٩٣٤ ، وصدره بمقدمة جيدة أشار فيها إلى منزلة علم القراءات من العربية والإسلامية . وهي منزلة عالية تحتاج اليوم إلى تأكيدها إذ وقر في أذهان بعض المثقفين لدينا في هذا العصر أن هذا العلم وقف على بعض المنقطعين لتلاوة القرآن فقط ، وفيهم أميون حفظوه دون أن يفهموه . وهذا خطأ واضح ، لأن علم القراءات في العربية هو علم الإلقاء في أوربا يتحدث عن مخارج الحروف ومميزات الأصوات ووسائل النطق الصحيح ، ولو قدر له أن يأخذ دوره الطبيعي في التطور لأصبح ذا أثر هام في إعداد الخطباء والمذيعين بعد أن توضع الخصائص المميزة للترتيل والتلاوة فيما يختص بالقرآن ، فلا نشكو اليوم ممن يميلون بالحروف عن مواضعها جاهلين أو متجاهلين . بل إن الأزهر نفسه وهو وارث علم القراءات لا يضعها الموضع المناسب . إذ جعل قسم القراءات وهو ملحق بكلية الدراسات العربية لا يستمد طلابه من حملة الثانوية الأزهرية بل ممن يحفظون القرآن من العامة ، وأكثرهم لا يعرف شيئاً ما عن قواعد النحو والتصريف ، وأكبر الظن أنهم يكتبون هناك بحفظ الشاطبية مع الإشارة إلى بعض رموزها . أما الأستاذ برتزل المستشرق الألماني فيرى لعلم القراءات من الخطر ما وضحه بقوله في مقدمة الكتاب بتصريف :

« إن البحث في مخارج الحروف والاهتمام بضبطها على وجهها الصحيح لتيسر تلاوة القرآن على أفصح وجه وأبينه كان من أبلغ العوامل في عناية الأمة بدقائق اللغة العربية الفصحى وأسرارها ، وكان ثمرة هذا الاجتهاد أن القراء تشرّبوا مزايا اللغة العربية وقواعدها ، ودقائقها ، ومما يؤيد ذلك

أن الكثير من قدماء النحويين كانوا مبرزين في علم القراءة كما كان الكثيرون من أئمة القراء كأبي عمرو والكسائي بارعين في علم النحو ، فعلى كل من يتصدى للنظر في تاريخ اللغة العربية ودرس المسائل التي تناولها كتب النحويين واللغويين والمفسرين أن يتتبع علم القراءة والتجويد ، ومن شرع في درس معاني القرآن واستقصاء لطائفه واستخراج حقائقه ثم اعتمد على القراءة الوحيدة التي يجدها أمامه دون التفات إلى غيرها فقد أغفل أمراً ذا بال .

أصبحت الأندلس إذن مركزاً أساسياً لدراسة القراءات في ديار الإسلام ونشأ من أبنائها من سبقوا إلى التأليف فيها عن دراية ، وإحكام حتى نبغ القاسم بن فهيرة بن خلف الشاطبي وكان كفيفاً منذ مولده فانصرف إلى دراسة القراءات مع غيرها من علوم النحو واللغة والأدب وكان قوي الحافظة لدرجة تستغرب بحيث أصبح يصحح النسخ المكتوبة من الموطأ والبخاري ومسلم إذا تليت عليه من حفظه ، ثم يعقبها بشروح وافية واثقة ، وكان عزيز النفس بعيد الهمة عرضت عليه الخطابة بالمسجد الجامع في بلده فأنف وتابى ، لأن الحكام يلزمونه مديح الملوك والرؤساء في الخطبة الثانية وهم ظلمة لا يجوز أن يذكروا بالخير في مثل هذا الموقف الجليل ، فأظهر الرغبة في الحج ، ونزح إلى مصر ، وسمع بالإسكندرية على الحافظ السلفي ثم عين للإقراء في مدرسة القاضي الفاضل بالقاهرة ، وتصدر لدراسة القراءات والنحو واللغة فبلغ شأواً بعيداً من العظمة والمهابة حتى كان الناس يزدهمون في حلقاته ازدحاماً يصل إلى التشابك والتفاخر حرصاً على الدنو من مكانه ، وقد ترك فيما ترك منظومة الشاطبية التي يتناقلها الناس إلى الآن مكبرين مرددين وقد قال عنها ابن خلكان ، لقد أبدع فيها كل الإبداع ، وهي عمدة قراء هذا الزمان في نقلهم ولا يشتغل بالقراءات أحد حتى يحفظها . . وقد ظلت كذلك من عهد ابن خلكان إلى وقتنا ، حتى رأينا أكثر قراء الريف المصري يحفظونها ويسعون جاهدين إلى من يفك رموزها ، ويوضح مغاليقها ، ومنذ ألف الشاطبي منظومته وهي عمدة التأليف في هذا الفن وقد كتبت عليها

شروح مستفيضة على توالي العصور نذكر هنا بعضها لنشير إلى أثر هذا الأندلسي الجهير في ازدهار العلم وانتشاره ، فأول من شرحها تلميذه أبو الحسن السخاوي بشرح أسماء « فتح الوصيد في شرح القصيد » ، ثم أبو شامة المقدسي في كتابه « إبراز المعاني وبرهان الدين الجعبري في مؤلفه كثر المعاني وشروح أخرى لشهاب الدين بن عبد الدائم الحلبي وجلال الدين السيوطي وشهاب الدين القسطلاني ونفر غيرهم لا يحصون ، أشار إلى بعضهم حاجي خليفة في كشف الظنون .

كما قام باختصارها ابن مالك النحوي في قصيدته حوز المعاني في اختصار حرز الأمانى وقام بإكمالها أحمد بن علي المحلي شيخ القراء بالقاهرة وغيره من المشاهير فإذا قلنا أن علم القراءات كاد أن يكون أندلسياً وأن أثر الشاطبي بمصر في هذا الفن كان من الخلود والذبوع بالمحل الأول لم نكن مبعدين .

وتذكرنا منظومة الشاطبي بأخت لها في النحو والصرف نالت شهرتها الذائعة في بابها وهي ألفية ابن مالك الأندلسي المسماة بالخلاصة . فقد كان لها من التأثير العلمي منذ العصر المملوكي إلى هذا الوقت ما لم يتح لمؤلف نحوي آخر ، ولم يكن ابن مالك مجدداً في علمه ، ولكنه ضابط ومقيد وشارح ، لأن كتاب سيبويه في النحو لم يجد من أئمة النحاة بعده من يشغل باله بمعارضته ، بل أصبح إماماً يرجع إليه ، وهادياً يستنار به ، وقصارى المؤلفين من لدنه أن يلموا بموضوعه أو يشرحوا غوامضه ويفصلوا مجمله .

وقد عرف باسم (الكتاب) لجلاله . وكان يقال لمن درسه لقد ركبت البحر استعظماً وإجلالاً ، وقد رحل ابن مالك من الأندلس إلى دمشق وهي يومئذ تحت سلطنة المماليك فسمع الحديث بها وأخذ العربية عن غير واحد واعتمد في قراءة كتب الأقدمين على نفسه ، وهذا مما عيره به منافسه أبو حيان الأندلسي نزيل مصر أيضاً وصاحب التأليف الذائعة الجهيرة في النحو والتفسير واللغة والقراءات . وقد ألف ابن مالك كثيراً ، وعارض الشاطبي بمنظومة في القراءات قال فيها :

ولا بد من نظمي قوافي تحتوي لما قد حوى حرز الأمانى وأزيديا

فمن بين مؤلفاته « الفوائد » و « التسهيل » وسبك المنظوم » وشرح مقدمة الجزولي وشرح المفصل ، وعدة اللاحظ والتعريف وشواهد التوضيح لمفصلات الجامع الصحيح ومن بين منظوماته الكافية الشافية في ثلاثة آلاف بيت ، ونظم الفوائد ونظم لامية الأفعال والأعلام في مثلث الكلام . أما منظومته الخالدة فهي الخلاصة المعروفة بالألفية ، فقد أذاعت ذكر ابن مالك على مدى الأحقاب وخدمت بالشروح والحواشي والتقاريرات . ولذلك كان تأثيرها العلمي بارزاً يذكر الأندلس ، وقد يكون لغير ابن مالك من مؤلفي المتون النحوية نظماً ونثراً أفضل منها ، ولكن البحث هنا عن الأثر والتأثير . والثابت المشاهد أن ألفية ابن مالك تركت دويماً صاحباً في دنيا الشروح والتأليف لم يتركه متن نحوي آخر ، ومن شراحها السيوطي وابن الناظم وابن عقيل وابن هشام وابن الصائغ وأكمل الدين البابرقي ، وناظر الجيش الحلبي وعبد الرحيم الأسنوي . هذا غير الحواشي المستفيضة التي كتبت على كل شرح والتقاريرات الهامة التي ألحقت بكل حاشية . وكلها تدور حول ألفية ابن مالك وقد نظمت ألفيات أخرى لغير ابن مالك ولكن لم تحظ بمنزلتها ، وربما كان لوضوح الخلاصة وسهولة صياغتها أثر في ذلك ، ولكننا نرى منظومات ابن مالك الأخرى تشاركها هذا الوضوح ولم تحظ بمعشار ما حظيت به مما يدل على أن الاشتهار حظ مقسوم ، ولئن كان الشاطبي وابن مالك كلاهما محافظ يقلد في تأليفه ، وناقل صائغ في نظمه فإننا لا نبحث هنا عن الابتكار ، ولكن نشير إلى التأثير وقد بلغت مؤلفاتهما التقليدية في مجال التأثير والسيطرة ما لم تبلغه مؤلفات المجددين من أمثال ابن مضاء . فوجب أن نشير إلى دورهما الكبير في الثقافة العربية فلا نبخس أحداً فضله في ميزان التقدير .

ولا بد من كلمة في مجال تفسير القرآن ، عن مؤلف أندلسي هام كان فريداً في اتجاهه إذ أن التفسيرات الذائعة لعهدده وما وليه لم تكن على غرارهِ . كان هناك مجلدات تفسيريه بعضها مطبوع وأكثرها مخطوط لابن العربي والعز بن عبد السلام وابن ظفر الصقلي وسبط بن الجوزي وناصر الدين

الجزامي وتقي الدين السبكي والجلال السيوطي والزرکشي والبليقي وأبي حيان وابن قيم الجوزية ، والقفطي وابن كثير والعلمي ولكنها لا تعني غناء تفسير القرطبي ، إذ كان ذا منحى خاص . يضيف الأقوال إلى قائلها ويضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين ويفصل آيات الأحكام تفصيلاً شافياً ويوضحها بمسائل تسفر عن معناها وترشد الطالب إلى مقتضاها في أسلوب سلس لا يصدك بالاصطلاحات العلمية أو التخريجات النحوية والصرفية أو التمحلات البلاغية مما يغشى البيان القرآني بضباب يحول دون اجتلائه إشباعاً لرغبة قارئه ببحث. وهو لا ينقل نصاً ما دون مناقشة كاشفاً وجوه القول عما يجوز للمفسر أن يبديه من الرأي المؤيد بالحجة وما لا يجوز أن يتعرض له من الفروض والتأويلات القاصية ، ذاكرةً - ما دعت الحاجة - نصوصاً وافية من أحاديث الرسول وأقوال الصحابة ومشيخة التابعين وأئمة الرأي في الإسلام، وقد بدأ تفسيره بأبواب يراها ضرورية تتحدث عن فضائل القرآن وكيفية التلاوة وما يكره منها وما يحرم ، وجمع القرآن وترتيبه والقراءات السبع ومصحف عثمان . ولعل دار الكتب المصرية لمست الحاجة إليه في هذا العصر فبدأت بنشره مطبوعاً في أجزاء قدر لها أن تبلغ السادسة والعشرين ، وقارئة المعاصر لا يشعر أنه يقرأ في تفسير سابق كتب في عهد بعيد ولكنه يجد من قرب تناول وإشباع الفكرة ويسر العرض ، وسلامة الاستنتاج ووفدة النصوص والشواهد ما يجذبه إلى متابعتها . وإذا كان لكل تفسير وجهته العلمية ، فإن ميزة القرطبي الأولى هي اهتمامه بالأحكام الفقهية ، يكشف عن وجهها كما تؤخذ صريحة من كتاب الله دون التعصب لمذهب فقهي خاص . كما نقل كثيراً من آراء ابن عطية الأندلسي ، وهو مفسر خطير ضاع تفسيره الكبير ولم تبق منه إلا أجزاء مبتورة في دار الكتب المصرية وقد أثنى عليه أبو حيان وقال عنه أنه أجل من صنف في علم التفسير وأفضل من تعرض فيه للتنقيح والتحرير . فكأن القرطبي قد حفظ لنا من آثاره ما حفظ ابن بسام في الذخيرة من آراء ابن حيان المؤرخ . وتلك إحدى مزايا النقل الكثير

في عهد الوراقه والمخطوطات . وقد قدم القرطبي إلى مصر وعاش بالصعيد الأوسط في منية ابن الحبيب ، دون أن تغره أضواء العاصمة بل انقطع للعبادة والتأليف في معتزلة الهاديء . وإذا كانت الأيام قد حجت تفسيره كثيراً عن التداول فإنه الآن بعد أن طبع طبعة راقية ممتازة بدار الكتب ، قد جاء بدعاً بين قرنائه حتى ليعجب القاريء لتأليف مثله في منهجه الرائع واطراده السهل واستقصائه المظمن في عصر يعج بالاعتراضات اللفظية وتزدحم تفسيراته بالقصص الاسرائيلية . وهو عن هذه وتلك بعيد بعيد . .

هذه إشارات موجزة إلى بعض المؤلفات الرنانة ذات التأثير البعيد ، وبجوارها أخوات كثيرات لأئمة الأندلسيين الذين قطنوا المشرق في شتى فروع الثقافة الإسلامية ، ولكننا لم نشر إلى أحد منها عاملين ، حيث كانت على نفاستها مماثلة لسائر المصنفات العربية ذيوعاً وتقليداً فلا يجوز أن تدرج في موضوع يبحث عن المصنفات المؤثرة ، بطابعها المتميز أو بذيوعها المشتهر المتعالم ، وتمثل لها بمؤلفات المرسي السلمي في التفسير وأشهرها ربيّ الظمان في تفسير القرآن وهو ضخم يزيد على العشرين من الأجزاء ، ومؤلفات أبي حيان الأندلسي المتنوعة في النحو والتفسير وهي من الشهرة بحيث يستغنى عن الإشارة إليها وابن القطاع الصقلي في العروض والأدب والتاريخ وابن ظفر الصقلي في اللغة والنحو والأدب وعلم الكلام وأبي بكر الطرطوشي صاحب كتاب الفتن وسراج الملوك في السياسة والمختصر في التفسير وحامل لواء السنة في محاربة المستحدثات من البدع .

ولا نريد أن ننقل هنا من فهارس المكتبات العربية ما يشبعنا في هذا المجال بل نترك ذلك لمن يشغف باستقصاء هذه النفايس . وهي قيد المتناول .

هذا نمط يسير من القول في تأثير المقيمين بالشرق من الأندلسيين في الثقافة العربية ، أما لو أردنا الإمام بتأثير الأفاذ من غيرهم كابن حزم وأضرابه فما أظن القلم يستطيع أن يقف عند حد . وحسبنا الآن أن نذكر للأندلس إسهامها في إنعاش الحركة العلمية والأدبية على ضفاف النيل زمناً غير قصير .

تأثير ابن خلدون في أسلوبنا المعاصر

إذا قرأت كتاباً أندلسياً وجدته يتحدث عن ابن خلدون علماً من أعلام الفكر الأندلسي ، وإذا قرأت تاريخ الأدب المصري في عصر المماليك وجدت الحديث عن ابن خلدون قطباً من الأقطاب بوادي النيل ، وإذا ألممت بالحركة الفكرية في المغرب شاهدت ابن خلدون قائداً من كبار قادتها في تونس ، وذلك يؤكد منزلة هذا العملاق في الفكر العربي ، وحرص كل قطر من الأقطار على فخر انتمائه ، ونحن هنا نتابع الأستاذ أحمد أمين في عدّه أندلسياً ، لأنه كما قال في ظهر الإسلام (١) من أصل أندلسي بأشبيلية وهو وإن ولد في تونس فقد درس على علماء أندلسيين ، وأقام بالأندلس زمناً من أحفل حياته ، والأندلس به أولى وقد عاش بمصر غربياً في زيّه ولهجته وطباعه ، حتى إذا وفد مع علمائها على « تيمور لنگ » قارن بينه وبينهم في المظهر واللهجة ، ولولا مخالفته إياهم في رأي العين ما لفت نظر الطاغية التتري لأن الحديث كان جماعياً عن طريق الترجمان ، وهو مما يؤكد أن الرجل لم يتمصر فيكسبه المشرق !

على أننا نتحدث عنه الآن لنبرز أثره القوي في نهضة مصر الأدبية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ! ولك أن تعجب معي كيف عاش ابن خلدون في القاهرة ، وشرح العلم بالأزهر وتولى قضاء المالكية عدة مرات وتنقل في شتى مدنها ليرعى شئون منصبه ، ويجني حصاد أوقافه ، ثم لا يؤثر ذلك في حياته تأثيراً ذا بال حتى إذا أمضت القرون ، وأقبل عصر البعث كانت مقدمة ابن خلدون صاحبة التأثير الرنان فتضع للكتاب أسلوباً جديداً وللكتابة منهجاً واضح الأغراض . لقد مكث الأستاذ

(١) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٢٥ .

الكبير المغفور له الشيخ أحمد الإسكندري أستاذاً للأدب العربي ثلاثين عاماً بدار العلوم ، وهو في كل عام من أعوامه الثلاثين يملي على طلابه هذه الفقرات من مذكرته الشهيرة عن الأدب العباسي (١) .

« كان ابن خلدون أحد نوابغ العالم الذين عاشوا أفذاذاً في عصور مظلمة لم يعضدهم فيها مشاكل ، أو تعرف قدرهم أمتهم ، فكانت حياتهم بين الأمة التي عاشوا فيها كلها شقاء ومحنة ، فقد أداه نفوذ خاطره وصدق نظره إلى الاهتداء إلى كثير من علل الحوادث التي تنتاب الاجتماع البشري وعرف ما بينها من الارتباط والتشابه ، حتى وقرت في نفسه بصور قوانين عامة وأقيسة مطردة ، سأل بها قلمه دون أن يفطن لها أهل قرنه ، ولم ينكشف سرها ويتضح للباحثين صدق انطباقها على سنن العمران والاجتماع إلا بعد انقضاء عدة قرون .

ولم يكن الانتفاع بمقدمته وأسلوب كتابته فيها في وقت أظهر منه في العصر الحاضر فقد كان أسلوب ابن خلدون المرسل المجرد عن تكلف البديع والمحسنات اللفظية في تعبيره عن المباحث السياسية والعمرانية والاجتماعية والجغرافية والصناعية هو القدوة الحسنة للمصلحين والمجددين للنهضة الأدبية والعربية والسياسية من كتاب العربية في مصر والشام وتونس وخاصة من ألف منهم في مثل موضوعاته أو كتب في الجرائد والمجلات لقلة المطبوع من الكتب ولأنه أرحب أسلوب أدبي علمي للنقلة والمترجمين عن اللغات الأجنبية المحافظين على أصل المعنى ، فهو كالأستاذ الأكبر لكتاب الصحف والمجلات في نهضتنا الأخيرة .

هذا ما قاله أستاذنا الإسكندري ينقله عنه تلميذه الباحث المفضل الأستاذ محمود رزق سليم في المجلد السادس من موسوعته عن عصر المماليك ثم يقول تعقيماً عليه (٢) .

(١) الأدب العباسي للإسكندري ٢٣٣ .

(٢) عصر سلاطين المماليك ج ٦ ص ٢٣٥ للأستاذ محمود رزق سليم .

« ولا ريب في أن أدباء النهضة تأثروا - إلى جانب ما تأثروا به -
بآراء ابن خلدون ومنها أراؤه في نثر معاصريه فكان لذلك أثر مضاعف
جعلهم يتجهمون لأسلافهم وينظرون إليهم نظرة عابسة ، ويرمون أدبهم
بالضعف والانحطاط ويتأبون على دراسته وإذا أخذوا في دراسته أخذوا
وآراء ابن خلدون مسلطة على عقولهم فيدرسونها وبأقلامهم لوثة من هذه
الآراء وبدهي أن تأتي النتيجة وفق مقدماتها ، والأحكام رهن مقوماتها ،
وللدكتور على عبد الواحد وافي ملاحظة طريفة في هذا المجال فقد رأى أن
أخطاء ابن خلدون الأسلوبية في المقدمة قد انتقلت أيضاً إلى أقلام كتابنا
وكانها صواب لا يقبل التصحيح مما يدل على الثقة المفرطة في مقدرته والولوع
الهائم باحتدائه . والدكتور يبسط بعض هذه الأخطاء حين يقول ص ٢٤٨
من كتابه عن ابن خلدون (١) .

« ويلاحظ أن أسلوب ابن خلدون قد انتقل إلى كتابنا بجميع ما فيه
حتى بأخطائه نفسها ، فمن ذلك مثلاً التراكيب المخطئة الآتية : « لا بد
وأن » ، « لا يترك شيئاً إلا وأحصاه » ، « لم يقتصر على هذا بل وأخذ
يعمل كيت وكيت » ، وهذه الشروط تتوفر في ، « يوقفنا على كذا » ،
« وهذا الأمر وإن كان كذا إلا أنه كيت وكيت » ، وإن كاتباً يقبل منه الخطأ
ويحتدي دون مناقشة لذو سيطرة بعيدة النفوذ ! وإذا كان من المعقول أن
نجعل صوابه دليل سبقه فإن من الطريف هنا أن يكون خطؤه كذلك يتضمن
هذا الدليل » .

ولإيضاح تأثير المقدمة في النهضة الأدبية المعاصرة ، نذكر أنها طبعت
لأول مرة بمصر سنة ١٨٥٧ م . وكانت الأذهان إذ ذاك متطلعة إلى عهد
جديد تلوح تباشيره فيما أعقب احتكاك مصر بالحضارة الأوروبية في عصر
إسماعيل ، ثم جاء جال الدين الأفغاني لينشر أفكاره عن الاستقلال والحرية
والكرامة ومحاربة الاستعمار والتجبر وحكم الفرد مما يؤدي إلى فساد

(٢) ابن خلدون (سلسلة أعلام العرب) للدكتور وافي ص ٢٤٨ .

العمران كما يقول ابن خلدون . وقد وجه النائر الأفغاني تلاميذه إلى الكتابة السياسية في محاربة الاستبداد والتجبر ، والنعي على الطغاة من المحتلين وصنائعهم من الحاكمين . فاتجه الأدب العربي من ناحية المضمون وجهة جديدة بعد أن كان مقصوراً على المراسلات الإخوانية والأوصاف الإنشائية التي تقف عند الظواهر التافهة دون أن تعتمد إلى الدقة والتحليل ، وبدأ الأدب الاجتماعي المصلح والتفكير السياسي النائر يأخذ طريقه إلى الأسماع مقلداً أسلوب ابن خلدون في ترتيب المقدمات واستخلاص النتائج ورصد الظواهر وتعليلها .

وإذا كان ابن خلدون قد تحدث في مقدمته عن السياسة والملك وعاقبه الترف وأثر الظلم والاضطهاد وحكم الفرد وعمر الدولة وأسباب فناها وتدميرها ، وبغى السلطان ورياء الحاشية فإنه بذلك قد أمد تلاميذ جمال الدين بأكثر ما يبتغون ، وأضاف أفكاراً صائبة في الحرية تسيل بها الأقلام في أنهار الصحف موقظة داعية ، فوجد دعاة الثورة سبيلاً مقيداً للقول فأفرغوا حماسهم في اتجاهه ، أما من ناحية الشكل فقد انطلق أسلوب ابن خلدون مسترسلاً سمحاً دون قيد بديعي أو حلية لفظية ، فقدم بذلك النموذج المختار لما يريده جمال الدين ، ومضى تلاميذه يحاكونه عذوبة واسترسالاً ؟ فتحرروا من إرهاب السجع والازدواج وكسروا قيود الجناس والطباق ، وساعدهم على هذا النهج المتحرر ما يذكو في صدورهم من لهب الحرية والعزة ، إذ إن الحدوة الملتهبة التي أذكأها جمال الدين في نفوس تلاميذه وهم صفوة الأدباء لعده كانت أعظم من أن يخمدرارها تحت رماد التكلف اللفظي والعبث البديعي ! وما بقي لدينا من آثار جمال الدين على عجمته قريب من منهج ابن خلدون على عربيته - في السرد والاسترسال !!!

وإذا كان الأستاذ محمد عبده أنه تلاميذ الأفغاني ذكراً وأصحهم فكرة ، وأقومهم طريقة ، فستخذ من أسلوبه دليلاً على تأثير ابن خلدون في الحركة الأدبية لعده إذ نقل هنا أثرين موجزين من آثاره : أحدهما

قد خطه الإمام في مطلع شبابه قبل أن يقع على أسلوب المقدمة ، وثانيهما مما كتبه الأستاذ بعد أن نضج فكره واستوى على سوقه . ونفحت عليه المقدمة الخلدونية من سدادها الصائب ما أحكم نسجه وأوثق عراه .

كان الشيخ محمد عبده - لأول عهده بالكتابة ينشر مقالاته بجريدة الأهرام ، فيهتم بالمقدمات الطويلة ويتناول الأغراض الثانوية ، ويحرص على الصبغ البديعي لا يشذ عن طريقة معاصريه متأثر أبمشاهيرهم في التلميح والتلفيق كأن يقول في موضوع عن الكتابة والقلم سنة ١٨٧٦ : « ولما انتشر نوع الإنسان في أقطار الأرض ، وبعد ما بينهم في الطول والعرض ، مع ما بينهم من المعاملات ، ومواثيق المعاهدات ، احتاجوا إلى التخاطب في شئونهم مع تنائي أمكنتهم ، وتباعدا أوطانهم فكان لسان المرسل إذ ذاك لسان البريد ، وما يدريك هل حفظ ما يبدي المرسل وما يعيد ، وإن حفظ هل يقدر على تأدية ما يريد ، بدون أن ينقص أو يزيد ، أو يبعد القريب أو يقرب البعيد ، فكم من رسول ، أعقبه سيف مسلول ، أو عنق مغلول ، أو حرب تخمد الأنفاس ، وتعمر الأرماس ومع ذلك كان خلاف المرام ، ورمية من غير رام ، فالتجأوا إلى استعمال رقم القلم ، ووكلوا الأمر إليه فيما به تتكلم » .

فما ترى في أسلوب الشيخ غير أنه يعترك في غير ميدان فيتحدث عن فضيلة الكتابة بالقلم كأنها من الخفاء بحيث ينبه عنها في مقال سيار ، يتخذ له من الأسجاع حلي موشاة يظنها تحدث أقوى الرنين في الأسماع . وأعمق التأثير في النفوس . . لقد كان من حظ الأدب دون نزاع أن يعدل عن أسلوبه هذا عرضاً وتعبيراً إلى أسلوب إصلاحه حي - يتحدث عن ظلم الرعاة وبغي الحاكمين - قريب من نهج ابن خلدون إذ يقول في العدد الرابع عشر من مجلة العروة الوثقى التي كان يصدرها بباريس مع أستاذه جمال الدين : « إن الأمة ليس لها في شئونها حل ولا عقد ، وإنما هي خاضعة لحاكم واحد ، إرادته قانون ومشيئته نظام يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد

فتلك أمة لا تثبت على حال واحد ولا ينضبط لها سير فتعتورها السعادة والشقاء ويتداولها العلم والجهل ، ويتبادل عليها الغنى والفقر وكل ما يعرض عليها من هذه الأحوال خيرها وشرها فهو تابع لحال الحاكم ، فإن كان حاكمها أصيل الرأي عالي الهمة ، رفيع المقصد ، قويم الطبع ، ساس الأمة بسياسة العدل ورفع فيها شأن العلم ، ومهد لها طريق اليسار والثورة ، وفتح لها أبواباً للتفنن في الصنائع والحذق في جميع لوازم الحياة ، وبعث في أفرادها المحكومين روح الشرف والنخوة ، وحملهم على التحلي بالمزايا الشريفة من الشهامة والشجاعة وإباء الضيم ورفعهم إلى مكانة عليا من العزة ، ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهية وتقدم بهم إلى كل وجه من وجوه الخير . وإن كان حاكمها جاهلاً سيئ الطبع سافل الهمة ، جباناً ضعيف الرأي أحمق الجنان خسيس النفس معوج الطبيعة أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوي الحسران ، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل ، وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر ، وجار في سلطته عن جادة العدل ، وفتح أبواباً للعدوان فيتغلب القوي على على حقوق الضعيف ، ويختل النظام ، وتفسد الأخلاق ، وتخفص الكلمة ويغلب اليأس فتمد إليها أنظار الطامعين ، وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها في أحشاء الأمة . عند ذلك إن كان في الأمة رفق من الحياة وبقيت فيها بقية منها وأراد الله بها خيراً اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها، وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الحبيثة واستئصال جذورها، قبل أن تنشر الرياح بذورها وأجزائها السامة القاتلة بيد جموع الأمة فتميتها وينقطع الأمل من العلاج .»

هذا الأسلوب وما جرى مجراه في الدفاع عن الحرية من أقلام مجاهدة تحمل روح ابن خلدون وطابعه ، ولا أعني بذلك أن ينهج نهجه في التحليل والاستدلال ولكنه يعيش في جوّه ويستلهمه، وينطق بأثره الواضح أحياناً ، والحنفي حيناً ، وأنا إذ أقرر ذلك أوجه النظر إلى ناحية هامة من نواحي التأثير الخلدوني إذ أن بعض الباحثين يقف بتأثير المقدمة عند الصياغة والتركيب فقط ويرى أثرها لا يتعدى التحرر من القالب البديعي وهذا غير الواقع لأن الأقلام التي اتجهت وجهة الإصلاح السياسي والاجتماعي ، قد وجدت

معينها الدافق في أفكار بن خلدون ، وإذا كان قد اشتهر عنه تفوقه في إدراك حقائق الاجتماع مما يسعف الكاتبين في إصلاح المجتمع المصرى فإن آراءه السياسية لا تقل خطورة عن آرائه الاجتماعية .

وبعبارة أخرى فإن الإصلاح السياسي في منطق ابن خلدون نتيجة من نتائج الإصلاح الاجتماعي ، فكلا الإصلاحين قضية واحدة ذات مقدمة ونتيجة ومن الدائع المشتهر أن آراء المفكر العربي في حقل السياسة والاجتماع قد وجدت من يتحمس لها تحمساً يصل بصاحبها إلى ذروة العبقرية والإبداع حتى اعترف به واضعاً أول لعلم الاجتماع وأقيمت الموازنات الطويلة بينه وبين فلاسفة هذا العلم في أوروبا ، إذ قرنه الباحثون بأرسطو وأفلاطون وقال عنه (غوميلوفتس) أحد زعماء علم الاجتماع بألمانيا : « إن ابن خلدون يعتبر مفكراً عصرياً بكل معنى الكلمة . إنه درس الحوادث الاجتماعية بعقل هاديء رزين ، وأبدى آراء عميقة جداً لا أقول قبل (كانت) فحسب بل قبل (فيكو) أيضاً ، والحقيقة أن ما كتبه ابن خلدون هو ما نسميه اليوم بعلم الاجتماع » .

وقال (فارد) كبير علماء الاجتماع الأمريكان : « كانوا يظنون أن أول من قال بمبدأ الحتمية في الحياة الاجتماعية هو (مونتسكيو) أو (فيكو) في حين أن ابن خلدون قال بذلك وأظهر تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة قبل هؤلاء بقرون ، حينما كان الغرب مستسلماً للفلسفة الدرسانية والكلمانية استسلاماً تاماً » .

وليس لي أن أملاً الصفحات بمثل هذه الاعترافات المنصفة التي سجلها مفكروا الغرب من أمثال استفانو كولوزيو الإيطالي ، ونانانيل شميت الأمريكي وتوينبي الانجليزي لعبقرية ابن خلدون ، ولا أن أشير إلى المقارنات التي عقدها كبارهم بين ميكيا فيللي وأرسطو ومونتسكيو وبين صاحب المقدمة فقد شاعت وذاعت حتى أصبح تردادها المتكرر لا يأتي بجديد ، وإنما أريد أن أقول : إن صاحب هذه العقلية الفذة قد أنقذ الأسلوب الأدبي إنقاذاً

ناجحاً حين جعل الفكرة عنصراً عاماً من عناصره أو حين جعل صاحب القلم مفكراً ذا رسالة ، وليس صاحب أسجاع ومترادفات وقد ظل أثره الأسلوبى في قومه ضئيلاً لا يكاد يحس حتى استيقظت العربية من إغفائها الطويلة في نهضتها المعاصرة وقدر لها أن تحتذى مقدمة ابن خلدون فتنقل من دور إلى دور .

وطبيعي أن جميع الرواد في النصف الأخير من القرن التاسع عشر لم يكونوا من محتذى أسلوب المقدمة ، بل إن فيهم من لم تظهر على أسلوبه سمة واحدة من سماتها كعبد الله فكرى وإبراهيم المويلحي وحمزة فتح الله والنديم ، ولكن صفوة الكتاب إذ ذاك كجمال الدين ومحمد عبده وأديب إسحق وعبد الرحمن الكواكبي قد نشروا أسلوب المقدمة كل جهد طاقته ! ! وكان من حسن الحظ أن يتلمذ على جمال الدين ومحمد عبده بصفة خاصة أكثر كتاب الجيل اللاحق فيردوا موردهما ، وينهجوا منهجهما ، وإذ ذاك يقفز الأدب قفزته الطافرة ، ويتحرر الأسلوب نهائياً من أوهامه ، وتصديق كلمة أستاذنا السكندري حين قال : « لم يكن الانتفاع بمقدمته وأسلوب كتابته في وقت أظهر منه في العصر الحاضر فقد كان أسلوب ابن خلدون هو القدوة الحسنة للمصلحين والمجددين فهو الأستاذ الأكبر لكتاب الصحف والمجلات في نهضتنا الأخيرة » .

ويعن لنا أن نسأل في هذا المجال : لماذا لم يؤثر أسلوب ابن خلدون في معاصريه ، كما أثر في أسلوب الأدب المعاصر ؟ والرجل لم يكن خامل المكانة مجهول المنزلة بين قرنائه حتى يفقد تأثيره النفاذ بل كان كما قال عنه منافسه الخطير الوزير الأديب لسان الدين بن الخطيب في كتابه الإحاطة في تاريخ غرناطة . « باهر الخصال رفيع القدر أصيل المجد ، وقور المجلس ، عالي الهمة ، عزوفاً عن الضيم صعب المقادة ، قوي الجأش طامحاً لفن الرياسة خاطباً للحظ ، متقدماً في فنون عقلية ونقلية ، سديد البحث كثير الحفظ ، صحيح التصور ، مغرى بالتجلة ، فأما نثره فخالج بلاغة ، ورياض فنون ،

ومعادن إبداع يفرغ عنها يراعه الجريء ، شبهة البداءات بالحواتيم ، في نداوة الحروف ، وقرب العهد بجزية المداد ، ونفوذ أمر القريحة واسترسال الطبع ، وأما نظمه فقد نهض لهذا العهد قدماً في ميدان الشعر ، ونقده باعتبار أساليبه ، فائتال عليه جوه ، وهان عليه صعبه ، فأتى منه بكل غريبة » .

ولعل السبب في فقد تأثيره إذ ذاك أنه دعا إلى منهج جديد في التحرر ، وصاحب الجديد مقصي السبيل نائي الإجابة ، إذ أن معاصريه قد درجو على حب الصنعة والزخرف ، وأصبح الاعتكاف في البديع لديهم إيماناً لا يتزلزل ، فهم عن غيره منصرفون ، ولو نادى به عملاق خطير كابن خلدون ، لا نقول ذلك في الأسلوب الأدبي وحده ، بل في كل منهج جديد في مختلف العلوم والفنون والآداب يفتح العيون على أفاق لم تكتشف بعد . وللتدليل على ذلك نذكر في تاريخ النحو الأندلسي رجلين كبيرين ، أحدهما مجدد خطير وهو (ابن مضاء) القرطبي ، الذي نادى بإبطال نظرية العامل وذهب إلى أن الذي يسبب الظواهر النحوية من رفع ونصب وجر وجزم ! إنما هو المتكلم نفسه لا ما يزعمه النحاة من الأفعال وأشباهها ، وبين ما جرت إليه نظرية العامل من التعسف في التأويل والشطط في العلل والأقيسة ، وأكثرها مرفوض إن استقام من جهة تطرق إليه الخلل من جهة ثانية ! !

وقد ألف في مذهبه ثلاثة كتب ، منها كتابان كبيران مفصّلان طواهما الزمن ، وكتيب صغير ظل مجفو المنزلة حتى عثر على جزء منه في المكتبة التيمورية ، ونشره الدكتور شوقي ضيف منذ سنوات ! ! هذا البحاث المجدد لم يجد من يستمع إلى دعوته الإصلاحية أو من ينسخ كتبه فقط للأجيال اللاحقة ، فضاعت صفحاتها بديداً في خضم الزمن لأنه صاحب مذهب طريف ! أما الرجل الثاني فهو ابن مالك الأندلسي صاحب الألفية الشهيرة ! فقد كان جماعاً لآراء النحاة حسن الترتيب لما يتناول من القواعد المقررة ، لم يأت بجديد في تحرير مذهب أو تأصيل بحث ، ولكنه قرأ فوعى

ثم جمع فأوعى ، فسارت مؤلفاته النحوية مسيرة الشمس ، وظلت تجتاز القرون منذ القرن السابع الهجري إلى الآن ، وقد كان الأزهر ولا يزال يدرس آثاره في الأقسام الابتدائية والثانوية والعالية محاطة بالشروح والتقديرات حتى هذه الساعة ! ! فإذا فقد ابن مضاء تأثيره في معاصريه ، فقد التقى مع ابن خلدون في العمل والنتيجة ، ومثلهما الكثرة الكاثرة من المجددين الذين دفنتهم أيامهم الجائرة في حفائر الإهمال ، حتى هبت الريح العاصفة فكشفت التراب عن الذخائر المطموسة وأقبل عليها الراغبون مقدرين !

ويخيل إليّ أن تردد ابن خلدون قبل تأليف المقدمة بين الترسل والسجع قد ضاعل من تأثيره في معشره إذ رويت عنه مراسلات بديعية نحى فيها منحى معاصريه ، وقد حفظت عنه وتعرفت بين الناس بل في تاريخه الكبير كان يميل إلى السجع في بعض الفقرات على قلة . واختار لتاريخه أطول عنوان مسجوع لكتاب عرفه القراء ونذكر هنا نموذجاً من كتابته المسجوعة في رسالة بعثها إلى لسان الدين بن الخطيب بدأها بقوله :

« سيدي مجدداً وعلواً ، وواحدي ذخراً ومرجواً ، ومحل والدي برأً وحنواً وما زال الشوق منذ نأت بي وبك الدار ، واستحکم بنا البعاد ، يرعى سمعي أنباءك ويخيل لي من أيدي الرياح تناول رسائلك ، حتى ورد كتابك العزيز على استطلاع وعهد غير مضاع ، وود ذي أجناس وأنواع » الخ .

ونحن في ميزان النقد المخلص لا نؤاخذ الكاتب على التزامه قيود البديع في مراحلها الأولى قبل أن يكون صاحب مذهب يؤثره لأن أبعده المتطرفين في الدعوة إلى الجديد ، كان يتلقى دراسته الأولى عن النهج الذي نادى بالتخلص منه ، بعد أن فتقت الأيام ذهنه بالتأمل والتمحيص ! فكل ما صدر عنه قبل أن يهتدي إلى منهجه الخاص لا يزحزح من دعوته التجديدية في عيون الناقلين ونحن حين نطالع آراء ابن خلدون بالمقدمة في الأسلوب الأدبي المختار نلمس من ثباته وأصالته وتمكنه ما نعتبره به قائد

دعوته وحامل راية يحاول أن ينقل الكاتبين من مجال إلى مجال .
فهو يقول :

« واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون يعني فنون الشعر والنثر أساليب
تختص به عند أهله ولا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه ، وقد استعمل
المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع ، والتزام
التقفيه ، وتقديم النسب بين مدى الأغراض والمحمود في المخاطبات
السلطانية والترسل وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع إلا في الأقل
النادر وحيث ترسله الملكة إرسالاً من غير تكلف ثم إعطاء الكلام حقه في
مطابقتها لمقتضى الحال ، فإن المقامات مختلفة ، ولكل مقام أسلوب ينحصر
من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة وأما إجراء
المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فمذموم ،
وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم ، وقصورهم
لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقتها لمقتضى الحال ، فعبجروا عن الكلام
المرسل لبعده أمدته في البلاغة ، وانفساح خطوه فيه ويجبرونه بذلك القدر
من التزين بالأسجاع والألقاب البديعية ، ويغفلون عما سوى ذلك !

وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء الكلام كتاب المشرق
وشعراؤه لهذا العهد ، حتى إنهم ليخلون بالإعراب في الكلمات
والتصريف إذا دخلت لهم في تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها ، فيرجحون
ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الإعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها
تصادف التجنيس .

والكاتب الذي يحمل هذه الحملة على البديع ! يفرق فرقا واضحا بين
البديع المتكلف المستكره ، والبديع الفطري المطبوع فيرى في الأول ركافة
وإسفافاً وفي الثاني جمالا وإبداعاً وإنه ليفصح عن ذلك حين يقول - ببعض التصرف

« ويتبع تراكيب الكلام في هذه السجية ضروب من التزين والتحسين
فيحصل للكلام لذة ، وجمال زائد على الإفادة وهذه الصفة موجودة في

الكلام المعجز ، وفي كلام الجاهلين بعد كمال الإفادة لكن عفواً وبغير تعمد ،
وفي كلام الإسلاميين عفواً وقصدًا ، والمنثور في الجاهلية والإسلام كان
مرسلاً معتبر الموازنة بين جملة وتراكيبه حتى نبغ إبراهيم بن هلال الصابي
فتعاطى الصنعة والتقنية ، ثم انتشرت الصناعة بعده والكلام المصنوع بالمعانة
والتكلف قاصر عن المطبوع لقلة الاكتراث بأصل البلاغة والحكم في
ذلك الذوق » .

لقد كان ابن خلدون نابغة عصره دون نزاع ثم قدر له أن يقود النهضة
الأدبية في عصرنا الحديث ليصبح في رحاب التاريخ الأدبي نابغة العصور !
طيب الله ثراه .

* * * * *

رثاء المدن بين الأندلس والمشاركة

حين كتب تاريخ الأدب العربي في أوائل هذا القرن على نهج الاستشراق اضطر رجاله إلى الإلمام بأحكام عامة حالفها الصواب في أكثرها ، وبقي بعضها مجالاً للبحث والدراسة ، وكان نصيب الأدب الأندلسي من هذه الأحكام الصائبة موفوراً بلا شك ، ولكن اضطرار باحثيه إلى إثبات فروق كثيرة بينه وبين الأدب العربي بعامة أوقعهم في بعض الخطأ الظاهر كقولهم إن رثاء المدن فن أندلسي أوحى به مآسي الحوادث هناك ، وقد رسخ هذا القول رسوخاً مكيناً حتى وجدنا أطروحة جامعية حديثة تتحدث عن نكبة فلسطين وما قيل فيها من الشعر ، فترجع بالأثر إلى أشعار النكبة في الأندلس ! وهو غلو في الاستنتاج لا نرى داعياً إلى التمسك به ، وحتى رأينا نقرأ من أعلام الكتاب كأستاذنا الدكتور أحمد أمين يعلن خلو الأدب المشرقي من مرثي المدن ويعلل ذلك بما يعن له ، ونحن نعرض رأي هؤلاء ممثلاً في قول صاحب ظهر الإسلام (١) .

« لقد رأينا مدناً في الشرق تتساقط تساقط أوراق الشجر تستوجبُ الرثاء والبكاء كما سقطت بغداد في أيدي التتار ، وأزالوا كلَّ ما فيها من مظاهر المدنية والحضارة ، وفعل التتار بها ما لا يقل عما يفعله الأسبانيون في الأندلس ، وغزا هولاء كوتيمور لنك ونحوهما بلاد الشام ، وأسقطوها بلداً بلداً ، فما رأينا عاطفة قوية ، ولا رثاء صارخاً ، ولا أدباً رقيقاً ، ولا تاريخاً مسجلاً ! كالذي رأيناه في الأندلس فإن قلنا إن هذه الناحية في التاريخ الأندلسي أقوى وأشد لم نبعد عن الصواب » .

(١) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٨٧ .

وعبارة أستاذنا الكبير رحمه الله على شيء من التناقض أولاً وأخيراً ،
إذ أن قوله فإن قلنا إن هذه الناحية في التاريخ الأندلسي أقوى وأشد لم نبعد
عن الصواب قد يبدو متعارضاً مع قوله فما رأينا رثاء صارخاً ولا أدباً رقيقاً
ولا تاريخاً مسجلاً ! ! لأن القول الأخير يعترف بوجود هذا اللون على نحو
أقل من لون الأندلس والقول الأول يكاد يحكم بعدمه ! ! مع أن المتصفح
لكتب الأدب والتاريخ يرى رثاء المدن ذائعاً في كل محنة تجد ، ولم يتعرض
أمثال الطبري وابن الأثير والمسعودي لمحنة ما إلا رَووا عنها في كتب التاريخ ،
فضلاً عن كتب الأدب الخالص ، نماذج رائعة فيها الرثاء الصارخ والأدب
الرقيق ، والتاريخ المسجل كما كان يريد أستاذنا الدكتور أحمد أمين وسبيلنا
الآن أن نفصح عن ذلك موجزين !

لم يكن للشاعر الجاهلي قبل الإسلام مدن يبكي عليها ، فهو ينتقل في
الصحراء الواسعة من مكان إلى مكان طلباً للمرعى وسعيّاً وراء العيش ، وإذا
ألمَّ بمدن المناذرة بالحيرة والغساسنة بالشام فهو إمام المسافر المتكسب الذي
لا يشغله ما يراه في الحضر عما خلف في البادية من نوق وخيام وأصحاب ،
وشعراء الحضر في الإقليمين ، مناذرة وغساسنة لم يجدوا من الحوادث
الهائلة ما يدعوهم إلى رثاء المدن إذ ظلت سليمة أهلة تحظى بسيطرة الملك
وأبهة السلطان ولكن شعراء البادية في تنقلهم المتتابع بالصحراء ، كانوا
يألفون مرابعهم ، ويبكون على فراقها إذا اضطروهم المسير إلى انتجاع موضع
عشيب ، والشاعر الذي يبكي الربع الدارس والطلل الماحل ، ماذا كان
ينتظر منه لو عاش في مدينة أهلة ثم نكبت في كارثة فادحة ! لا بد أنه كان
يرسل المعلمات الرنانة في توضيح عاطفته النائمة وشجنه الملتاع ! على أن
ما لدينا من أدب الأطلال في الجاهلية وصدر الإسلام أدب عاطفي صادق
اللهجة ، صريح الدلالة على هيام العربي بأرضه وتعشقه الصحراء وحينه
إلى منازل أحبائه ! وما شوه هذا الأدب الجميل إلا تكلفه الزائف عند
شعراء بني العباس ممن أغرموا بمحاكاة أسلافهم لا عن حنين للربع أو هيام
بالطلل بل كي ينهجو المنهج الجاهلي في القصيد ، وزاد ما قاله هؤلاء

المحدثون عن حدّه حتى استثقل ومجّ ، وعادت كراهيته عفواً إلى ذلك الأدب الأصيل مما قيل في الجاهلية وصدر الإسلام عند بعض المتسرعين ، أما الذين يعرفون منازع الشعر ويقيمون أحكامهم على إيصاله العاطفة وصدق الإحساس فيضعون أدب الأطلال في عصورها الأولى موضعه الأثير ، ويرون فيما قاله امرؤ القيس بدارة جلجل وزهير بدمنة أم أوفى وعنتره بدار عبلة في الجواء أدباً حيّ العاطفة صادق التعبير ، وإذا جمعت الأطلال بعضها إلى بعض فهي مدينة زائلة بكأها الشاعر الجاهلي فصدق البكاء ! ؟

وقد تطور أدب الأطلال فيما بعد إلى أدب الآثار ، فأصبح الشعراء يجدون في قصور التاريخ وأواوينه وأهرامه ومسلاته منادح واسعة للقول ، وإن كان الشاعر في وصف الآثار واستجلاء عظمتها الغابرة يتحدث عن عاطفة عامة مشتركة يجد صداها لدى كل مواطن مثله . أما شاعر الأطلال فيصدر عن عاطفة ذاتية ينفرد بها في الأعم الأغلب ، وإذا شاركه فيها إنسان آخر فإن الشاعر لا يكثرث به بل كل همه أن يفرج عن صدره همّاً يرين عليه بما ينظم من أبيات ، وحيويّة هذا الأدب وصدقه أصبح ذا متعة وأنس لقارئه المتذوق ، وإن لم يكن من ساكني البادية وعاشقي الأطلال والربوع !

كانت بغداد أول مدينة تعرضت للتدمير والحريق في صدر الدولة العباسية حين استعر الخلاف بين المأمون والأمين وهجمت الخراسانية بمجانيقها ورماحها وخيولها ، واشتطت اشتطاطاً ظالماً في نسف بغداد وترويعها ، وقد زاد الطين بلة أن اهتبل الفرصة فريق من الأوشاب والرعاع فتسوروا القصور والمتاجر واقتحموا الدور ، ونهبوا الأموال وهتكوا الأعراض وكانت محنة مروعة لم يكن أحد ليتصورها في عهد بني العباس ، وهم الذين قد جعلوا بغداد حاضرة العالم بأسره ، وعاصمة الإسلام في أقاصي أقطاره وكانت منذ سنوات قليلة تنعم بأبهة الرشيد وعظمتته ، ويعدّ القاصون أرحلهم لينعموا بمشاهدتها وقد قطعوا الشهور ذوات العدد ضرباً في الطريق وتجوّالوا في الأنحاء مستسهلين الصعاب ، ليتحقق حلمهم البعيد رؤية بغداد ، فلما

حلت النكبة الفادحة وقف الشعراء الرسميون من مادحي الخلفاء والوزراء ينظرون على من تدور الدائرة ليشمتوا به ثم ليتجهوا إلى غريمه الظافر يهثونه بالنصر ، ويختلقون له روائح البطولة والنجدة وبعد النظر ، ويجعلونه معجزة الإنقاذ ، وموئل الرجاء ، ولكن شاعراً خاملاً بذكره ، نابهاً بجودته ، لم يكن يؤثر الرؤساء بأمداحه بل كان يجعل شعره مسلاة نفسه ، ومتنفس شجونة قد هاله أن تصبح بغداد العظيمة موضع الحسرة والفجعة وتعاضمه أن يجد السفلة من الأوشاب يرأسون المظاهرات لاقتحام الدور واغتصاب الأموال ، وسلب العفاف ، فأرسل زفراته الحارة كاوية لاهبة في قصيدة مؤثرة باكية تجاوزت المائة من الأبيات ، هذه القصيدة الرائعة لم تحفل بها كتب الأدب ، فتشيد باتجاهها الواقعي ، وتعبيرها المؤسي ، واتساع منافذ الشعور وإبعاد الخيال ومطارح التصوير لدى قائلها ، وهو بعد لا يشعر أنه ناظم يتعمد الوصف ويحفل بالجزالة ويمهد لضروب الاستعارة والتشبيه ، ولكنك تقف منه أمام نهرٍ مطرد المسير دافق التيار ، وحسبه أن ينقل عن نفسه ما يجيش بها من هدير ! هذا الشاعر الذي حفظ كتاب الطبري وحده قصيدته هو أبو يعقوب إسحاق الخزيمي الذي لا تكاد تروى كتب الأدب شيئاً عن تاريخه وشعره وإنما هي سطور متفرقة تقال في كل شاعر ! على أن مراثيته لبغداد كانت أبلغ تعريف به ، وقد تعرض بدءاً إلى عزها السالف ومجدها الغابر فرسمه في صورة سهلة لا تكلف بها ، وإنما هي حديث شعري يحمل رصيده النفسي من الإيحاء والتلوين إذ يقول :

إذ هي مثل العروس بادئها	مهول للفتى وحاضرها
جنة دنيا ودار مغبظة	قل من النائبات واترها
درت خلوف الدنيا لساكنها	وقل معسورها وعاسرها
وانفرجت بالنعيم وانتجعت	فيها بلذاتها حواضرها
فالقوم منها في روضة أنف	أشرق غب القطار زاهرها
من غرة العيش في بلهنية	لو أن دنيا يدوم عامرها

فيها وقرت بها منابرها
شد عراها لها أكابرها
يقدح في ملكها أصاغرها
مقطوعة بينها أواصرها
هوة غى أعيت مصادرها
واستحكمت في التقى بصائرها
لها ، ورغب النفوس ضائرها

دار ملوك رست قواعدها
أفراح نعى في إرث مملكتها
فلم يزل والزمان ذو غيير
وافترقت بعد ألفه شيعا
أورد أملا كنا نفوسهم
ما ضرها لو وفت بموثقها
وأقنعتها الدنيا التي جمعت

أرأيت هذا الحديث السهل المؤثر ، لا يعتمد إلى قعقة صاحبة ، تصك
سمعك ، ولا ينادي صاحبه على نفسه بالرصانة المفتعلة ، ليذهب له ذكر
في جودة الحوك وزركشة الوشي ! وإنما هي نظرة المتأمل ، وعبرة الذاكر
حتى إذا ادكر الأمس بمباهجه انتقل إلى الحاضر بدواهيه فقال :

دارت على أهلها دوائرها
حين أحاطت بها كبائرها
لحرب التي أصبحت تساورها
كالعاهر السوء نام عاهرها
داهية لم تكن تحاذرها
وأدركت أهلها جرائرها
الفضل وعز النساء فاجرها
بالرغم واستعبدت مخادرها
وابتز أمر الدروب ذاعرها
قد ربقت حولها عساكرها
تسقط أحيالها زماجرها
يرهقها للقاء طاهرها

يا بؤس بغداد دار مملكتها
أمهلها الله ثم عاقبها
بالخسف والقذف والحريق وبا
كم قد رأينا من المعاصي بها
حلت ببغداد وهي آمنة
طالعها السوء من مطالعه
دق بها الدين واستخف بذي
وخطم العبد أنف سيده
وصار رب الخيران فاسقهم
من ير بغداد والجنود بها
كل طحون شهباء باسلة
يلقى بغى الردى أو انسلها

والشيخ يعدو حزما كتائبه يقدم أعجازه يعاورها

هذا كله بعد الأنس السابغ ! والنعيم الضافي والعز المقيم !

يا هل رأيت الجنان زاهرة يروق عين البصير زاهرها

وهل رأيت القصور شارعة تكن مثل الدمى مقاصرها

أين الأطباء الأبقار في روضة الملك تهادي بها غرائرها

أين غضاراتها ولذتها وأين محبورها وحابرها

بالمسك والعنبر اليماني والأطيا ب مشبوبة مجامرها

يرفلن في الخز والمجاسد والمو شى مخطومة مزامرها

فأين رقاصها وزامرها يجبن حيث انتهت حناجرها

تكاد أسماعهم تسلل إذا عارض عيـدانها مزامرها

هؤلاء الأوانس النواعم ذوات النوافح ، العبقة من المسك والعنبر يرفلن

في الخز والمجاسد ، قد صيرن وسط الأزقة صارخات باكيات يسألن أين

الطريق ؟ ولم يكدنَ يبرزن وجوههن للشمس إذ يمرحن في الأبهاء والمقاصير

حتى اختطفتهن حرب زبون لا رحمة لديها ولا عطف فهن كما قال الشاعر :

معصوبات وسط الأزقة قد أبرزها للعيون ساترها

كل رقود الضحى مخبأة لم تبدُ في أهلها محاجرها

بيضة خدرٍ مكنونة برزت للناس منشورة غدائرها

تعثر في ثوبها وتعجلها كبة خيل زيغت حوافرها

تسأل أين الطريق والهـمة والنار من خلفها تبادرها

لم تجتل الشمس حسن بهجتها حتى اجتلتها حرب تباشرها

يا هل رأيت الثكلي مولولة في الطرق تسعى والجهد باهرها

في إثر نعشٍ عليه واحدها في صدره طعنة يساورها

خرقاء تلقي النثار من يدها يهزها بالسنان شاجرها

تنظر في وجهه وتهتف بالشكل وعز الدموع خامرها
غرغر بالنفس ثم أسلمها مطلولة لا يخاف ثأرها!

هذا شعر صادق مؤثر ! وتصويرٌ حي باهر لكل عذراء
رقود الضحى منعمّة لا يعرف أهلها صورتها لشدة تصوّنها ثم
هي تُذال في الطريق منشورة الغدائر تعثر في ثوبها ولا تقيم الخطو إذ
تعجلها كبة خيّل تختطف الأوانس من هنا وهناك ، تسأل أين الطريق ؟
والنار من خلف وأمام ! أما الثكلى ذات الولد فتولول إثر النعش تنظر إلى
غريمها القاتل صارخة في وجهه ! ولصدرها شجون لا يبلغها التعبير ، ومن
قبل هذه العذراء البكر ومن بعد هذه الثكلى تراءى صور للأسى رسمتها
القصيدة فكانت أبلغ مرثية قيلت في بغداد ! ولا نحب أن نطيل الوقوف
لديها كما تستأهل دراسة وتحليلاً فلها أخوات أحر من بنات الشعر
ينتظرون !

أما رثاء البصرة لابن الرومي فمن أروع آثار هذا الشاعر الفذّ ، فقد
راعه أن تصبح البصرة بين عشية وضحاها مرعىً مباحاً لهمل الزنج ، وطغام
السوقة ، إذ أشعلوا الحرائق بها من ثلاث جهات ، فكانت النيران تتقابل
كي تحصدتها أتت عليه من قصور وأرواح وأموال ثم أشاعوا الآمان وطلبوا
ممن بقي على الحياة أن يلجأ إلى المسجد الجامع كي يأمن على نفسه فصدق
الناس ، لعظيم الملح ما يسمعون ، وهرولوا إلى بيت الله لائذين ، فحاصرهم
السوقة من الزنج وأعملوا سيوفهم في الرقاب دون رحمة حتى لم يبق أحد
ممن اعتصم ببيت الله ! وصارت البصرة أنقاضاً سلط عليها البثق والحريق
فما ترى غير وجوهٍ قد رملتها الدماء وطئت بالهوان والذل ، وأذرعٍ منشورة
في الطريق لا تجد راحماً يجمعها ليدفنها في مكان حتى حقّ لابن الرومي
أن يقول :

بينما أهلها بأحسن حال إذ رماهم عبيدهم باضطلام
دخلوها كأنهم قطع الليل إذا راح مداهم الظلام

كم أغصّوا من شارب شراب كم أغصّوا من طاعم بطعام
 كم ضنين بنفسه رام منجىً فتلقوا جبينه بالحسام
 كم أخ قد رأى أخاه سريعاً ترب الحدّ بين صرعى كرام
 كم مفدى في أهله أسلموه حين لم يحمه هنالك حامي
 كم رضيع هناك قد فطموه بشبا السيف قبل حد الفطام
 كم فتاةٍ بخاتم الله بـ فضحوها جهراً بغير اكتام
 صبّحهم فكابد القوم منهم طول يوم كأنه ألف عام
 من رأهنّ في المساق سبايا بعد ملك الإماء ، والخدام

هذه المعاني تتكرر دائماً في مرثي المدن ، دون أن يقلد فيها شاعر
 سواه لأن الواقع المفجع نفسه قد تكرر فتكرر معه خيال الشاعر وتصويره ،
 وقد ذهب بعض النقاد إلى موازنة بين قصيدتين أندلسيتين تضمنان أمثال هذه
 المعاني فحكّم للسابق بالابتكار ولللاحق بالتقليد ! وهذا لعمرى خطأ واضح
 لأن التفات الشاعر إلى روعة الأشياء المذهلة لا يجعل تشابهها مدعاة لإغفالها ،
 وما زلنا نقرأ أمثال ذلك حين تحين مناسباته ، ولكل شاعر طريقته الخاصة
 التي يصور بها مشاعره ! ولا تظن أن رثاء المدن وحده هو الذي يضم هذه
 المشاهد ، فالبحري مثلاً يرثي المتوكل على الله فيتلهف على قصر الجعفري
 وأنسه ، على نحو قريب مما نرى هنا ، ويتحدث عنه إذ ريع سربه ، وإذ
 دُعرت أطلاؤه وجآذره ، وإذ صيح فيه بالرحيل فهتكت أستاره وستاره ،
 وما زالت أمثال هذه المشاهد تثير المشاعر وتذكي الجوانح ، فتداولها الشعراء
 كلٌّ ينسج على منواله ما استطاب من لذن الحرثي وابن الرومي وشعراء
 النكبة في الأندلس إلى حافظ إبراهيم في زلزال مسينا وحريق ميت غمر ،
 ثم إلى ما تلا ذلك من حديث فلسطين ! فالقول هنا بتأثر اللاحق بعيداً عن
 مطارح الصواب ! على أن الجدة حقاً لدى الشاعر العبقرى تظهر في ألوانه
 وصوره من ناحية وفي وثبات خياله من ناحية ثانية ، فابن الرومي يظفر بخياله
 طفرات موفقة حين يتصور يوم الموقف الأعظم أمام المنتقم الجبار وقد

هرع الناس إلى المحشر الرهيب بين يدي رب العالمين فسألهم عز وجل عن مأساة البصرة ونادي مُعاصريها من المسلمين متسائلا؟ أما غضبتُم لوجهي؟ أخذتُم إخوانكم وقعدتُم قعود اللئام! لِمَ لِمَ تغاروا لغيرتي فتركتُم الحرمات لمن أحل الحرام؟ ثم يتصور بعد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صاح بالناس أين كنتم حين صرختُ كرائم الدور واحمداه! لِمَ لِمَ تُجيبوهن وقد استنجدن برسول الله وهو دفينٌ تحت التراب! هذا نمط من التخیل العبقري لا يقدر عليه شاعر من طراز ابن الرومي حين يقول:

أيّ خطب وأي رزءٍ جليل	نَالنَا في أولئك الأعـلام
كم خذلنا من ناسك ذي اجتهاد	وفقيه في دينه عـلام
واندامى على التخلفِ عنهم	وقليلٌ عنهم غناء نـدامى
وإحيائي منهم إذا ما التقينا	وهمٌ عند حاكم الحكام
أيّ عذر لنا وأيّ جـواب	حين ندعى على رؤوس الأنام
يا عبادي أما غضبتُم لوجهي	ذي الجلال العظيم والإكرام
أخذتُم إخوانكم وقعدتُم	عنهمٌ ويحكم قعود اللئام
كيف لم تعطفوا على أخوات	في حبال العبيد من آل حام
لم تغاروا لغيرتي فتركتُم	حُرماتي لمن أحل حرامـي
إنّ من لم يغر على حرماتي	غير كفءٍ لقاصرات الخيام
كيف ترضى الحوراء بالمرء بعلا	وهو من دون حرمة لا يحامي
واحيائي من النبي إذا ما	لامني فيهم أشد المـلام
وانقطاعي إذا همٌ خاصموني	وتولى النبي عنهم خصامي
مثلوا قوله لكم أيها النا	س إذا لامكم مع اللـوام
أمي أين كنتم إذ دعتكم	حرة من كرائم الأقبام
صرختُ يا محمداه فهـلا	قام فيها رعاة حقي مقامي

لم أجبها إذ كنت فيتأفلولا كان حيّ أجابها عن عظامي
بأي تلكمو العظام عظاماً وسقتها السماء صوب الغمام
وعليها من الملك صلاة وسلام مؤكداً بسلام

وقد عجبتُ لقول أستاذنا الدكتور أحمد أمين : « لقد سقطتُ بغداد
في أيدي التتار وأزالوا كل ما فيها من مظاهر المدنية والحضارة وفعلوا بها
ما لا يقل عما فعله الإسبان في الأندلس وغزا هولاءكو وتيمورلنك ونحوهما
بلاد الشام وأسقطوها بلداً بلداً فما رأينا رثاء صارخاً ولا أدباً رقيقاً » . إذ أن
الواقع أن بغداد رثيت برثاء كثير في هذه المحنة كما رثيت جميع المدن التي
أسقطها هولاءكو وتيمورلنك ! ولكن هذه المراثي لم تبلغ من الروعة مبلغ
مراثي الخزيمي وابن الرومي وأمثالهما لانحدار الشعر العربي بعامة في عصور
الغزو التتري ، فلم يكن للعربية إذ ذاك من فحول الشعراء من يطيلون
الملاحم في التفجع والحسرة كما لم يكن لها إذ ذاك أيضاً من يجيد الأغراض
الأخرى من غزل ووصف وأمداح ! ! إنما كان لدينا شعراء فهموا
مدلول الشعر على غير وجهه وقد أفسدتهم سيطرة النقد القائم على تفضيل
التلاعب اللفظي والمحسن البديعي ، ومع هذا كله فقد قام من يقولون الشعر
بواجبهم نحو هذه المدن الجريحة فعبروا عن الشعور الإسلامي كما يستطيعون ،
والأستاذ أحمد أمين أحد الذين اشتركوا في تأليف « المنتخب المدرسي »
فلا بد أن يكون قد قرأه وأقره ، فكيف يغفل عما به من رثاء بغداد –
– وهو مثل من أمثال – للشاعر شمس الدين الكوفي ومن أبياته :

إن لم تقرّح أدمعي أجفاني من بعد بعدكم فما أجفاني
إنسان عيني مذ تناءت دراكم ما راقه نظر إلى إنسان
مالي وللأيام شتت خطبها شملي وختلاني بلا خلان
ما للمنازل أصبحت لا أهلها أهلي ولا جيرانها جيرياني
وحياتكم ما حلها من بعدكم غير البلى والهدم والنيران
أين الذين عهدتهم ولعزهم ذلاًّ تخر معاقد التيجان

كانوا نجوم من اهتدى فعليهم
أفتتهم غير الحوادث مثلما
ما زلت أبكيهم وألثم وحشة
حتى رثى لي كل من وجده
يبكي الهدى وشعائر الإيمان
أفتت قديماً صاحب الإيوان
لجمالهم متهدم الأركان
وجدي ولا أشجانه أشجاني

هذا نمط مما قيل وقد شغل فيه الشاعر عن تسجيل دوافق اللوعة
بمراعاة الجناس بين أجفاني وما أجفاني وبين إنسان العين والإنسان وحول
الطباق بين الموت والحياة والعز والذل ! وهذه محنة الأدب بعامة في عصور
الانحطاط .

أما الشاعر الفارسي العملاق سعدي الشيرازي فقد تأوه للمحنة ، ونظم
فيها باللسان الفارسي شعراً يذيب الحماد ، كما نظم فيها بالعربية شعراً يرتفع
كثيراً عما قاله معاصروه من شعراء العرب ! ومن الطريف أن الجزء الرابع
من كتاب المطالعة العربية وقد كتب عليه أن الأستاذ أحمد أمين من مراجعيه
قد نشر جزءاً من مرثية الشيرازي لبغداد ، وهي وإن كانت أقل من شعره
الفارسي جودة وإتقاناً إلا أنها ممتازة بين زميلاتها من العربيات المعاصرات !

أما رثاء دمشق حين سقطت في أيدي التتار فمما نتمثل به هنا قول الشاعر
علاء الدين العزولي :

أجريتُ جمر الدمع من أجفاني
لَهفي على وادي دمشق ولطفه
واحسرتاه على دمشق وقولها
لَهفي عليك محاسناً لَهفي عليك
ما كان أهناً العيش في ساحاتها
حزناً على الشقراء والميـدان
وتبدل الغزلان بالثـيران
سبحان من بالغل قد أبـلاني
عرائساً لَهفي عليك مغـاني
والدار داري والزمان زمـاني

ولا أظن القاريء في حاجة إلى الإكثار من هذا الوصف التقليدي
وإنما سطر بعضه على سبيل المثال .

على أن المشاهد أن رثاء المدن في أدب المشاركة لم يقتصر على الشعر فقط بل تعداه إلى النثر ، فلم تُرثَ مدينة سامراء بأبلغ ما قاله ابن المعتز في محتتها نثراً ، وحين هجم الصليبيون على مدينة سروج بلدة أبي زيد صاحب الحريري أبدع في رثائها بمقامة من عيون مقاماته ، وقد ألهته الفاجعة الأليمة فاسترسل نسبياً وترك غرائب السجع والازدواج ، وعجائب التلاعب بالألفاظ وانصرف إلى البكاء على المدينة من قلبه ! ولو أردنا أن نتحدث هنا عن المدن في شعر الحروب الصليبية لطلال القول، ولكنّ مما يصرفنا عن ذلك أن المدن في شعر الحروب الصليبية لا تكاد تستقل بالموضوع بل تأتي تبعاً في أمداح عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وسائر أبطال الحروب الصليبية وفيها دلالة واضحة على تحسّر الشعراء على سقوط بلادهم في يد الصليبيين وحثهم على استردادها وقد صدق الله وعده فخرج الغزاة مدحورين .

* * * * *

نتقل إلى مرآتي المدن بالأندلس بعد أن عرفنا أن القول باختصاص الأندلس بهذا الغرض الشعري لا ينهض على أساس قويم ، وإن من الإنصاف أن نذكر أن الأندلس قد برعت في هذا اللون براعة مشهودة ، فقد وجدت في مآسيها الدامية ما أذكى عواطف الحسرة واللّهف فاندلعت زفرائها الشعرية تتحدث عن المساجد المتهدمة والكنائس المشيدة، والآذان الصامت والناقوس المجلجل ! والحق أن الشعور الديني المؤجج بالحسرة والندم قد جعل لقصائد الأندلس حرارة متقددة لا تزال تلفح قارئها على مرّ العصور ، وقد كان سقوط طليطلة في أواخر القرن الخامس الهجري بدء المأساة فهي أول بلد إسلامي يسلم إلى الفرنجة دون أن يتنبه ملوك الطوائف لما يوشك أن يعصف بهم من بركان ، إذ نسي المعتمد أنه على حافة البركان فعاهد ملك الفرنجة على ألا يقف بجنده أمامه عند التهام الغنيمة، ولو جمع ملوك الطوائف أمرهم إزاء هذه النكبة ما استشرى لبيب الفرنجة على نحو ينذر بالفناء ،

إذ أن طليطلة لم تجد من جيرانها المسلمين من يشدّ أزرها غير الملك الشهم صاحب بطليوس ابن الأفطس إذ دافع عنها ما استطاع ولكن قوة الفرنجة كانت بحيث لا يثبت أمامها غير التعاون المحتشد المترامي ، وقد احتفظ لنا المقرّي بقصيدة باكية تبكي طليطلة وتسجل المحنة القاصمة تسجيلاً يستدر الدموع وهي لشاعر مجهول طالت به الحسرة فنظم أكثر من سبعين بيتاً في رثاء الدولة الزاهية مستنجداً مستغيثاً ، ومن أبياتها :

لشكلك كيف تبتم الثغور؟ —	سروراً بعد ما يئست ثغور !
طليطله أباح الكفر منها —	حماها إنّ ذا نبأٌ كبير
أنأمنُ أن يحلّ بنا انتقام	وفينا الفسق أجمع والفجور
كفى حزناً بأنّ الناس قالوا	إلى أين التحول والمسير —
أنترك دورنا ونفرّ عنها —	وليس لنا وراء البحر دورٌ؟
لقد ذهب اليقين فلا يقين	وغرّ القوم بالله الغرور
رضوا بالرقّ يا لله ماذا	رآه وما أشار به مشير

هذه هي العواطف الصادقة التي تجعل لمراثي المدن لوعة لا تخمد ! إذ أن الواقع المرير في نفس الشاعر ينطقه بالحقيقة المفجعة بعيدة عن تهاويل البيان وزخارف القول فتأتي حية نابضة وأي بيت بلاغيّ يحفل بالصور الفنية المصطلح عليها لدى المتفاحين يبلغ من التأثير مبلغ هذا القول الطبيعي :

أنتركُ دُورنا ونفرّ عنها — وليس لنا وراء البحر دور !؟

ولو رجع شعراء المدن الغاربة إلى عواطفهم الملتاعة لأبدعوا وأجادوا ، ولكننا نجد كثيراً منهم يلجئون إلى أذهانهم الواعية وذاكرتهم الحافظة فينظمون أكثر مما يشعرون ، فلديك مثلاً قصيدة ابن عبدون في رثاء بني الأفطس :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر	فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة	عن نومة بين ناب الليث والظفر
فلا تغرنك من دنياك نومتها	فما صناعة عينها سوى السهر

هذه القصيدة قد جعلها ناظمها معرضاً لذكر أحداث المصائب في التاريخ العربي جاهلية وإسلامه فنذكر كيف نكّل الدهر بالجابرة من الملوك وتحدث عن جرهم وطسم ، وعادوا ، عن دارا وأبرويزو ويزدجرد ، ورستم ، وبني ساسان وعن السبأين في اليمن ، ثم عن كليب وعبس وذبيان وعن عثمان ، والحسين ومصعب ، في صدر الإسلام وخاض في وقائع عباسية مشتهرة فألمع إلى السفاح والمنصور والبرامكة والأمير حتى انتهى لبني المظفر وكل ذلك يدل على قراءة الشاعر وثقافته ، ولكنه هنا شاعر لا مؤرخ وأولى به أن يصدر عن نفسه! وهي سبيل "مطروقة سنها أبو تمام في قصائده، فجعل الشعراء يقتفونه إذ ينظمون شذرات مبتسرة من حوادث التاريخ هنا وهناك، وقد يقول قائل إن قصيدة ابن عبدون في بني الأفطس قد احتفل بها الأدباء وبالغ أكثرهم في تقديرها حتى أفردوا ابن بدوون المتوفي سنة ٦١٠ بشرح مسهب ، وهذا كله لا يزيد من قيمتها الفنية ، لأن مشيخة الأدب لعهد كانوا يحتفلون بالآثار التاريخية نظماً ونثراً لا لقيمتها الفنية ولكن لأنها تفسح مجال الشرح والتفسير فينطلق المؤلف الشارح وراء الأبيات ليذكر ما تشير إليه من الحوادث التاريخية بإسهاب ولديك رسالتنا ابن زيدون الجدية والهدلية فقد أفردت لهما الشروح الكثيرة نظراً لما تضمنته من الإلماع إلى حوادث التاريخ! ولو خلتنا من ذلك ما احتفل بهما الشارحون من العلماء! وهذا كله إن عدّ لابن عبدون وابن زيدون وأضراهما كالأعمى التطيلي ولسان الدين في مجال الثقافة والاطلاع فإن مجال الفن وحده مما يضيق أحياناً عن إطراء هذا اللون وموازنته بالشعر الفني ذي الهواتف الذاتية ، والشعور الفريد ، على أن مجال القول في بني الأفطس كان متسعاً لا يجيز لابن عبدون أن يفر منه إلى حوادث التاريخ ، فبنو الأفطس أبطال مخلصون وقد غدر بهم يوسف بن تاشفين لسيّلتهم الأندلس التهاماً! ولو كان صادق الرغبة لله وللإسلام في مجيئه للأندلس لتعقب فلول النصرى بعد موقعة الزلاقة كما أشار عليه ابن عباد فيستأصل شأفتهم في نشوة النصر وزهو الفرحة لدى المسلمين ، وفي زعازع الوجل وعواصف الفرع لدى القشتاليين!

ولكنه أحجم عن هذا الغرض المحتوم ليمدّ لنفسه أسباب البقاء بالأندلس ، ويرى من المبررات المختلفة ما يُساعده على استئصال ملوك الطوائف بغياً وعدواناً ! وقد بلغ مراده فيهم فلم يكتف بحرمانهم وطردهم ، بل قتل الملوك دون جريرة كبني الأفطس وسواهم ، ومن عفا عنهم كالمعتمد قيّده بالأغلال في السجن وعرض أولاده وزوجاته لغزل النسيج ، وجمع الفئات ليجد الأسرى ما يمسك الرمق من الزاد ! وها هو ذا قد استولى على الأندلس المسلمة فلم تتوجه همته إلى مناوئة المتربصين بها من الأعداء حتى جاءه الموت وخلفه ابنه عليّ ثم عصفت الأيام بدولته سريعاً على يد الموحدين ! وقويت شوكة النصارى فأخذوا يسقطون المدن الإسلامية مدينةً وراء أخرى ، وفزع المسلمون بأسبانيا فأرسلوا رسلهم إلى العدو مستغيثين ! وقد حفظ التاريخ الأدبي بعض ما قيل في ذلك من أمثال قول ابن الأبار القضاعي البلنسي مستنصراً بسُلطان تونس :

أدركُ بخيلك خيل الله أندلساً
 بالجزيرة أضحى أهلها جزراً
 في كل شارقةٍ إمامٌ بائقة
 مدائنٌ حلها الإشرار مبتسماً
 محاسنها طاغ أُتيح لها
 ورجَّ أرجاءها لما أحاط بها
 وأكثر الزعم بالثليل منفرداً

وقول غيره بعد سقوط بلنسية :

نادتُك أندلسٌ قلبٌ نداءها
 ياحسرتي لعقائلٍ معقولة
 كيف السبيل إلى احتلال معاهد
 طاب المعرّس والمقبل خلالها
 واجعل طواغيت الصليب فداءها
 سئم الهدى نحو الضلال هداها
 شبّ الأعاجم دونها هيجاءها
 وتطلعت غرر المنى أثناءها

بأي مدارس كالطلول دوارس
ومصانع كسف الضلال صباحها
ناحت بها الورقاء تسمع شدوها
عجباً لأهل النار حلوجنة

نسخت نواقيس الصليب نداءها
فيخاله الرائي إليه مساءها
وغدت ترجع نوحها وبكاءها
منها تمد عليهم أفياءها

أما المرثية التي شرقت وغربت ، وسار بها السائرون في كل وادٍ فهي قصيدة
أبي البقاء صالح بن شريف الرندي ، وهي واضحة اللفظ قريبة المعاني ،
ولكن إهاجتها العواطف ، وإثارها المشاعر جاءت من ضربها المرن على
الوتر الديني ، فالمحاريب تبكي وهي جامدة والمنابر ترثي وهي عيدان ،
والمساجد كنائس ذات صلبان ، والمستضعفون من المسلمين قتلى وأسرى
يستغيثون فما يهتز إنسان .

تلك المصيبة أنست كل فادحة وما لها في طويل الدهر نسيان

وهذا النمط من القول يذكي الشاعر ، ويلهج الألسنة بالصراخ والعيون
بالدمع ولذلك بقيت القصيدة حية يتمثل بها في المواقف المؤسية ! وهي
على بساطة معانيها أفعال بالنفس من كل توليد خارق ! بل إن المعاني المتكررة
كبكاء الأم المصرع الطفل ، وانقياد الأوانس المحصنات إلى سفلة العلوج
لترى بها قشبية ذات طرافة وجدّة ! وهذه بعض زفرائها :

أعندكم نبأ عن أهل أندلس
تبكي الحنيفة البيضاء من أسف
حيث المساجد قد صارت كنائس ما
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة
كم يستغيث بها المستضعفون وهم
ألا نفوس أبيات لها همم
يا من لذلة قوم بعد عزهم
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم

فقد مضى بحديث القوم ركبان
كما بكى لفراق الإلف هيمان
فيهنّ إلا نواقيس وصلبان
حتى المنابر ترثي وهي عيدان
قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
أما على الحير أنصار وأعوان
أحال حالهم كفر وطغيان
عليهم من ثياب الذل ألوان

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهلك الأمر واستهوتك أحزان
يا رب أمٍ وطفل حيل بينهما كما تفرّق أرواح وأبدان
وظفلةٍ مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العالج للمكروه مكرهةً والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

أسمعت خطبة رائعة يقولها خطيبٌ بليغ اللفظ قوي الإشارة عن حادثة خطيرة في محفل يترقب النتائج ويستشرق الأنباء ! فهو يجمل إجمالاً يغني عن التفصيل ليترك للمشاعر والعقول نصيبها من التخيل والتخمين ! ! ثم هو يضرب على الأوتار الحساسة ليشد الأعصاب إلى قوله والنفوس إلى افكاره هكذا كان أبو البقاء خطيباً شاعراً ، وإذا كانت موازين النقد المعاصر لا تعترف بالأسلوب الخطابي في مجالات الشعر فهي مضطرة إلى التنازل عن رأيها فيما يتعلّق بفنون الاستثارة حماسيةً وبكاء ! لها أن تطبق قواعدها الفنية على الغزل الهامس والعتاب الشاكي والوصف المصور ! أمّا مجال الحفيظة القصبي والثأر المتربّص والحمية المدكاة ! فإن الخطابة الشعرية هنا من بواعث التوفيق وأسباب التبريز ! وإذا عارض بعض الناس هذه الوجهة فليسأل نفسه لماذا خلدت قصيدة أبي البقاء وما ينحو نحوها فرددتها الأجيال . . .

وهناك في مرآي الأندلس ظاهرة هامة هي أن أكثر قائلها غير معروفين لنا الآن ، إذ كانوا نقرأ ممن هزّتهم المحنة فأرسلوا عبراتهم المنظومة ورواها الأدباء عنهم لروعتها دون أن يقفوا غالباً عند قائلها . ولا شك أنهم كانوا مشهورين في أزمانهم حتى سارت شواردهم مسير الشمس في كل أفق ! ولكنك تتقصّى أسماءهم الآن فتجهل أكثر ممّن تعرف ، وقد مرّت بنا أبيات من قصيدة :

لشكلك كيف تبسم الثغور سروراً بعد ما يشبت ثغور

ومن قصيدة :

نادتك أندلس قلباً نداءها واجعل طواغيت الصليب فداءها

وكلتاها لا يُعلم لها قائل ، أما أروع مرثية عرفناها للأندلس على الإطلاق فقد ظلت محتفية في المخطوطات حتى كشف عنها الباحثون منذ نصف قرن فقط ، دون أن يهتدوا للآن إلى قائلها القدير ! وهي ملحمة طويلة تسجّل النكبة الأندلسية تسجيلاً حاراً يلهب الجوانح ، ويشير اللواعج ، واذكر أن المؤرخ الجاد الأستاذ محمد عبد الله عنان قد درسها دراسة تاريخية في مجلة الرسالة العدد ١٣٣ (٢٠ يناير سنة ١٩٣٦) فاهتدى بمقارنة ما فيها من الحوادث ومصارع المدن إلى أنها نظمت بعد سقوط غرناطة ، وهي بعدُ آخر معقل إسلامي غربت بعده شمس الإسلام بالأندلس بل تأخرت عن هذه الكارثة حتى شاهد ناظمها محاولات الأسباب في تنصير المسلمين وصدّهم عن دينهم القويم بعد أن أعطوا العهود الحائنة باحترام العقائد وتأمين الأشخاص على الأعراض والأموال والحريات وأشار إلى نحو من ذلك في قوله :

وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا جيوشٌ كعوج البحر هبّت دبورها
علاماتٌ أخذ مالنا قبلُ بها جناياتٌ سلبٍ قد جناها مثيرها
فلا تمّحي إلا بمحو أصولها ولا تنجلي حتى تحط أصولها

وقد استنبط الأستاذ عنان من ذلك أنها قيلت حوالي سنة ٩٠٥ (سنة ١٥٠٠) مع أن سقوط غرناطة كان سنة ٨٩٧ هـ سنة ١٤٩١ .

والقصيدةُ الرثائية عواطف ثائرة ناقمة ، قد أغنتها وقائعها المذهلة عن التلفيق والتنميق ، وقد جمعت كلَّ ما قيل عن المأساة قبل ذلك من هتك الحرمات وهدم المنابر والمحاريب واستسلام الأطفال واليتامى والشيوخ ، واستئصال الشباب وذوى الفناء ! ولا يستطيع مسلم - على مرور الزمن الطويل - أن يقرأها مرة واحدة ، حتى يقف أثناءها لحظات يردّدها زفرة أو يساقط عبرة ، أو يهديء لواعج حزن يلذع ! فإن بها ما يشيب الولدان من فاجر التعذيب وهائل الترويع ! وقد أرهقت أعصابي إرهاقاً مؤسباً وأنا أحاول إعادتها لكتابة كلمة موجزة عنها فكنت كمن يسير على الجمر

الملتهب ، تشتعل النار في أعضائه فيتصبر ويتماسك ثم يلمس من هول اللذع ما يسلمه إلى النحيب ! وسأنقل منها بعض الأبيات كما اتفق وهي أكثر من مائة وخمسين ! فيا لله كم تعذب ناظمها ثم خلفها من ورائه ليعذب بها القارئين ! !

أحَقّاً خبا من جور ندة نورها وقد
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت
تسلمها حزب الصليب وقادها
فباد بها الإسلام حتى تقطعت
لقرع النواقيس اعلى بمنارها
فواحسرتاه كم مساجد حولت
وواأسفاكم من ماذن أوحشت
وكم من لسان كان فيها مرتل
وكم طفلة حسناء فيها مصنونة
تميل كغصن البان مالت به الصبا
فأضحت بأيدي الكافرين رهينة
وقد لُطمت واحرّ قلبي حدودها
وإن تستغث بالله والدين لا تُغث
وقد حيل ما بين الشقيق وبينها
وكم من عجوز يحرم الماء ظمؤها
وشيوخ على الإسلام شابت شيوبه
وكم فيهم من مهجة ذات ضجة
ها روعة من وقعة البين دائم
وكم من صغير حيز من حجر أمه

كسفت بعد الشמוש بدورها
منازها ذات العلا وقصورها
وكانت شروداً لا يقاد نفورها
مناسيها واستأصل الحق زورها
كرائه أصوات يروع صريرها
وكانت إلى البيت الحرام شطورها
وقد كان معتاد الأذان يزورها
وحفل بحتم الذكر تمضي شهورها
إذا سمرت يسي العقول سفورها
وقد زانها ديباجها وحريرها
وقد هتكت بالرغم منها ستورها
وقد بعثرت وادمع عيني شعورها
وإن تستجر ذا رحمة لا يجيرها
وأسلمها آباؤها وعشيرها
على الذل يطوى لبثها ومسيرها
يُمزق من بعد الوقار قتيورها
تود لو انضمت عليها قبورها
أساها وعين لا يكف هديرها
فأكبادها حراء لفح هجيرها

وهل يتبع الشيطان إلا صغيرها
عواقبها مخدورة وشروورها
ويا لعمى عين رآها بصيرها
ويا عثرةً أنى يقال عثورها
بلّيت فلم تفلح فؤادي حرورها
على الرغم أغنى من لديها فقيرها
مدائنها موتورةً وثغورها
وأحجارها مصدوعة وصخورها
ملابس حسن كان يزهو حبورها
لذابت رواسيها وغاضت بحورها
ومنبرها مستعبر وسريرها
وزائرها في ماتم ومزورها
وحلت عرى الإسلام إلا يسيرها
من النكر فانظر كيف كان نكيرها
وأموالنا فيئاً أبيحت وفورها
قناة ولا غارت عليهم ذكورها
علينا فوفت للصليب تدورها
وقد كسرت عقبانها ونسورها
وعضّ بأكبادالتقاف عقورها
نداء سراة القفر إذ ضلّ غيرها
لكالحة هز الصليب سرورها
ببابك موقوفو الحشاشات بورها

وكم من صغير بدّل الدهر دينه
كرُوبٌ وأحزان يلين لها الصفا
فيا قرحة القلب الذي عاش بعدها
ويا غربة الإسلام بين خلالها
ويا ليت أمى لم تلدني ولتيني
ويا لعزاء المسلمين لفاقة
منازلها مصدورة وبطاحها
تهائمها مفجوعة وبخودها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت
فلو أن ذا إلفٍ من البين هالك
تُرى للأسى أعلامها وهي خشع
ومأمومها ساهي الحجا وإمامها
أضعنا حقوق الله حتى أضاعنا
وملتنا لم تعرف الدهر عرفها
لقد سلبوا أوطاننا ونفوسنا
علوها بلا مهر وما غمزت لهم
وقد عدت الإفرنج من كل شاق
وقد كشرت ذؤوبانها وكلابها
ودبت أفاعيها إلى كل مؤمن
أنادي لها عجم الرجال وعربها
إله الورى ندعوك يا خير مرتجى
أغث دعوات المستغيثين إنهم

هذا قلّ من كُثر ، ونظائره في هذه الملحمة وفي غيرها من أدب
الفجيجة أكثر من أن يشار إليه .

لعلنا بعد هذا الاستعراض نعلم أن مرآتي المدن مبثوثة في كل أدب وفي
كل إقليم وفي كلّ لغة ما دامت هناك نكبات تهز الشعراء ، فالقول بأن
الأندلس قد ابتكرت هذا اللون يحتاج إلى تصويب كالقول تماماً بأن
مرآتي الأندلس في القديم قد تركت تأثيرها المجلجل في مرآتي فلسطين التي
نطالها الآن راجين أن يسعفها نصر من الله وفتح قريب .

قضية التأثير من الوجهة الإسبانية

تحدثنا فيما سبق عن ألوان هامة من التأثير المشهود للأدب الأندلسي في الآداب الأوروبية وقد تعمدنا أن نفصل القول تفصيلاً في كل ما يوضح هذا التأثير وينبئ عنه بأقوى دليل ، وللقاريء أن يراجع كل باب على حدة ليعرف من هذه الحقائق في أماكنها المبسوطة :

- ١ - أثر الموشحات والأزجال في شعراء التروبادور .
- ٢ - كيف كانت قصص الفروسية العربية فاتحة لأدب أوربي جديد .
- ٣ - تحليل الحب وتشريحه والسمو بالمرأة إلى عالم طاهر ، نفحة عذرية هبتت من أشعار العرب وآدابهم .
- ٤ - المقامات العربية توجه القصص الأوربي وجهة واقعية اجتماعية .
- ٥ - ابن طفيل يسبق أدباء العرب إلى الحديث عن التربية والتاريخ البشري والتأمل الفلسفي ، ويجذب المفكرين إلى احتدائه .
- ٦ - الملاحم الأندلسية شعبية وعربية توحى باتجاه جديد .

هذا غير الفصول التي تشرح التأثير في أدب المشرق ، كما في حديثنا عن رسالة التوابع ومقدمة ابن خلدون عن أثر الأندلس في الثقافة العلمية بمصر .

أذكر أنني قلت في مقدمة هذا الكتاب : « وقد كنا نعهد من يخوضون هذه المباحث يوجزون القول ، بحيث يدرجونها جميعاً في باب واحد ، ولكننا وقفنا وقفات هادئة لدى كل مبحث ، لئلا نرد على من يزعمون أن

إيضاح التأثير الأندلسي في الأدب الأوربي شاق عسير ، لأن الآثار الأدبية بزعمهم تندرج سريعاً في التأليف المطرد بحيث يتعسر تمييز أصولها على الوجه الصحيح ، ولا كذلك الآثار الفنية والحضارية ، وهم يقولون إننا لا نستطيع أن ننكر أثر الأندلس في الموسيقى والغناء وفي الزخرفة المعمارية والهندسية الفنية لوجود الآثار والمواثل ولكننا نجد من ينكر التأثير الأدبي معارضاً هذه البحوث باحتمالات أخرى وافتراضات تقوى وتضعف . وقد كان ذلك ممكناً لو أننا أجمالنا حديث التأثير في بضع صفحات كما تعود أن يجعله الكاتبون . أما وقد أفردنا كل باب ببراهينه وأدلته ، فإن الافتراضات المحتملة لا تنهض في دحض الواقع الزاسخ إلا كما تقدر نسمة واهنة على زعزعة طود مكين . »

هذا ما قلته في المقدمة ولعلي بعد تحرير هذه الصفحات قد قاربت ما أريد على أن مما يساعد على إيضاح الحق وجلائه أن أكثر القائلين بهذا التأثير القوي غربيون لا شرقيون ! فقد ساعدت القرون المتعاقبة على صفاء كثير من ذوي النفوس المخلصة من شوائب التعصب والاندفاع فنظروا بعقولهم البريئة إلى التراث العربي نظرات صادقة ، وفتحوا أعينهم المتيقظة على مكوناته وذخائره فما وسعهم أن ينكروا الحق الصراح ، فسجلوه واثقين ، وسنحاول الآن أن نتابع خطوات التطور المتشد على مرّ الأجيال من النقيض إلى النقيض في هذه القضية ، لنرى كيف قاومت أسبانيا ثقافة العرب عن كراهية حاقدة ثم تراخت بها الأيام هلى هذه الكراهية المتنمرة أحقاباً ذات عرض وطول حتى استسلمت في النهاية إلى التسليم بالحق لأصحابه فوزنت تاريخ العرب في بلادها بميزان جديد ! سقطت الأندلس المسلمة في يد أسبانيا النصرانية ، فهبت هذه تطارد الإسلام بكل ما تستطيع وتعدّ قرونه الثمانية بالأندلس ليلاً دامساً يجب أن تزول آثاره الكريهة عن البلاد ، وانطلق الكتاب يؤرخون العهد العربي وهم يتوجعون لمحنة قاسية طال عليها الأمد فهو في رأيهم حلم مفزع رهيب جثم كابوسه الثقيل على صدورهم فكظم الأنفاس في عنف حتى استيقظوا بعد بلاء شديد ! وقد دخل الكردينال كمنيس غرناطة في

سنة ١٤٩٩ وحث مطرانها ودوقها على اتخاذ وسائل حاسمة لتنصير المسلمين وشَرَعَ أعنف وسائل الإرهاب من تقتيل وإحراق وإغراق لمن تُحدثه نفسه بالمقاومة ثم جَمَعَ ما استطاع جمعه من الكتب العربية ورمها أكداً فوق أكداً في أكبر ساحات المدينة وأضرم فيها النار لتذروها رماداً في يد الريح وقد ذهب بعض الكتاب إلى أن عدد ما أحرق من الكتب العربية يبلغ المليون، وهو رقم يصل إلى ما أغرقه هولاء من الكتب الإسلامية في دجلة والفرات حين اكتسح التتار بغداد ! والله كم لاقت الثقافة العربية من أهوال على يد الهمج والرعا .

كان من نتيجة ذلك أن رأى مؤرخو الأسبان أن الخط من شأن الحضارة العربية واجب ديني ووطني معاً ، فأخذوا يستمطرون اللعنات على العصر الإسلامي ويتخيلون شتى الموبقات المنكرة لإلصاقها بهذه الحقبة المضطهدة وإذا أعجزهم أن يروا من الأحداث نواة يغذونها بالتزويد ويجوفونها بالتمويه ، استعاروا من العصور المظلمة في غير الأندلس ما يروع ويفزع ثم صبوه ظالمين على العرب والإسلام وفي هذا الاتجاه الجائر كتب « ماريانا » في عصر شارل كان تاريخ أسبانيا العام وقد جعله عدلاً ومرحمة إلا فيما يختص بالعصر الإسلامي فهو عهد الجرائم والفظائع والنكبات ، ومن المذهل أن الأندلس قد احتلت قبل العرب بطغاة أجنبية سفاحين ، ولكنهم كانوا في رأي ماريانا معتدلين ذوي مطامح ! بل إن الأندلس بكل تأكيد لم تتردّ في هوة أعظم وأقسى مما كانت عليه قبيل الفتح الإسلامي ومع اتضاح هذه الحقيقة البديهية ، فإن عهد لدريق وغيطشة كان في رأي هؤلاء هو الشفق الذي يجلل الأفق قبيل غروب الشمس وانتشار الظلام . . . ونادى بعضهم جهرة بأننا إذا أردنا معرفة أصل كل تقدم حضاري في أسبانيا فلنبحث عنه لدى اليونان أو الرومان دون العرب لأن حكم هؤلاء البدويين قد أضر تقدم الأسبان قرونًا عديدة ، ولولا ذلك لنهضت بلادهم سريعاً كما نهضت فرنسا وإنجلترا وألمانيا وشعوب القارة المتحضرة ، وقد نسوا أن تأخر أسبانيا إذا عدت أسبابه فإنه يرجع مبدئياً إلى إبعاد العرب واستئصالهم وقد كانوا

أصحاب الزراعة والصناعة والتجارة والعلم والعمل فلما نأوا عن ربوعهم أعوزها أن تجد من يقوم على نهضتها العمرانية فرُدت إلى الحضيض ، والذي يشك في ذلك - كما يقول الدكتور أحمد أمين في ظهر الإسلام (١) :

« يجب أن يقارن بين قرطبة وأشبيلية وغرناطة وغيرها من مدن الأندلس أثناء ازدهارها وبين الأمم الأوروبية في ذلك الزمن ، وليكن منصفاً في المقارنة ! ! أيهما كان أرقى علماً ، وأحسن حضارة وأسمى تقدماً هل يساوره شك في أن الأولى كانت كلها أرقى من الثانية وأن بعض المؤرخين شبه مدن الأندلس وسائر الممالك الأوروبية بحال «فينا» بين بلاد البلقان جميعها .

ولو كان الذين يكتبون تاريخ الأندلس على هذه الصورة المنكرة يجهلون الحقائق السافرة لالتمسنا لهم بعض العذر في أحكامهم الخاطئة المخطنة ولكنهم يعرفون معرفة يقينية أن أول مدرسة للترجمة بأوروبا قد نشأت في طليطلة بالقرن السابع فتحولت بذلك إلى مركز ثقافي كان يديره لأول عهده «دون رايمونديو» أسقف المدينة، وقد ترجمت إذ ذاك مؤلفات عربية لابن سينا والغزالي ومؤلفات يونانية عن الترجمة العربية لأرسطو ثم أخذ يتوافد على هذه المدرسة الفريدة عشاق المعرفة من الشعوب اللاتينية جميعاً . وفيهم القسس والرهبان ليجدوا الزاد الصالح من ثقافة العرب ، وتوالت القرون على نشاط هذه المدرسة حتى دعت الحاجة إلى إنشاء غيرها فأسس «رايمونديو ليوليو» مدرسة الدراسات الشرقية في أجمل سواحل «مايوركا» لتساعد على نشر الثقافة الأندلسية ، أما الفونسو العاشر فقد أفرغ اهتمامه في هذا المضمار واهتم بدراسة العلوم والآداب العربية ، بل أمر بترجمة القرآن الكريم إلى الإسبانية مع مؤلفات تقدمت الإشارة إليها مثل كليلة ودمنة والسندباد وزاد فأنشأ في أشبيلية مدرسة عربية ثالثة ! فليت شعري ماذا كانت تصنع مدارس طليطلة وأشبيلية وميرمار إذا كانت الثقافة العربية لا شيء كما يدعون ، وهل يعقل أن يقدم أعداء العرب على إنشائها وهم

(١) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٠٩ .

لا يلمسون بها نفعاً يتاح أو أن المعقول أن الثقافة العربية الراقية قد أجبرتهم على الإذعان لسيطرتها ، فكانت معراجهم الأول إلى الارتقاء ! أجل لقد أجبرتهم على ذلك صيحات الإنكار من الحمقى والمتجاهلين ، وكان من التناقض المضحك أن يهجن المسرفون من المؤرخين عهود العربية الزاهرة وهم يتعلمون لغتها وعلومها في مدارسها ويرتشفون الزلال من معيها الشجاج !

مهما يكن من شيء ، فقد ظلّ ما بقي من أكداس المجلدات العربية بعد أن أعدم الحشد الكثير مجفواً مهملاً في دير الأسكوريال حتى نشبت النار بهذه البقية المجفوة فلم تترك منها سوى الفين ، وكانت قبل الحريق فوق عشرة آلاف مخطوط ! فاستيقظت الحكومة الأسبانية من غفلتها (١) - كما يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان - واستقدمت من رومة حبراً لبنانياً كبيراً هو العلامة ميشيل الغزيري، الذي عرف باسم « كازيري » فقام بدراسة هذه المخطوطات ، وأفرد لها فهرساً كبيراً تحدث فيه عن أغراض كل مؤلف ، وصدّره بمقدمة حافلة تبسط أهمية هذه المخطوطات ، فوجه الأنظار بذلك إلى الكتب العربية بعد أن كان الباحثون لا يعلمون عنها شيئاً بل يكتفون بالمراجع النصرانية ، وكلها مكتوب من زاوية خاصة تسلك سبيل الدعاية السياسية للقومية والعنصرية ! وحينئذ نشأت طائفة جديدة من المؤرخين تقابل بين الآراء المختلفة ، وتعرض الرواية العربية بجوار الرواية الأسبانية وتستنتج ما يفرضه منطق الموازنة من حقائق تثبت تقدم الأندلس وعظمتها وازدهارها ، وكان من هذه الطائفة الجديدة « أندريس » و« ماسدى » و« كوندى » ، ولأمر ما مال الأخير إلى ترجيح الروايات الإسلامية حتى كاد يعتمد عليها اعتماداً كلياً ، فوجه الأذهان إلى دراسة المخطوطات العربية والعكوف عليها لمعرفة الحقائق الجديدة ، ولكن المتطرفين من ذوي العصبية قد نقدوه نقداً لاذعاً ورأوا في تاريخه هدماً مدمراً لكل ما خطه

(١) مجلة الرسالة يوليو سنة ١٩٣٦ .

سابقوه من إرجاف وتهويل ، لا سيما وكوندى متبرم ضائق بحركة الاضطهاد الطاغية التي أرهبت المسلمين عقب سقوط غرناطة فجعل يقسو على مواطنيه قسوة نجد مبرراتها من الواقع الدامي ويكشف للناس فظائعهم الرهيبة فباء بإنصاف الحق وإغضاب المترمتين .

ولكن هؤلاء المنصفين لا يقفون وحدهم في الدراسات، الاستشراقية ، فهناك من مستشقي الدول الأوروبية عدا أسبانيا – من لا يسره أن تكشف الحقائق مأخوذة من الروايات الإسلامية ، وفيهم من سار له ذكر رنان في تدوين الثقافة الأندلسية حتى أصبح حجة في موضوعه ، ويرجع إليه كبحاثة راسخ القدم ، عميق الاطلاع ، والمستشرق الهولندي الكبير دوزي مثال لمن نعنيه ، فقد قسا قسوة عنيفة على مؤرخي الأسبان من طراز ماسدي وأندريس ورماهم بضيق الأفق ، وضحالة المعرفة وتابعه رهط من تلاميذه الكثيرين ، وقد ظنوا أنهم بهجومهم على هذا نفر من مستشقي الأسبان يخدمون أنفاسهم أو يحولون اتجاههم على الأقل إلى غير منحاه الأندلسي ، وما علموا أنهم أوقدوا جذوة الحمية في نفوس الأسبان فعكفوا على القراءة المستأنية ، وراجعوا المظان العديده شرقية وغربية حتى اطمأنوا إلى نتائج حاسمة ، جأهروا بها ظافرين منتصرين ، فكشفوا مناحي متعددة من التأثير العربي ، وسنلّم في إيجاز ببعض من أسهموا في ذلك ، لنرجع بالفضل إلى أهله شاكرين !

كان الدوق باسكوال جايانجوس (١٨٠٩ – ١٨٩٧) أول أستاذ جامعي للغة العربية في مدريد ، ألف كثيراً في الدراسات العربية بلغات مختلفة وقد ترجم أجزاء من نفح الطيب ، ونشر مخطوطات هامة أشهرها كتاب ابن القوطية عن غزو العرب لأسبانيا ، ولا ترجع أهمية الرجل إلى هذه هذه الدراسات والمنشورات وحدها ، ولكن إلى شيء آخر هو أثره البعيد في تنشئة تلميذه الصبور فرانشسكو كوديرا (١٨٣٦ – ١٩١٧) إذ صار خليفته في الدراسات العربية ، وقد أجاد لغات كثيرة مع إتقانه العربية ثم

أقدم على إنشاء دار للكتب المخطوطة بالاسكوريال وباشر طبع أصول منها بنفسه ، حيث استطاع بصبره أن ينشيء لأول مرة في إسبانيا مطبعة عربية ، وأن يوجه تلاميذه إلى جمع الحروف بالمطبعة ، ويدربهم على إجادة ما يتفرغ له عمال المطابع من رصف وتصفيف دون أنفة واستكبار ثم أشرف على طبع نفائس هامة من المخطوطات وكان يجمع تلاميذه في بيته ، فتوسط حلقة من الباحثين النبهاء زاولوا النشر والتأليف بجدارة ، حتى استطاع الأسبانيون أن يقارنوا بإخوانهم الفرنسيين والإنجليز والروس والألمان في حقل الدراسات الاستشرافية من ناحية الإنتاج الكمي ، أما اكتشاف المجهول في حقل التأثير العربي فقد فازوا منه بأوفر نصيب . وسيسلمنا كوديرا إلى تلميذه الكبير (خوليان ريبيرا ١٨٥٨ - ١٩٣٤) .

وكان أستاذ العربية بسرقسطة ومدريد ، وهو صاحب النظرية الخطيرة التي أعلنت تأثير الموشحات والأزجال في شعراء التروبادور ، إذ قرأ ديوان ابن قزمان ودرسه فنياً ولغوياً وعروضياً ، وكشف كثيراً من مفردات اللغة الشعبية التي كان يتفاهم بها المستعربون الأسبان مزيجاً من العربية واللاتينية ، كما قال بوجود ملاحم شعبية أندلسية أثرت في الأدب العربي الأندلسي فوجهت الشعراء إلى الأراجيز التاريخية وإن ساروا فيها على نحو ضيق لم ينفرج به الخيال إلى دائرة ذات اتساع ، أما دراسته عن الموسيقى الأندلسية فقد انتهى بها إلى أنها كانت المفتاح المؤدي إلى حل الرموز الغامضة في الموسيقى الأوربية ، وعلى سننها طرد النسق الموسيقي فيما نقل عن الأندلس في العصور الوسطى ! وهو الذي تبنى فكرة الأصل الإسباني لمسلمي أسبانيا محاولاً إثباتها من الوجهة العلمية إذ يرى أن العرب الفاتحين منذ عهد طارق نزلوا الأندلس جنوداً دون أسر وقد تزوجوا من الأسبانيات جيلاً فجيلاً حتى ذابوا في الجنس الإسباني ولم يعد للواحد منهم سوى قطرات ضئيلة من الدم العربي كادت تتلاشى كقطعة في زجاجة ! ونحن حين ننقل عنه هذا الرأي لا نميل إلى موافقته ، ولكننا نلفت النظر إلى تعسف استدلاله فهو

يضرب الأمثلة على هذه القضية من الأسرة الأموية فيقول ما خلاصته نقلاً
عن ترجمة الدكتور هيكل ص ٤٩ من كتابه :

« إن عبد الرحمن الداخل كل يحمل نصف دم عربي فقط لأنه كان
من أم غير عربية وكذلك ابنه هشام لا يحمل إلا ربع دم عربي لأن أمه
كانت أيضاً غير عربية ، وهكذا تتناقص نسبة الدم العربي كلما مضينا من
أمير إلى آخر بينما تتضاعف نسبة الدم الأجنبي فالحكم بن هشام ليس له
من الدم العربي إلا الثمن ، وعبد الرحمن الأوسط ليس له إلا جزء من
سنة عشر جزءاً والأمير محمد ليس له إلا جزء من اثنين وثلاثين والمنذر
بن محمد ليس له إلا جزء من أربعة وستين . وهكذا يمضي خوليان ريبيرا
في استشهاده التاريخي مسلسلًا حتى يصل إلى هشام الثاني فلا يكون له
من الدم العربي إلا جزء من ألف وأربعة وعشرين جزءاً . »

كأني بالأستاذ ريبيرا يحاول أن يكسب الحضارة الأندلسية العربية
ويضمها إلى التراث الأسباني الغربي بمجرد افتراض متخيل ليصبح ابن حزم
وابن مسرة وابن رشد وابن طفيل وابن باجة وابن زيدون وأضرابهم من
أعلام الفكر والأدب أسبانيين ما بين غمضة عين ، وناحية المحمّدة في
اتجاهه أن يفتخر بأعلام العرب ويраهم أجدر بالانتساب إلى موطنه أما ناحية
الخطأ فإنه نسي حقائق كثيرة تهوى بنظريته إلى البطلان وقد أشار إليها
الدكتور هيكل ص ٤٧ من كتابه عن الأدب الأندلسي . إذ قال : « ولسنا
ننكر الدافع الكريم الذي حمل الأستاذ ريبيرا على محاولة إثبات أن الأندلسيين
أسبان مسلمون فهو يحاول كسب الحضارة الأوربية وضمها إلى التراث
الأسباني ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نذهب معه فيما ذهب إليه من
تجريد الأندلسيين من عروبتهم ولا نستطيع كذلك أن نسلم بتلك التجربة
التي أجراها على الأسرة الأموية الأندلسية كدليل على ذوبان الدم العربي
في الدم الأسباني لأننا لا نتصور أولاً أن كل الذين جاءوا إلى الأندلس من
الرجال قد تركوا نساءهم في المشرق ، ولأننا لا نتصور ثانياً أن الوفود على

الأندلس كان دائماً من نصيب الرجال دون النساء ، ولأننا لا نتصور ثالثاً أن كل عربي في الأندلس كان ينجب دائماً من أسبانية جديدة وإن تصادف ذلك في الأسرة الأموية فالمعقول أن توجد مولدات من أب عربي وأم أسبانية ، وأن الزيجات كانت تتم بعد الجيل الأول من هؤلاء المولدات ، وبهذا احتفظ الأندلسيون من غير قصد بنصف الدم العربي على الأقل ، وإلا فكيف يتصور بناءً على المثال الذي ضربه الأستاذ ريبيرا أن كل زيجة من عربي وأسباني كانت تنتج رجالاً قط يضطرون إلى الزواج من أسبانيات خالصات « ا هـ .

على أننا لو سلمنا من باب الجدل الفرضي فقط بنظرية ريبيرا على بطلانها الواضح لواجهناه بمشكلة جديدة هي أن هؤلاء الأسبان دماً ولحماً كما يرى لم يحملوا مشعل الثقافة بالأندلس ، لكونهم أسبانيين أو عرباً بل لكونهم ذوي حضارة إسلامية ، فأساس التقدم في عصور الأندلس لم يرتبط بالعرب إلا لكونهم مسلمين يفتحون العيون على مثل جديدة ، في الإدراك والوجدان والسلوك ، وبهذه المثل أصبحت قرطبة في ازدهارها لا تقل شأناً عن بغداد ، فليكن أصحاب الحضارة الأندلسية أسبانيين دماً كما يريد الأستاذ أن يقول ، ولكن الفارق الأول بين من سبقهم من أبناء جنسهم في عهود الروم والوندال والقوط وبين هؤلاء الذين أورثوا أوربا حضارة مزدهرة ، هو أن الآخرين تقدموا عن طريق الإسلام ، هذه حقيقة ماثلة لا أدري لماذا يشفق بعض الباحثين حتى من العرب أنفسهم من تسجيلها وهي من الواضوح بحيث لا تنكر ، ولعمري لو زالت العربية من الأندلس وبقيت على إسلامها ما كان هناك مأساة ونواح على الفردوس المفقود ، ولكانت أسبانيا لدينا كتركيا وإيران وباكستان وأفغانستان وأندونيسيا ممن يعتزون بالإسلام ، ولا ينطقون بالعربية . أما المأساة الكارثة حقاً فهي ضياع للإسلام بحضارته وثقافته وسموه ومثله من البلاد ، . هذه هي الداهية الدهيئة التي قال عنها أبو البقاء :

تلك المصيبة أنست كل كارثة وما لها في طويل الدهر نسيان

ويطول بنا القول لو أرسلنا الحديث عن جهاد الأستاذ خليان ريبيرا كما نريد فلنودعه إلى تلميذه وخليفته الأستاذ ميغيل آسين بالاتيوس (١٨٧١ - ١٩٤٤) وقد كان كاهناً يتصف بالنزاهة والتقوى ، تخصص في الفلسفة والتصوف ففتح عن مغاليق كثيرة وأزال غوامض مبهمة ووضع الصلة بين الفكر الإسلامي والفكر المسيحي في نحو يثبت تأثير الإسلام في قضايا الفكر العالمي من دينية واجتماعية وفلسفية وقد قال بعض الباحثين في تاريخ الاستشراق الأسباني أن جاينجوس كان الأرض الملائمة وكوديرا كان من بعده كالجذور التي تتماسك وتمتد في شعاب الأرض ، ثم نمت الجذور فكان ريبيرا هو الجذع القوي حتى اكتمل النماء فصار أسين هو الزهرة والثمرة .

لقد نهج التلميذ أسين نهج الأستاذ ريبيرا فاستطاع أن يكون رأياً عاماً أسبانياً في دوائر البحث العلمي يجعل من الأسباب حتى المتعصبين منهم للأسبانية والكاثوليكية من يعجبون بأبائهم المسلمين ويفتخرون بأنهم باعثوا الحضارة الأوروبية ، وحتى استطاع في أوائل سنة ١٩٢٩ أن تستجيب له جامعة غرناطة فقيم احتفالاً كبيراً لذكرى الخلافة الأندلسية المناسبة مرور ألف عام على قيامها ، فكان ذلك أول حادث رسمي من نوعه يدل على التفات الدوائر المسئولة في إسبانيا إلى تقدير أسبانيا المسلمة ، وما لها لا تلتفت إلى ذلك وقد أكدت لها بحوث آسين وأساتذته أن الأسلاف السابقين من المسلمين كانوا أساتذة الفكر الأوربي بعامه ، وأن أسبانيا أصبحت معلمة الشعوب ورائدة الأجيال . وقد ترك أسين أبحاثاً ذات دوي وصليل ، أهمها بحثه الدقيق عن الكوميديا الإلهية وتأثر دانتي بقصة الإسراء والمعراج في الإسلام ، وطبيعي أن تهب الاعتراضات في وجهه من غلاة الناقدين ، وكان أهم اعتراض قدم إليه أن دانتي لم يكن يقرأ العربية حتى يلم بجادث المعراج كما صورّه المسلمون وتشاء الأقدار أن تجيب على هذا الاعتراض بعد وفاة أسين سنة ١٩٤٤ ، إذ اكتشف مستشرقان أحدهما أسباني هومونيوس ساندينو والآخر إيطالي هو تشيرولي أن مخطوطاً عربياً عن المعراج قد ترجم إلى الأسبانية ثم إلى الفرنسية واللاتينية بأمر الملك الفونس العاشر ، وقد كان

نفوذه عظيماً على أكثر دول أوروبا وتؤكد المعلومات التاريخية وصول الترجمة اللاتينية إلى إيطاليا ووجودها في مكتبة الفاتيكان وقد عقدت الفصول في الموازنة بين الأثر والمؤثر موازنة تفصيلية تتحدث عن الجحيم ورفاق الطريق والنسر الملائكي ذي الأجنحة الكثيرة والشعاع الرفاف كما صوره دانتي مستلهماً ديك المعراج ، وارتداد البصر حسير أمام نور الله مما ينطق بالمطابقة ويتعب منكرها تعباً يقذف به إلى اللجاجة العمياء وهي لا تفيد .

لقد كان على مؤرخي الحركة الاستشراقية من كتاب العرب على الأقل أن يفرّدوا الصفحات الطوال بمجهودات الأساتذة الأسبان وفي طليعتهم من أسلفنا الإشادة بمجهودهم في هذا الفصل ولكننا ندهش كثيراً حين نرى من يتحدثون عن دور الاستشراق في تاريخنا الأدبي يملئون الدنيا ثناء على مستشرفي فرنسا وإنجلترا وهولندا وإيطاليا وألمانيا وروسيا ثم لا يكادون يذكرون شيئاً عن ريبيرا وآسين وكوديرا ، وأحدث كتاب عربي قرأته عن المستشرقين هو كتاب الأستاذ نجيب العفيفي ، وقد أجمل الحديث عن الأساتذة الأسبان فيما يقرب من صحيفتين فقط ، على حين أفاض في سير المغرضين من ذوي النزعات المريية إفاضة توهم القاريء أنه يطالع مآثر ذوي النزاهة والإخلاص في سيرهم ، ولست بذلك أنكر تاريخ الحركة الاستشراقية في دول الغرب على وجه شامل دقيق ، ولكنني آسف حين أرى كاتباً عربياً يهتم بلامنس أكثر من آسين ، وهو يعلم أن لامنس ما أفرد عن تاريخ يزيد بن معاوية إلا لينتقص الحسين بن علي ، فإذا أثنى كثيراً على والده معاوية قرن ذلك بمعاوية علي بن أبي طالب واتهامه ثم إذا تطرق إلى مديح جده أبي سفيان وجد الفرصة سانحة للوقعة في نبي الإسلام ويمضي إلى جده الأعلى حرب بن أمية ليفضله على عبد المطلب بن هاشم . وهكذا تصبح سيرة يزيد ، مداراً للطعن في صاحب الدعوة الإسلامية وأسرته . وكأن التاريخ الإسلامي في أربعة عشر قرناً لا يضم أفضل من يزيد لنسب في الثناء عليه على حساب سواه . وقد أعقب آسين أساتذة من زملائه مثل أتحيل جونثال باليئا (٨٨٩ - ١٩٤٩) أو من تلاميذه مثل (أميلو

غرسه غومس المولود سنة ١٩٠٢) وسفير أسبانيا في بيروت ورهط من مريديه فكتبوا كثيراً عن الأدب الأندلسي والفكر العربي ، واكتشفوا المجهول من الآراء والمخطوط من الكتب ، وأنشأوا المعاهد الخاصة بالدراسات العربية والمجلات الحافلة بالبحوث الأندلسية . . . وإذا كان أكثر هؤلاء لا يزالون يواصلون جهودهم الرفيعة في تسجيل عظمة الأندلس الثقافية والحضارية فإننا ننتظر منهم الرائع المبتكر غداً وبعد غد ، وقد أخلصوا النية وصدقوا العمل ، والنشاط موفور ، والحقل فسيح .

لقد وجدت الحضارة العربية والثقافة الأندلسية عشاقها بين مثقفي الأسبان . فكشفوا عن تأثيرها مدعماً بالدليل مفصلاً بالأمثلة والشواهد ! ولعل مما يسر العربي الشرقي أن يعلم أن بين أعلام الفكر في شتى بلاد أوربا من يؤمنون بثقافة العرب وحضارة الإسلام وتأثير المشرق إيماناً لا يتطرق إليه الارتياب ، وقد سجلوا من الأقوال في ذلك ما ذاع واشتهر ! ونحن لا نجد في ختام هذا الكتاب نشيداً رائعاً تنتهي به هذه الصفحات ، أعظم من أن ننقل أحد هذه الاعترافات المخلصة لرجل من أئمة الفكر الفرنسي ، يعجب بحضارة العرب ، ويتأسف على انطفاء مشاعلهم الوضيئة بعد أن هدت المدلجين في الظلمات .

يقول الأديب الفرنسي الأشهر موسيو كلوت فارير : « في سنة ٧٣٢ م حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفجائع التي انقضت على الإنسانية في العصور الوسطى وكان منها أن غمرت العالم الغربي - مدة سبعة قرون أو ثمانية إن لم نقل أكثر طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة . . . هذه الفاجعة هي التي أمقت حتى ذكرها ، وأعني بها الانتصار البغيض الذي ظفر به على مقربة من بواتيه ، أولئك البرابرة المحاربون من الإفرنج بقيادة الكارولنجي شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين الذين لم يحسن عبد الرحمن الغافقي جمعهم على ما ينبغي من الكثرة ، فانهزموا راجعين أدراجهم في ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدينة ثمانية قرون إلى الوراء!

يكفي المرء أن يطوف في حدائق الأندلس أو بين الآثار العربية التي لا تزال تأخذ بالأبصار مما يبدو من عواصم السحر والخيال - أشبيلية وغرناطة وقرطبة وطلطلة - ليُشاهدَ والألمُ آخذ منه ما عسى أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العمراني الفلسفي السلمي المتسامح ، وخلصها من الأهاويل التي لا أسماء لها، وكان من ذلك أن نتج خراب «غاليا» القديمة فاستعبدتها لصووص أوسترازيا ثم اقتطع قرصان النورمانديين جزءاً منها . ثم تجزأت وتمزقت وغرقت في دماء ودموع ، وفرغت من الرجال بما بعث في أرجائها من الدعوة إلى الحروب الصليبية ، وانتفخت بالأشلاء والبخث بحروب داخلية وخارجية لا تحصى حدث ذلك حين كان العالم الإسلامي من نهر الوادي الكبير في أوروبا إلى نهر السند في قلب آسيا يزدهر كل الازدهار في ظل الإسلام ، ليس ما كتبتة فصلا من التاريخ الرسمي ، بل هو التاريخ الحقيقي الذي يتعلسه المرء بنفسه بما يجتازه من بحار ، ويقطعه من فياف وآفاق ، ويقلمه من خزائن الكتب الأجنبية ، وليس هذا بعزير على حياة سائح يريد أن يفضح عقب رحلة له - ما كان يلمسه بأطراف بنانه من تلك الأكاذيب الكبرى السفهية التي أراد معلمون - ولا زالوا يريدون - وضعها أمام أعيننا كأنها حقيقة ، بل هي عندهم الحقيقة !!! .

ليت شعري أهذا نشيد يتخم به الكتاب أم هو اعتراف يسجل على الأحقاب

سلام على الأندلس في أمسها السعيد !

مراجع الكتاب

- ١ - أثر العرب في الحضارة الأوربية - لعباس محمود العقاد - م . دار المعارف ط أولى .
- ٢ - أدب المغاربة والأندلسيين - لمحمد رضا الشيبني - م . معهد الدراسات العربية .
- ٣ - الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكل - مكتبة الشباب بالمنيرة .
- ٤ - الأدب الأندلسي لجودت الركابي - م . دار المعارف .
- ٥ - الأدب المقارن - للدكتور محمد غنيمي هلال - ط الثالثة .
- ٦ - الأدب الأندلسي - لعبد الجواد رمضان - مطبعة الأزهر .
- ٧ - الإسلام والغرب في الأندلس للمستشرق بروفنسال ترجمة السيد سالم وصلاح حلمي - م . نهضة مصر .
- ٨ - الإسلام في أسبانيا للدكتور لطفي عبد البديع سلسلة المكتبة التاريخية - ط أولى .
- ٩ - بلاغة العرب في الأندلس للدكتور أحمد ضيف - مطبعة مصر - ط أولى .
- ١٠ - تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) للدكتور إحسان عباس - ط بيروت الأولى .
- ١١ - تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي - للأستاذ أحمد السكندري - ط الثالثة .